دولة فلسطين
دار الإفتاء الفلسطينية

الرسول الأسوة
محمد صلى اللّه عليه وسلم

إعداد: الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

القدس
1440هـ - 2018 م

هدية

من إصدارات
دار الإفتاء الفلسطينية

القدس
1440هـ - 2018 م

إعداد:

الشيخ محمد أحمد حسين / المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

مراجعة شاملة

الشيخ إبراهيم خليل عوض الله/ نائب المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

منسق أعمال الفريق	أ. مصطفى أعرج
المونتاج وتصميم الغلاف	يوسف تيسير
تدقيق لغوي	هالة عقل / إيمان تايه
تدقيق شرعي	نجود بدران/ حذيفة غنيمات

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد؛

فالهدي النبوي ثاني تشريع بعد كتاب الله عز وجل، ينهل منه المسلم علوم دينه ودنياه، ويسير على درب المصطفى، صلى الله عليه وسلم، ليتمثل سيرته العطرة في حياته كلها فرسول الله، صلى الله عليه وسلم، صاحب أعظم شخصية في التاريخ، كان زوجًا وأبًا وقائدًا ومحاربًا، وحاكمًا، وسياسيًا ومربيًا وداعية وزاهدًا وقاضيًا. وكون دار الإفتاء الفلسطينية تحمل على عاتقها مسؤولية نشر الوعي الديني بين أبناء المجتمع، فإنها تهدي لقرائها الأعزاء الجزء الحادي عشر من كتاب (الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم)، الذي يعرض بعضاً من هدي المصطفى، عليه الصلاة والسلام، وسيرته الطاهرة، بطريقة ميسرة، تمتاز ببساطة العرض، ووضوح الفكرة، ودقة المعلومة.

ويضم هذا الإصدار خمسين مقالاً سبق نشرها في زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، ضمن صفحة القدس الدينية التي تنشر كل يوم جمعة، وتوزعت هذه المقالات بين موضوعات عديدة، منها: العقيدة، والعبادات، والسيرة النبوية، وجهاد وأسرى، والمناهج والقيم.

وأسوة بالحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، القائل: (لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ)(سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، وصححه الألباني)، يسرني أن أتقدم بالشكر والتقدير من الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل الطيب في دار الإفتاء الفلسطينية وصحيفة القدس، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتهم، وأن ينفع الله بعملهم المسلمين، كما أسأله عز وجل أن يديم دار الإفتاء الفلسطينية منهلاً للعلم والخير والهداية، إنه الموفق إلى سبيل الرشاد.

وأخيراً نقول: إن أصبنا في هذا الكتاب وغيره من الأعمال، فبنعمة من الله وفضل، وإن أخطأنا فمن عند أنفسنا والشيطان، سائلين الله العفو والعافية، وقبول الأعمال الصالحة، بفضل جوده وكرمه.

الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

القدس: 1440هـ / 2018م

الفصل الأول
العقيدة

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم		
.1	حسبه الله وكافيه والمؤمنين	6
.2	من أطاعه فاز	11
.3	يرشد إلى مكفرات الخطايا والذنوب	16
.4	المؤمن يحبه ولا يرغب بنفسه عن نفسه	21
.5	ألف بين قلوب المؤمنين بأمر الله وإرادته	25
.6	يبين فضل المتحابين بجلال الله - الحلقة الأولى	31
.7	يبين فضل المتحابين بجلال الله - الحلقة الثانية	36
.8	يبين فضل المتحابين بجلال الله - الحلقة الثالثة	40
.9	يبين فضل المتحابين بجلال الله - الحلقة الرابعة والأخيرة	45
.10	يعبر عن يقينه وثقته بوعد الله	50
.11	يعبر في طريق هجرته عن يقينه بالمعية الإلهية	55
.12	يبين للعالمين منزلة المسجد الأقصى عند المسلمين	59
.13	يهيئ الأجواء الإيمانية لاستقبال رمضان بالعزم على التوبة النصوح	64

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
حسبه الله وكافيه والمؤمنين

عن ابن عَبَّاسٍ: ({حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ، عليه السَّلَام، حين أُلقي في النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ، صلى الله عليه وسلم، حين قالوا: {إِنَّ الناس قد جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ})[1].

{حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} عبارة إيمانية بامتياز، تعبر عما يرسخ في القلوب من مرتكزات تجاه التعاطي مع مجريات الأمور والحوادث، فلا مصرف لها وفق عقيدة المؤمن سوى الله سبحانه، إذ العبرة بقدرة الله ومشيئته، لا بقدرة الخلق وتدبيرهم، صحيح أن معظم الأمور تجري على أيديهم، لكن الحقيقة أنها مرتبطة بالمشيئة الربانية، فالله إن شاء قلب عالي الأمور سافلها، وجعل نارها برداً وسلاماً، كما كان مع خليل الله إبراهيم، عليه السلام، حين أُلقي في النار، فعطل الله خواصها المحرقة، وقلبها إلى النقيض، فلم تصبح غير محرقة فحسب، بل برداً وسلاماً، كما حدّث القرآن العظيم عنها، في قوله تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ* قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ* وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ}[2].

والمراد بالبرد والسلام هنا: أي ذات برد وسلام، وجاءت العبارة هكذا للمبالغة، واختلف كيف بردت النار، فقيل: أزال الله عنها ما فيها من الحر والإحراق، وقيل: دفع عن جسم إبراهيم حرها وإحراقها، مع ترك ذلك فيها، وقيل: خلق بينه وبينها حائلاً، ومعنى السلام هنا السلامة، وقد روي أنه لو لم يقل سلاماً لهلك إبراهيم من البرد.[3]

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة آل عمران، باب: {إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم} (آل عمران: 173).
2. الأنبياء: 68 - 70.
3. التسهيل لعلوم التنزيل: 3/ 29.

ويتماشى انقلاب خاصية النار في الحرق إلى نقيض ذلك، بقدرة الله تعالى ومشيئته سبحانه، مع الإيمان بأن الله على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه سبحانه إذا أراد أمراً مهما عظم أو صغر، فإنما يقول له كن فيكون، وهو القائل سبحانه عن ذاته وصفاته: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون}[1]، وقد تكرر النص اللفظي المحتوي على ذكر هذه الحقيقة الإيمانية في سبع مواضع قرآنية أخرى، غير ما ذكر في سورة البقرة، توزعت في ست سور، وذلك مرتان في سورة آل عمران، في الآيتين، 47، و59، ومرة واحدة في كل من سور الأنعام 73، والنحل 40، ومريم 36، ويس82، وغافر68.

معنى حسبنا الله:

معنى: {حسبك الله} أي كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين، والآيات القرآنية تدل على تعيين الوجه الأخير، وأن المعنى كافيك الله، وكافي من اتبعك من المؤمنين، لدلالة الاستقراء في القرآن، على أن الحسب والكفاية لله وحده، كقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ}[2].

فجعل الإيتاء لله ورسوله، كما قال: {...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ...}[3]، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جعل الحسب مختصاً به، وقال: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ...}[4]، فخص الكفاية التي هي الحسب به وحده، وَتَمَدَّحَ تعالى بذلك في قوله: {...وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ...}.[5]

وقال تعالى: {وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ

1. البقرة: 117.
2. التوبة: 59.
3. الحشر: 7.
4. الزمر: 36.
5. الطلاق: 3.

وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [1]، ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى سبحانه وتعالى على أهل التوحيد والتوكل من عباده، حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[2]، وقال تعالى:{فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [3]، إلى غير ذلك من الآيات.[4]

لم يرق للرازي حسب ما ذكر في تفسيره الكبير، ما ذهب إليه بعض المفسرين من حصر المراد بمعنى {فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ} هنا بما كان يوم بدر من تقوية للرسول، صلى الله عليه وسلم، وإعانة بنصر الله، وقال: هذا التقييد خطأ، لأن أمر النبي، عليه السلام، من أول حياته إلى آخر وقت وفاته ساعة فساعة، كان أمراً إلهياً، وتدبيراً علوياً، وما كان لكسب الخلق فيه مدخل.

ثم وقف الرازي عند تأييد الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالمؤمنين، حسب قوله تعالى: {وَبِالْمُؤْمِنِينَ} فنقل عن ابن عباس أنه يعني بذلك الأنصار، وناقش الرازي ذلك، فقال: فإن قيل لما قال: {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ} فأي حاجة مع نصره إلى المؤمنين، حتى قال: {وَبِالْمُؤْمِنِينَ}؟ فقال: التأييد ليس إلا من الله، لكنه على قسمين، أحدهما ما يحصل من غير واسطة أسباب معلومة معتادة، والثاني ما يحصل بواسطة أسباب معلومة معتادة، فالأول هو المراد من قوله: {الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ}، والثاني هو المراد من قوله: {وَبِالْمُؤْمِنِينَ} ثم إنه تعالى بين أنه كيف أيده بالمؤمنين، فقال: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ}.[5]

1. الأنفال: 62.
2. آل عمران: 173.
3. التوبة: 129.
4. أضواء البيان: 2/ 104 - 105.
5. الأنفال: 63، التفسير الكبير: 15/ 150 - 151.

أثر اليقين بحسبنا الله ونعم الوكيل:

من أبرز الآثار المترتبة على اليقين، بقاعدة الحسب والتوكل على الله، الطمأنينة التي يصبغ الله بها قلوب المؤمنين، فتجعلهم يواجهون الصعاب، وكيد الخلق، ومكرهم بجلد منقطع النظير، كما كان من إبراهيم، عليه السلام، حين تسلح بقول: {حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} لما رمي في النار ليحرق، ومثل ذلك ما كان من الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، حين تسلح بسلاح جده إبراهيم، عليه السلام، لما تحزب ضده الأحزاب من كل حدب وصوب، فقال: {حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} فكفاه الله إياهم، ونصره وصحبه عليهم، بعد أن واجهوهم بعقيدة راسخة، ويقين بتحقق وعد الله، الذي ذكر في قرآنه الكريم وصف حالهم في تلك الساعة العسرة، فقال عز وجل: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً}.[1]

وقد طمأن الله تعالى الرسول، صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين بأنه حسبهم وكافيهم وحاميهم، حيث خاطب جل في علاه رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ}[2]، ثم أتبع ذلك الخطاب بقوله عز وجل:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}.[3]

وفي التفسير الكبير أن الله تعالى لما وعده بالنصر عند مخادعة الأعداء، وعده بالنصر، والظفر في الآية التالية مطلقاً على التقديرات جميعها، وعلى هذا الوجه لا يلزم حصول التكرار؛ لأن المعنى في الآية الأولى إن أرادوا خداعك، كفاك الله أمرهم، والمعنى في الآية الأخرى عام في كل ما يحتاج إليه في الدين والدنيا، والمراد بقوله: {وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}

1. الأحزاب: 22.
2. الأنفال: 62.
3. الأنفال: 64.

الأنصار، وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، نزلت في إسلام عمر، وفي الآية قولان؛ الأول التقدير الله كافيك، وكافي أتباعك من المؤمنين، والثاني أن يكون المعنى كفاك الله وكفاك أتباعك من المؤمنين، قال الفراء: وهذا أحسن الوجهين، أي ويمكن أن ينصر القول الأول بأن من كان الله ناصره امتنع أن يزداد حاله، أو ينقص بسبب نصرة غير الله، والمحصلة بأن الكل من الله، إلا أن من أنواع النصرة ما لا يحصل بناء على الأسباب المألوفة المعتادة، ومنها ما يحصل بناء على الأسباب المألوفة المعتادة، فلهذا الفرق اعتبر نصرة المؤمنين، ثم بين أنه تعالى وإن كان يكفيك بنصره، وبنصر المؤمنين، فليس من الواجب أن تتكل على ذلك.(*)

سائلين الله العلي القدير أن يعمق إيماننا بحسبنا الله ونعم الوكيل، وأن ينصرنا بها كما نصر أولياءه وأصفياءه وأنبياءه، وخاتمهم محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* التفسير الكبير: 15 /152 - 153.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

من أطاعه فاز

عن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، إلا من أَبَى، قالوا: يا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَنْ يَأْبَى؟ قال: من أَطَاعَنِي دخل الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى)[1]

يربط الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف دخول الجنة بطاعته، فالذي يعمل بما جاء به، وينتهي عما نهى عنه، هو المطيع، الذي يستحق دخول الجنة، بخلاف الذي يتنكب دربه، فيعصي أمره، ويخالف نهيه، فهو العاصي الذي يستحق دخول النار، وليست هذه المعادلة من إحداث النبي، صلى الله عليه وسلم، وصنعه، بل تنطق بما جاء به الوحي إليه، فالله جل في علاه طالبه أن يأمر الناس بطاعة الله ورسوله، فقال عز وجل: {قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}[2].

وأمر الله المؤمنين بأخذ التشريع عن رسوله، صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[3].

وبهذا دحض لمزاعم القائلين بطاعة الله فحسب، والعمل بما جاء في القرآن الكريم دون السنة، فتلك مزاعم باطلة، إذ القرآن نفسه يأمر بالأخذ عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، في مجالي الأوامر والنواهي على حد سواء، حسب منطوق هذه الآية القرآنية الكريمة.

اقتران طاعته بطاعة الله:

نبه الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى الصلة الوثيقة بين طاعته، وطاعة ربه عز وجل، فقال: (من أَطَاعَنِي، فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي، فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي، فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي، فَقَدْ عَصَانِي)[4]

1. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.
2. آل عمران: 32.
3. الحشر: 7.
4. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} (النساء: 59).

وكثيرة هي الآيات القرآنية التي تقرن طلب طاعة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بطلب طاعة الله، وتكرر ورود هذا الاقتران في سياق الوعد بجزاء الآخذين به، وفوزهم يوم القيامة، كما في قوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[1]، وتكرر مثل هذا الوعد جزاء للطاعة في آيات عديدة، منها الآية 52 من سورة النور، و71 من الأحزاب.

ووعد الله الآخذين بهذا الاقتران أن يحشرهم مع صفوة الخلق يوم القيامة، فقال تعالى: {وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}[2]

وعيد غير المطيعين:

تكرر ورود اقتران طاعة الله وطاعة رسوله، صلى الله عليه وسلم، في سياق وعد من يأخذ به بالفوز، ودخول الجنة، يقابله وعيد المتنكرين له، أو المتولين عن هاتين الطاعتين بالعذاب الأليم، فقال تعالى:{... وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً}[3]

وورد مثل هذا الوعيد في الآية 92 من سورة المائدة، والآية 54 من سورة النور.

وأخبر القرآن الكريم عن حال الندم الذي يعتري من فاتهم التقيد بطاعة الله وطاعة رسوله، صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا}[4].

وحذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من ويلات التنكر لهاتين الطاعتين، فعن أبي مُوسَى، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إنما مَثَلِي وَمَثَلُ ما بَعَثَنِي الله بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ

1. النساء: 13.
2. النساء: 69.
3. الفتح: 17.
4. الأحزاب: 66.

أتى قَوْمًا، فقال: يا قَوْمِ؛ إني رأيت الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أنا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ من قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا على مَهَلِهِمْ، فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ منهم، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ، وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ من أَطَاعَنِي، فَاتَّبَعَ ما جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ من عَصَانِي، وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ من الْحَقِّ)[1].

التأكيد على لزوم العمل بالكتاب والسنة:

طاعة الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، هي أساس الواجبات، ويتجلى الأخذ بها في مواطن النزاع والخلاف، وذلك من خلال الرجوع إلى الكتاب والسنة والاحتكام إليهما، انصياعاً لأمره تعالى، الوارد في مثل قوله جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}[2]

والإصرار على النزاع يعني انحراف عن الامتثال لحكم الله الوارد في كتابه الكريم، وسنة خاتم النبيين والمرسلين، وحدوث ذلك يؤشر على اختيار درب الفشل الذريع، مصداقاً لقوله عز وجل: {وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[3].

والله سبحانه ربط الانصياع لطاعته وطاعة رسوله، صلى الله عليه وسلم، بالإيمان، فالمؤمن يطيع، بخلاف سواه، والله تعالى يقول: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[4].

وربطهما بحبه تعالى، حيث قال تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[5].

1. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.
2. النساء: 59.
3. الأنفال: 46.
4. الأنفال: 1.
5. آل عمران: 31.

وربطهما بنيل رحمته، فقال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [1].

وقال عز وجل:{وَأَطِيعُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[2].

وربطهما بنجاح الأعمال وقبولها، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [3].

وجعل الله اللجوء إلى طاعته وطاعة رسوله، صلى الله عليه وسلم، من أبرز مكفرات التقصير في أداء بعض الواجبات، فقال تعالى: {أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[4].

أي فإذا فرطتم فيما أمرتم به من تقديم الصدقات، فتداركوه بالمثابرة على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأطيعوا الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، في سائر الأوامر، فإن القيام بها، كالجابر لما وقع في ذلك من التفريط، والله خبير بما تعملون ظاهراً وباطناً[5].

الطاعة الدائمة:

يجدر التنبيه إلى أن الطاعة المرادة لله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، ليست انتقائية ولا مزاجية، بل هي طاعة دائمة ومستمرة، تلزم في الأحوال كلها، والظروف جميعها، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ، فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ)[6].

والأصل في الأوامر التي تصدر عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن يتلقاها المسلم

1. النور: 56.
2. آل عمران: 132.
3. محمد: 33.
4. المجادلة: 13.
5. تفسير أبي السعود: 8/ 221.
6. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية.

بالطاعة والالتزام، إلا إذا وردت قرائن تصرفها عن الوجوب إلى الاستحباب أو الندب، حيث يقول صلى الله عليه وسلم: (... فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ)[1]، وهو القائل أيضاً: (خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي...)[2].

طاعة الأنبياء:

الطاعة اللازمة للرسول، صلى الله عليه وسلم، هي نفسها التي لزمت للرسل والأنبياء من قبله، عليه وإياهم صلوات الله وسلامه، مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّاباً رَّحِيماً}[3]، فالله ما أرسل من رسول إلا وهو يريد أن يطاع ويصدق، ولم يرسل أحداً من رسله ليعصى.[4]

فالطاعة المطلوبة للرسول، صلى الله عليه وسلم، لا تقل أهمية أو لزوماً عن طاعة الله، وهما يعنيان لزوم العمل بالكتاب والسنة، بصورة دائمة، بعيداً عن المزاجية والانتقائية، والله تعالى يقول: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً}[5]، وللملتزم بهذه الطاعة وعد بالفوز والجنة، ولمتنكب دربهما وعيد بالجحيم والنار، حسب ما أخبر به خير الأنام محمد، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأزواجه وأصحابه الغر الميامين ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.
2. صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب حد الزنى.
3. النساء: 64.
4. التفسير الكبير: 10/ 128.
5. الأحزاب: 36.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
يرشد إلى مكفرات الخطايا والذنوب

عن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (ألا أَدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ، قالوا: بَلَى يا رَسُولَ اللهِ، قال: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ على الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إلى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ)[1]

محو الخطايا، كناية عن غفرانها، ويحتمل أن يكون المراد محوها من كتاب الحفظة، وذلك دليل على غفرانها.

وإسباغ الوضوء: تمامه، وعلى المكاره: هي الأمور التي يكرهها الإنسان وتشق عليه، مثل شدة البرد وألم الجسم، ونحو ذلك، ومسبغو الوضوء يأتون غُرًّا مُحَجَّلِينَ يوم القيامة، فعن نُعَيْمٍ الْمُجْمِرِ، قال: (رَقِيتُ مع أبي هُرَيْرَةَ على ظَهْرِ الْمَسْجِدِ، فَتَوَضَّأَ، فقال: إني سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يوم الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ من آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَن اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ)[2]

والتحجيل: بياض قوائم الفرس، وأصله من الحجل، وهو الخلخال.

وكثرة الخطا: ببعد المنزل عن المسجد، وكثرة التكرار.

وانتظار الصلاة بعد الصلاة: إذا صليت أنتظر الأخرى، في المسجد أو المنزل.

فذلكم الرباط: أي الرباط المرغوب فيه، وأصل الرباط: الحبس على الشيء، كأنه حبس نفسه على هذه الطاعة.

قال القاضي: هذه الأعمال هي المرابطة الحقيقية؛ لأنها تسد طرق الشيطان على النفس،

1. صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره.
2. صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب فضل الوضوء، والغر المحجلون من آثار الوضوء.

وتقهر الهوى، وتمنعها من قبول الوسواس، فيغلب منها جنود الشيطان، وذلك هو الحج الأكبر.[1]

ورفع الدرجات إعلاء المنازل في الجنة، ومن منازل الجنة الفردوس، فعن أَنَسٍ، رضي الله عنه، (أَنَّ أُمَّ حَارِثَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وقد هَلَكَ حَارِثَةُ يوم بَدْرٍ، أَصَابَهُ غَرْبُ سَهْمٍ، فقالت: يا رَسُولَ اللهِ، قد عَلِمْتَ مَوْقِعَ حَارِثَةَ من قَلْبِي، فَإِنْ كان في الْجَنَّةِ لم أَبْكِ عليه، وَإِلا سَوْفَ تَرَى ما أَصْنَعُ، فقال لها: هَبِلْتِ؟! أَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟! إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ في الْفِرْدَوْسِ الأعلى، وقال: غَدْوَةٌ في سَبِيلِ اللهِ، أو رَوْحَةٌ خَيْرٌ من الدُّنْيَا، وما فيها، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ، أو مَوْضِعُ قَدَمٍ من الْجَنَّةِ، خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما فيها، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً من نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إلى الأرض، لأَضَاءَتْ ما بَيْنَهُمَا، وَلَمَلأَتْ ما بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا -يَعْنِي الْخِمَارَ- خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما فيها)[2]

هبلت: أي ثكلت ابنك وفقدتيه، والهابل التي مات ولدها، ومن معانيها هنا، تساؤل: أفقدت عقلك مما أصابك من الثكل بابنك، حتى جهلت صفة الجنة؟

والفردوس: أوسط الجنة وأفضلها، والفردوس: البستان، وهو هنا إحدى أرفع منازل الجنة.

التوبة والاستغفار يمحوان الذنوب والخطايا:

دلت الشواهد الشرعية على حتمية ارتكاب البشر للذنوب والخطايا، وأرشدت إلى سلوك درب الاستغفار والتوبة النصوح، ففي الحديث القدسي، عن أبي ذَرٍّ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فِيمَا رَوَى عن اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قال:(... يا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وأنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً، فاستغفروني أَغْفِرْ لَكُمْ)[3]

فالخطأ من الإنسان ممكن، بل هو مدرك ذلك لا محالة، وذلك من خلال جوارحه، فعن أبي

1. تحفة الأحوذي: 1/ 142.
2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار.
3. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (كُتِبَ على ابن آدَمَ نَصِيبُهُ من الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذلك لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذلك الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ)[1]

فالإنسان خطّاء، لكن خير الخطّائين التوابون، وقد أمر الله جل ذكره عباده المؤمنين بالتوبة النصوح من المعاصي والآثام التي يرتكبونها، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.[2]

والتوبة النصوح أن تتوب من الذنب ثم لا تعود إليه أبداً، ولا تريد أن تعود، وقيل معناه: توبة خالصة، فهو من قولهم: عسل ناصح، إذا خلص من الشمع، وقيل: هو أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، كتوبة الثلاثة الذين خلفوا، ووصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي، والنصح في الحقيقة صفة التائبين، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم.[3]

والله يحب التوبة من عباده، بل يفرح بها، فعن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (الله أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ من أَحَدِكُمْ سَقَطَ على بَعِيرِهِ، وقد أَضَلَّهُ في أَرْضٍ فَلَاةٍ)[4]

وعن عبد اللهِ بن مَسْعُودٍ، رضي الله عنه، أنه حدث حَدِيثَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وَالآخَرُ عن نَفْسِهِ، قال: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ، يَخَافُ أَنْ

1. صحيح مسلم، كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره.
2. التحريم: 8
3. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 132.
4. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة.

يَقَعَ عليه، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ على أَنْفِهِ، فقال بِهِ هَكَذَا، قال أبو شِهَابٍ بيده فَوْقَ أَنْفِهِ، ثُمَّ قال: لَلهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عبده من رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلاً، وَبِهِ مَهْلَكَة، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عليها طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقَظَ، وقد ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حتى اشْتَدَّ عليه الْحَرُّ وَالْعَطَشُ، أو ما شَاءَ الله، قال أَرْجِعُ إلى مَكَانِي، فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فإذا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ).[1]

تجارة رابحة:

ذكر الله تعالى أعمالاً يغفر لصاحبها ذنبه، خلال عرضه سبحانه تجارة رابحة بينه وبين عباده، يقدمون خلالها إيمانهم وجهادهم بأموالهم وأنفسهم في سبيله، ويجازيهم فيها عز وجل بمغفرة ذنوبهم، وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ومساكن طيبة في جنات عدن، إضافة إلى تأييدهم بنصره والفتح القريب، فقال جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ* وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [2]

جاء في التفسير الكبير أن قوله تعالى: {هَلْ أَدُلُّكُمْ} في معنى الأمر عند الفراء، يقال: هل أنت ساكت؟ أي اسكت، وبيانه أن (هل) بمعنى الاستفهام، ثم يتدرج إلى أن يصير عرضاً وحثاً، والحث كالإغراء، والإغراء أمر.

وقوله تعالى: {عَلَى تِجَارَةٍ} هي التجارة بين أهل الإيمان، وحضرة الله تعالى، كما قال تعالى: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[3]

1. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة.
2. الصف: 10 - 13.
3. التوبة: 111.

دل عليه {تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ} والتجارة عبارة عن معاوضة الشيء بالشيء، وكما أن التجارة تنجي التاجر من محنة الفقر، ورحمة الصبر على ما هو من لوازمه، فكذلك هذه التجارة، وهي التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، كما قيل في تعريف الإيمان، فلهذا قال بلفظ التجارة، وكما أن التجارة في الربح والخسران، فكذلك في هذا، فإن من آمن وعمل صالحاً فله الأجر، والربح الوافر، واليسار المبين، ومن أعرض عن العمل الصالح، فله التحسر، والخسران المبين.

وقوله تعالى: {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ} يعني الذي أمرتم به؛ من الإيمان بالله تعالى، والجهاد في سبيله، خير لكم من أن تتبعوا أهواءكم، {إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} أي إن كنتم تنتفعون بما عملتم، فهو خير لكم.(*)

فأمام المؤمن الذي يرتكب الخطيئة أو الذنب فرصة سانحة للتطهر من عواقبهما، وذلك بالتوبة والاستغفار وعمل الصالحات، فينبغي التدبر بذلك جيداً، للوصول إلى شاطئ الأمان من تداعيات الذنوب والخطايا، وتلك دون ريب أسمى المنى، ومن خير الهدي الذي جاء به نبينا المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* التفسير الكبير، 29/ 274 - 275.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

المؤمن يحبه ولا يرغب بنفسه عن نفسه

عن أَنَسٍ، رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النبي، صلى الله عليه وسلم، عن السَّاعَةِ، فقال: (مَتَى السَّاعَةُ؟ قال: وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لها؟ قال: لا شَيْءَ، إلا أَنِّي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ، صلى الله عليه وسلم، فقال: أنت مع من أَحْبَبْتَ، قال أَنَسٌ: فما فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النبي، صلى الله عليه وسلم: أنت مع من أَحْبَبْتَ، قال أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النبي، صلى الله عليه وسلم، وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لم أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ)[1]

الناس في ذكرياتهم ومناسباتهم السعيدة، يعبرون عن سرورهم وغبطتهم بأساليب شتى، وفي ذكرى ميلاد الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، يحسن التعبير عن حبنا له، وهو حب يخرج عن دائرة العشق المجرد، إلى فلك الود والاتباع، والحديث الذي بين أيدينا يؤكد على أثر مهم من آثار حبه، صلى الله عليه وسلم، حيث إن الذي يحبه يحشر معه يوم القيامة، وأي إنجاز يفوق الحصول على درجة مرافقة النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم الدين، مصداقاً لقوله تعالى: {يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ* إِلا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ* وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ* وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ}[2]

فالرجل الذي لم يعد للآخرة مزيد عمل، سوى حبه لله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، فاز بمرافقة النبي، عليه الصلاة والسلام، وعبر الصحابي أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن عميق الغبطة لذلك، بقوله: (فما فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النبي، صلى الله عليه وسلم: أنت مع من أَحْبَبْتَ).

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي، رضي الله عنه.

2. الشعراء: 88 – 91.

كيف يتحقق حب الرسول، صلى الله عليه وسلم:

الحب موطنه القلوب، والجوارح تعبر عن وجوده ومستواه بطرق شتى، فالمحب يفدي محبوبه، ويعمل على كسب وده ورضاه، لذلك كان من براهين زعم حب الله، اتباع الرسول، صلى الله عليه وسلم، فيما جاء به عن ربه، فقال جل شأنه:{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[1]

من هنا؛ فإن السلوك يُصَدِّق زعم الحب أو يُكَذِّبه، فالذي يحرص على التأسي بالرسول، صلى الله عليه وسلم، يؤكد على عمق حبه، بخلاف الغافل عن ذلك، أو المتجاهل لذلك، فإن سلوكه يكذب زعم حبه، كيف لا؟ والله تعالى في أكثر من آية قرآنية أكد على لزوم طاعة الرسول، صلى الله عليه وسلم، فقال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}[2]، وقال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ}[3]

فلا تتفق المحبة مع المعصية، إذ إن المحب يبذل الجهود المضنية من أجل نيل مرضاة محبوبه، ويتجنب مسببات غضبه وسخطه.

حتى إن محب الرسول، صلى الله عليه وسلم، يذهب في مدى حبه إلى منحى أبعد وأعمق، فلا يقبل لنفسه الراحة والدعة، في مواقف، والرسول، صلى الله عليه وسلم، واجه في مثلها المشقة، وتحمل الصعب، وعن هذا المنحى يقول رب العزة: {مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ

1. آل عمران: 31.
2. محمد: 33.
3. التغابن:12.

مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [1]

وورد في التفسير أن في هذه الآية عتاباً لمن تخلف عن غزوة تبوك من أهل يثرب، ومن جاورها من قبائل العرب، ومعنى {وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ}؛ أي لا يمتنعون من اقتحام المشقات التي تحملها صلى الله عليه وسلم، وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ} تعليل لما يجب من ترك التخلف، ومعنى{ظَمَأٌ}: أي عطش. و{وَلاَ نَصَبٌ}: أي تعب، و{وَلاَ مَخْمَصَةٌ}: أي جوع، و{وَلاَ يَطَؤُونَ}: أي بأرجلهم أو بدوابهم، و{وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً}: عموم في كل ما يصيب الكفار.[2]

تقديم حب الرسول، صلى الله عليه وسلم، على أي حب آخر:

ما دام تحقق حب الرسول، صلى الله عليه وسلم، يكون بطاعته، فإن هذا الحب يجب أن يتصدر أشكال الحب الأخرى، فلا يصح أن يتقدم عليه غيره، مصداقاً لما رواه أَنَس، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا يُؤْمِنُ أحدكم حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليه من وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) [3]

فلا يقبل إيمان كامل ممن لا يقدم حب الرسول، صلى الله عليه وسلم، على حب الآباء والأبناء والناس أجمعين، أي إن النساء والأخلاء وغيرهم، لا ينبغي أن يتقدم حبهم على حب الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي أقسم في رواية صحيحة أخرى على رفض غير ذلك من صور تفوق الحب، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بيده لا يُؤْمِنُ أحدكم حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليه من وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ)[4]

وفي صحيح مسلم، عنون لباب من أبوابه بـ: وُجُوبِ مَحَبَّةِ رسول اللهِ، صلى الله عليه

1. التوبة: 120.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 2 /87.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الإيمان.
4. التخريج نفسه.

وسلم، أَكْثَرَ من الأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْوَالِدِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَإِطْلَاقِ عَدَمِ الْإِيمَانِ على من لم يُحِبُّهُ هذه المحبة.

والقرآن الكريم أكد بصورة جازمة لا تقبل التأويل، على رفض تفوق أي نوع من أنواع الحب على حب الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، والجهاد في سبيله، فقال تعالى:{قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [1]

ومن الآثار العملية لهذه المعادلة الربانية، إقدام المؤمن بلا أي تردد على تنفيذ أمر الله والعمل بسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، حتى لو تعارض ذلك مع هوى للنفس مخالف، أو مصلحة للخلق أو مزاج، فحب الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، مقدم على أي حب. يقول العيني: وهذه المحبة ليست باعتقاد تعظيم، بل ميل قلب، ولكن الناس يتفاوتون في ذلك، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...}[2]

ولا شك أن حظ الصحابة، رضي الله عنهم، من هذا المعنى أتم؛ لأن المحبة ثمرة المعرفة، وهم بقدره ومنزلته أعلم.[3]

حب يتقدم حتى عن حب النفس:

ما دام المراد بالحب هنا ليس مجرد الهوى والعشق، بل الطاعة والانقياد التي تتبع ذلك، فمن الطبيعي أن لا يقبل تقديم هوى النفس وحبها على حب الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، فعن أبي عَقِيلٍ، زُهْرَةُ بن مَعْبَدٍ، أَنَّهُ سمع جَدَّهُ عَبْدَ اللهِ بن هِشَامٍ، رضي الله عنه، قال:

1. التوبة: 24.
2. المائدة: 54.
3. عمدة القاري: 1/ 144.

(كنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، فقال له عُمَرُ: يا رَسُولَ اللهِ؛ لَأَنْتَ أَحَبُّ إليّ من كل شَيْءٍ، إلا من نَفْسِي، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: لا وَالَّذِي نَفْسِي بيده، حتى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ من نَفْسِكَ، فقال له عُمَرُ: فإنه الآنَ، والله لأَنْتَ أَحَبُّ إليّ من نَفْسِي، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: الآنَ يا عُمَرُ)(*)

فعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، علم فالتزم، حيث عبر في البداية عن تفوق حب الرسول، صلى الله عليه وسلم، على أي حب آخر سوى على حب نفسه، فلما رفض قبول هذا الموقف منه، أخر حب نفسه، وقدم عليه حب الرسول، صلى الله عليه وسلم، وحينها فقط قال له المحبوب، صلى الله عليه وسلم: (الآنَ يا عُمَرُ).

حبب الله إلينا دينه القويم، وصراطه المستقيم، ونبيه الكريم محمداً، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي، صلى الله عليه وسلم.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

ألف بين قلوب المؤمنين بأمر الله وإرادته

عن أبي مَسْعُودٍ، رضي الله عنه، قال: (كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلاةِ، وَيَقُولُ: اسْتَوُوا، ولا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الأَحْلامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، قال أبو مَسْعُودٍ: فَأَنْتُم الْيَوْمَ أَشَدُّ اخْتِلافًا)[1]

بذل الرسول، صلى الله عليه وسلم، الجهود تلو الجهود لتأليف قلوب المؤمنين، ومن ذلك حرصه المتكرر يومياً على تنبيههم إلى أهمية تآلف قلوبهم، وضرورة ابتعادهم عما يفرقها، ففي الحديث أعلاه، ذكر لتحذير المصلين عند اصطفافهم للصلاة من الاختلاف المفضي إلى اختلاف القلوب، التي هي مصدر الصلاح أو الفساد، مصداقاً لما جاء في الحديث الصحيح: (...ألا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وَهِيَ الْقَلْبُ)[2]

فالحديث ينهى عن اختلاف الأَبْدَانِ في الاصطفاف للصلاة؛ لأن ذلك سيؤدي إلى اختلاف أهواء القلوب وَإِرَادتهَا، وفيه أَنَّ الْقَلْبَ تَابِعٌ لِلأَعْضَاءِ، فإذا اخْتَلَفَتِ اخْتَلَفَ، وإذا اخْتَلَفَ فَسَدَ، فَفَسَدَتِ الأَعْضَاءُ؛ لأَنَّهُ رَئِيسُهَا. [3]

والناظر في حال المسلمين اليوم يجد أنهم في أمس الحاجة إلى التآلف والتحابب، ليكونوا يداً واحدة على من عاداهم، بدلاً من الانقسام شيعاً وأحزاباً وقبائلَ ودويلات، يسودهم الخصام بدل الوئام، والتشاحن، بل إن بعضهم يقتل بعضاً، على خلاف ما أوصاهم به الرسول، صلى الله عليه وسلم، حيث حذرهم من الاقتتال، فعن جَرِيرٍ، رضي الله عنه، أَنَّ

1. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها....
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه.
3. تحفة الأحوذي: 2/ 17.

النبي، صلى الله عليه وسلم، قال له في حَجَّةِ الْوَدَاعِ: (اسْتَنْصِتِ الناس، فقال: لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ)[1]

كما حذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الدور القذر الذي يمارسه الشيطان في الإفساد بين المؤمنين، وتفريق شملهم، فعن جَابِرٍ، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إِنَّ الشَّيْطَانَ قد أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ في جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ في التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ) [2]

ويقوم بدور الشيطان هذا كثير من شياطين الإنس في هذه الأيام، ممن يحرصون أشد الحرص على ضعف المسلمين وزعزعة استقرارهم، ومن أنجع وسائلهم لتحقيق هذه المآرب الحقيرة، إيقاع الخلاف بين المسلمين، أو توسيع رقعته، في ظل غفلة قلوبهم من وعي التوجيهات الربانية، التي أوحى بها إليهم في قرآنه الكريم، الذي لا يأتيه الباطل، من مثل قوله عز وجل: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[3]، فلو اعتصم المسلمون بدين الله، ولم يتفرقوا، لما استشرى الهوان عليهم، ولما كان منهم ما يشاهد من الفشل الذريع، والضعف المبكي، حيث تكالبت عليهم الأمم، وصاروا نهباً للطامعين ومرتعاً للغاصبين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تأليف القلوب يتم بأمر الله وإرادته:

مهما حرص البشر على تحقيق بعض الأمور، فإنهم لن يفلحوا في ذلك إلا إذا أرادها الله جل في علاه، فالهداية إلى الإيمان والصلاح من تلك الأمور، التي قال فيها سبحانه: {إِنَّكَ

1. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء.
2. صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً.
3. آل عمران: 103.

لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[1]، ويقول تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}[2]

وكذلك التأليف بين القلوب لا يتحقق إلا بإرادة الله، وهو القائل جل شأنه: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[3]

وفي التفسير الكبير، يذكر الرازي مسائل تتعلق بهذا المقطع من الآية الكريمة، منها أن النبي، صلى الله عليه وسلم، بُعث إلى قوم أَنفتهم شديدة، وحميتهم عظيمة، حتى لو لطم رجل من قبيلة لطمة قاتل عنه أبناء قبيلته، حتى يدركوا ثأره، ثم إنهم انقلبوا عن تلك الحالة، حتى قاتل الرجل أخاه وأباه وابنه، واتفقوا على الطاعة، وصاروا أنصاراً، وعادوا أعواناً، وقيل: هم الأوس والخزرج.

فالخصومة كانت بينهم شديدة، والمحاربة دائمة، ثم زالت الضغائن، وحصلت الألفة والمحبة، فإزالة تلك العداوة الشديدة وتبديلها بالمحبة القوية والمخالصة التامة، مما لا يقدر عليها إلا الله تعالى، وصارت تلك معجزة ظاهرة على صدق نبوة محمد، صلى الله عليه وسلم. ومن تلك المسائل أن هذه الآية دلت على أن القوم كانوا قبل شروعهم في الإسلام، ومتابعة الرسول في الخصومة الدائمة، والمحاربة الشديدة، يقتل بعضهم بعضاً، ويغير بعضهم على بعض، فلما آمنوا بالله ورسوله، واليوم الآخر، زالت الخصومات، وارتفعت الخشونات، وحصلت المودة التامة، والمحبة الشديدة.

ويذكر الرازي بأن التحقيق في هذا الباب أن المحبة لا تحصل إلا عند تصور حصول خير وكمال، فالمحبة حالة معللة بهذا التصور المخصوص، فمتى كان هذا التصور حاصلاً،

1. القصص: 56.
2. يوسف: 103.
3. الأنفال: 63.

كانت المحبة حاصلة، ومتى حصل تصوير الشر والبغضاء، كانت النفرة حاصلة، ثم إن الخيرات والكمالات على قسمين، أحدهما، الخيرات والكمالات الباقية الدائمة، المبرأة عن جهات التغيير والتبديل، وتلك هي الكمالات الروحانية، والسعادات الإلهية، والثاني، وهو الكمالات المتبدلة المتغيرة، وهي الكمالات الجسمانية، والسعادات البدنية، فإنها سريعة التغيير والتبدل، كالزئبق ينتقل من حال إلى حال، فالإنسان يتصور أن له في صحبة زيد مالاً عظيماً، فيحبه، ثم يخطر بباله أن ذلك المال لا يحصل، فيبغضه، ولذلك قيل: إن العاشق والمعشوق ربما حصلت الرغبة والنفرة بينهما في اليوم الواحد مراراً؛ لأن المعشوق إنما يريد العاشق لماله، والعاشق إنما يريد المعشوق لأجل اللذة الجسمانية، وهذان الأمران مستعدان للتغير، والانتقال، فلا جرم كانت المحبة الحاصلة بينهما، والعداوة الحاصلة بينهما غير باقيتين، بل كانتا سريعتي الزوال والانتقال.

ويختم الرازي ما خلص إليه في هذه المسألة إلى القول بأن الموجب للمحبة والمودة إن كان طلب الخيرات الدنيوية والسعادات الجسمانية، كانت تلك المحبة سريعة الزوال والانتقال؛ لأجل أن المحبة تابعة لتصور الكمال، وتصور الكمال تابع لحصول ذلك الكمال، فإذا كان ذلك الكمال سريع الزوال والانتقال، كانت معلولاته سريعة التبدل والزوال، وأما إن كان الموجب للمحبة تصور الكمالات الباقية المقدسة عن التغير والزوال، كانت تلك المحبة أيضاً باقية آمنة من التغير؛ لأن حال المعلول في البقاء والتبدل تبع لحالة العلة، وهذا هو المراد من قوله تعالى: {الأَخِلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ}(*)

ويضيف الرازي، بأن العرب كانوا قبل مقدم الرسول طالبين للمال والجاه والمفاخرة، وكانت محبتهم معللة بهذه العلة، فلا جرم كانت تلك المحبة سريعة الزوال، وكانوا بأدنى سبب يقعون في الحروب والفتن، فلما جاء الرسول، صلى الله عليه وسلم، ودعاهم إلى عبادة

* الزخرف: 67

الله تعالى، والإعراض عن الدنيا، والإقبال على الآخرة، زالت الخصومة والخشونة عنهم، وعادوا إخواناً متوافقين، ثم بعد وفاته عليه السلام، لما انفتحت عليهم أبواب الدنيا، وتوجهوا إلى طلبها، عادوا إلى محاربة بعضهم بعضاً، ومقاتلة بعضهم مع بعض، فهذا هو السبب الحقيقي في هذا الباب.

ثم إنه تعالى ختم هذه الآية بقوله: {إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}؛ أي قادر قاهر، يمكنه التصرف في القلوب، ويقلبها من العداوة إلى الصداقة، ومن النفرة إلى الرغبة، حكيم بفعل ما يفعله على وجه الإحكام والإتقان، أو مطابقاً للمصلحة والصواب على اختلاف القولين في الجبر والقدر.(*)

خاتمة:

ما نقل عن الرازي في التفسير الكبير حول بعض الأبعاد المتعلقة بمسألة تآلف القلوب، يستحق القراءة المتمعنة، والتدبر، بخاصة أن المسألة تمس جانباً مهماً من صميم مشكلات المسلمين اليوم، والتي تؤثر في مصالحهم ومصالح دينهم، حيث يصلي كثير منهم ويصومون ويحجون، لكن الكراهية بينهم تتنامى، وعصبية الجاهلية الأولى تتفاقم، سائلين الله العلي القدير العفو والعافية، وأن يهدينا والمسلمين إلى العمل الذي يرضيه سبحانه، ويرضي رسوله الكريم، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين

*التفسير الكبير: 15/ 151 - 152.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يبين فضل المتحابين بجلال الله

الحلقة الأولى

عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم:(إِنَّ اللهَ يقول يوم الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي، يوم لا ظِلَّ إلا ظِلِّي)[1]

الحب كلمة من حرفين عدا أل التعريف، لكنها مليئة بالمعاني والمشاعر، التي تتدفق من قلوب الخلق، ويشير الرسول، صلى الله عليه وسلم، في الحديث أعلاه الذي يرويه عن رب العزة إلى فضل المتحابين في الله، ويبرز بعض جزائهم عند ربهم، ومعنى قوله: (أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلالِي؟) أي: أين المتحابون إجلالاً لي، ومحبة فيّ، فمن إجلال الله عز وجل إجلال أوليائه، ومحبتهم، وإذا كان ذكرهم وذكر فضائلهم براً، فما ظنك بحبهم، وإخلاص الود لهم؟! وعن مسلم بن يسار، قال: مرضت مرضة، فلم يكن في عملي شيء أوثق في نفسي من قوم كنت أحبهم في الله، وعن عبد الله، في قوله: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[2]، قال: نزلت في المتحابين في الله، قال أبو عمر: فمن الحب في الله حب أولياء الله، وهم الأنقياء العلماء الفضلاء، ومن البغض في الله بغض من حاد الله، وجاهر بمعاصيه، أو ألحد في صفاته، وكفر به، وكذب رسله، أو نحو هذا كله.[3]

وعن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا له فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى،

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله.
2. الأنفال:63.
3. التمهيد لابن عبد البر: 17/ 429 - 432.

فَأَرْصَدَ الله له على مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فلما أتى عليه، قال: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قال: أُرِيدُ أَخًا لي في هذه الْقَرْيَةِ، قال: هل لك عليه من نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قال: لا، غير أَنِّي أَحْبَبْتُهُ في اللهِ عز وجل، قال: فَإِنِّي رسول اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قد أَحَبَّكَ كما أَحْبَبْتَهُ فيه)[1]

ومعنى (أرصد) في قوله: (فَأَرْصَدَ الله له على مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا) أي أقعده يرقبه، و(المَدرَجة) بفتح الميم والراء، هي الطريق، سميت بذلك؛ لأن الناس يدرجون عليها؛ أي يمضون ويمشون، وقوله: (هل لك عليه من نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟) أي تقوم بإصلاحها، وتنهض إليه بسبب ذلك، وقوله: (بِأَنَّ اللهَ قد أَحَبَّكَ كما أَحْبَبْتَهُ فيه) قال العلماء: محبة الله عبده هي رحمته له، ورضاه عنه، وإرادته له الخير، وأن يفعل به فعل المحب من الخير، وأصل المحبة في حق العباد ميل القلب، والله تعالى منزه عن ذلك. [2]

المتحابون في الله مع السبعة الذين يظلهم الله بظله:

جاء في الحديث القدسي المذكور أعلاه، أن الله جل في علاه، يجازي المتحابين في جلاله، بأن يظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومعنى قوله: (في ظل الله) أي في ظل عرشه، وقد يكون الظل كناية عن الرحمة، كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ}[3]، يعني بذلك ما هم فيه من الرحمة والنعيم، وقال تعالى: {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ}[4]

وقد يكون كناية عن العذاب، كما قال عز وجل: {وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ* لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ}.[5]

---

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 16 /124.
3. المرسلات:41.
4. الرعد: 35.
5. الواقعة: 43 – 44.

ومن كان في ظل الله يوم الحساب، وقيَ شر ذلك اليوم، جعلنا الله برحمته من المتحابين فيه، ولوجهه، المستقرين تحت ظله، يوم لا ظل إلا ظله، فإن ذلك من أفضل الأعمال، وأكرم الخلال. [1]

وجاء في غير مسلم: (ظل عرشي) قال القاضي: ظاهره أنه في ظله من الحر والشمس ووهج الموقف، وأنفاس الخلق، قال: وهذا قول الأكثرين، وقيل: معناه كفه من المكاره، وإكرامه، وجعله في كنفه وستره، وقيل: يحتمل أن الظل هنا عبارة عن الراحة والنعيم، يقال: هو في عيش ظليل؛ أي طيب.[2]

فالله جل في علاه يعد المُتَحَابّينَ بِجَلالِه بأن يظِلهُمْ في ظِلِّه، يوم لا ظِلَّ إلا ظِله، وهذا الوعد أكده النبي، صلى الله عليه وسلم، لما أخبر عن الأصناف السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله في ظِلِّهِ يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ، الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في اللهِ اجْتَمَعَا عليه وَتَفَرَّقَا عليه، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فقال: إني أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى؛ حتى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ، ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ). [3]

جاء في عمدة القاري، أن لفظ تَحَابَّا في قوله: (وَرَجُلانِ تَحَابَّا) بتشديد الباء، وأصله تحاببا، فلما اجتمع الحرفان المتماثلان أسكن الأول منهما، وأدرج في الثاني، وهو حد الإدغام، وهو من باب التفاعل، فقوله (تحابا) عبارة عن معنى حصل عن تعلق حابب، والمحبة أمر نسبي، فلا

---

1. التمهيد لابن عبد البر: 17 /429 - 432.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 16 /123.
3. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد.

بدَّ لها من المنتسبين، فلذلك قال: (رجلان) وقوله: (فِي اللهِ) أي لأجل الله، لا لغرض دنيوي، وكلمة (في) قد تجيء للسببية، وقوله: (اجْتَمَعَا عليه)؛ أي على الحب في الله، والضمير في (عليه) يعني كان سبب اجتماعهما حب الله، والاستمرار عليه، حتى تفرقا من مجلسهما، ولا يحتاج إلى قوله: (حتى تفرقا من مجلسهما) بل المعنى أنهما داما على المحبة الدينية، ولم يقطعاها بعارض دنيوي، سواء اجتمعا حقيقة، أم لا، حتى فرق بينهما الموت. [1]

التحاب في الله شرط للإيمان ودخول الجنة:

التحاب في الله ذو صلة بالإيمان وتداعياته وثماره، فلا يكتمل إيمان دون تحاب في الله، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (لا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُمْ على شَيْءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ)[2]

فدخول الجنة يثمره الإيمان، والذي بدوره يعززه التحاب، ومعنى قوله: (ولا تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا) أي لا يكمل إيمانكم، ولا يصلح حالكم في الإيمان إلا بالتحاب، ولا يدخل الجنة، إلا من مات مؤمناً، وإن لم يكن كامل الإيمان، فهذا هو الظاهر من الحديث، وأرشد عليه الصلاة والسلام إلى إتيان ما يصلح حال التحاب بين المؤمنين، وذلك من خلال إفشاء السلام بينهم، فقال عليه الصلاة والسلام: (أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ)، وفي هذا حث عظيم على بذل السلام للمسلمين كلهم، من عرفت، ومن لم تعرف، والسلام أول أسباب التآلف، ومفتاح استجلاب المودة، وفي إفشائه ونشره تكمن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس، ولزوم التواضع، وإعظام حرمات المسلمين، وقد ذكر البخاري، رحمه الله، في صحيحه عن عمار بن ياسر، رضي الله

1. عمدة القاري، 5/ 178 - 179.

2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون...

عنه، أنه قال: (ثَلَاثٌ من جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ؛ الْإِنْصَافُ من نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ من الْإِقْتَارِ)[1]، وبذل السلام للعالم، والسلام على من عرفت ومن لم تعرف، وإفشاء السلام، كلها بمعنى واحد، وفيها لطيفة أخرى، وهي أنها تتضمن رفع التقاطع، والتهاجر، والشحناء، وفساد ذات البين، التي هي الحالقة، وأن سلامه لله لا يتبع فيه هواه، ولا يخص أصحابه وأحبابه به، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.[2]

مما سبق يتضح أن المتحابين في جلال الله، يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، سائلين الله العلي القدير أن يؤلف بين قلوب المؤمنين، وأن يهدي قلوبهم إلى التحاب في جلاله الكريم، وإلى لقاء قادم بإذن الله تعالى مع متابعة قراءة النصوص الشرعية، والمواقف السليمة عن الحب في الله، وصلى الله على رسولنا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام.
2. صحيح مسلم بشرح النووي، 2 / 36.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يبين فضل المتحابين بجلال الله

الحلقة الثانية

عن أنس، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ)[1]

تبعاً لما تناولته الحلقة السابقة من عرض لمقام المتحابين بجلال الله تعالى ووصفه، إذ وعدهم سبحانه بأن يظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وأن الذي يحب شخصاً في الله، فإن الله يجازيه بأن يحبه، مع بيان أن التحاب في الله شرط للإيمان ودخول الجنة، وهذه الحقائق الإيمانية، ورد الوعد بها في الأحاديث النبوية الصحيحة، وحديث أنس أعلاه، يأتي في هذا السياق، من حيث بيان فضل حب الأنصار، فحبهم من الإيمان، وبغضهم من النفاق، وجاء في عمدة القاري، أن قوله: (آيَةُ الْإِيمَانِ) أي علامة الإيمان، وقوله: (الْأَنْصَارِ) جمع ناصر، كالأصحاب جمع صاحب، والأنصار سموا به لنصرتهم النبي، صلى الله عليه وسلم، وهم ولد الأوس والخزرج، وكانوا يعرفون قبل ذلك بابنيْ قَيْلة، بفتح القاف وسكون الياء، وهي الأم التي تجمع القبيلتين، فسماهم النبي، صلى الله عليه وسلم، الأنصار، فصار ذلك علماً عليهم، وأطلق أيضاً على أولادهم وحلفائهم ومواليهم، ويقال سماهم الله تعالى بذلك، فقال: {...وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً...}[2]، وقوله: (النفاق) هو إظهار الإيمان، وإبطان الكفر، والنِفاق هو بكسر النون، وأما النَفاق بالفتح، فهو من نفق البيع، نفاقاً، أي راج، ونفقت الدابة نفوقاً أي ماتت، والنِفاق بالكسر أيضاً جمع النفقة من الدراهم وغيرها، مثل ثمرة وثمار، وقال تعالى: {قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً}[3]؛ فبنو آدم لو كانوا يملكون خزائن الأرزاق والخيرات،

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار.
2. الأنفال:74.
3. الإسراء:100.

لبخلوا بالإنعام على غيرهم منه، وقال قتادة: أي خشية إنفاقه، والتركيب يدل على انقطاع الشيء وذهابه، وعلى إخفاء شيء وإغماضه. [1]

بغض الأنصار علامة للنفاق

إذا كان حب الأنصار آية من آيات الإيمان، فبغضهم آية عدمه؛ لأن حكم نقيض الشيء نقيض حكم الشيء، والفائدة في ذكر آية النفاق المتمثلة ببغض الأنصار، التصريح به، والتأكيد عليه، والمقام يقتضي ذلك؛ لأن المقصود من الحديث الحث على حب الأنصار، وبيان فضلهم؛ لما كان منهم من إعزاز الدين، وبذل الأموال والأنفس والإيثار على أنفسهم، والإيواء والنصر، وغير ذلك، وقيل: هذا جار في أعيان الصحابة؛ كالخلفاء، وبقية العشرة، والمهاجرين، بل في كل الصحابة؛ إذ كل واحد منهم له سابقة وسالفة، وغناء في الدين، وأثر حسن فيه، فحبهم لذلك المعنى محض الإيمان، وبغضهم محض النفاق، وفي عمدة القاري نقل لقول القرطبي وأما من أبغض، والعياذ بالله، أحداً منهم من غير تلك الجهة لأمر طارئ من حدث وقع لمخالفة غرض، أو لضرر ونحوه، لم يصر بذلك منافقاً ولا كافراً، فقد وقعت بينهم حروب ومخالفات، ومع ذلك لم يحكم بعضهم على بعض بالنفاق، وإنما كان حالهم في ذلك حال المجتهدين في الأحكام، فإما أن يقال كلهم مصيب، أو المصيب واحد، والمخطىء معذور، مع أنه مخاطب بما يراه ويظنه، فمن وقع له بغض في أحدٍ منهم، والعياذ بالله، لشيء من ذلك، فهو عاصٍ تجب عليه التوبة، ومجاهدة نفسه بذكر سوابقهم، وفضائلهم، وما لهم على كل من بعدهم من الحقوق؛ إذ لم يصل أحد من بعدهم لشيء من الدين والدنيا إلاَّ بهم وبسببهم، قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}[2].[3]

وبالنسبة إلى ما قيل بأن المطابقة تقتضي أن يقابل الإيمان بالكفر، بأن يقال آية الكفر كذا، وقد عدل عنه بسبب أن البحث في الذين ظاهرهم الإيمان، وهذا البيان ما يتميز به المؤمن

1. عمدة القاري: 1 /151، بتصرف.
2. الحشر: 10.
3. عمدة القاري: 1/ 152.

الظاهري عن المؤمن الحقيقي، فلو قيل آية الكفر بغضهم لا يصح؛ إذ هو ليس بكافر ظاهراً، ولا يقتضي ظاهر الحديث أن من لم يحبهم لا يكون مؤمناً، إذ لا يلزم من عدم العلامة عدم ما له العلامة، أو المراد كمال الإيمان، ولا يجتمع بغضهم من جهة أنهم أنصار لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، مع التصديق لرسول الله، صلى الله عليه وسلم.[1]

المحب في الله يجد حلاوة الإيمان:

من ثمرات الحب في الله، أن صاحبه يتذوق حلاوة الإيمان، مصداقاً لما رواه أَنَس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ثَلاثٌ من كُنَّ فيه، وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ؛ أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)[2]

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (حَلاوَةَ الإِيمَانِ) الحلاوة مصدر حلا الشيء يحلو، وهو نقيض المر، وأحليت الشيء جعلته حلواً، وقال النووي: معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات، وتحمل المشاق في الدين، وإيثار ذلك على أعراض الدنيا، ومحبة العبد لله تعالى بفعل طاعته، وترك مخالفته، وكذلك محبة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقوله: (يَكْرَهَ) من كرهت الشيء، أكرهه كراهة وكراهية، فهو شيء كريه ومكروه، ومعناه عدم الرضا، وقوله: (أَنْ يُقْذَفَ) من القذف، بمعنى الرمي، وقيل التركيب يدل على الرمي والطرح، والقذف بالحجارة، الرمي بها، وقذف المحصنة قذفاً، أي رماها، ويقال: هم بين خاذف وقاذف، فالخاذف بالحصى، والقاذف بالحجارة.

وقوله: (وأن يكره... إلى آخره) معناه أن هذه الكراهة إنما توجد عند وجود سببها، وهو ما دخل قلبه، من نور الإيمان، ومن كشف له عن محاسن الإسلام، وقبح الجهالات والكفران، وقيل المعنى: إن من وجد حلاوة الإيمان، وعلم أن الكافر في النار، يكره الكفر لكراهته لدخول النار، وقائل هذا المعنى حافظ على بقاء لفظ العود على معناه الحقيقي، ومعناه هنا معنى الصيرورة.

1. عمدة القاري: 1/ 151 - 152.
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان.

ومن البيان في هذا الحديث الشريف أن قوله: (حلاوة الإيمان) فيه استعارة بالكناية؛ وذلك لأن الحلاوة إنما تكون في المطعومات، والإيمان ليس مطعوماً، فظهر أن هذا مجاز؛ لأنه شبّه الإيمان بنحو العسل، ثم طوى ذكر المشبه به؛ لأن الاستعارة هي أن يذكر أحد طرفي التشبيه، مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، فالمشبه إيمان، والمشبه به عسل ونحوه، ووجه الشبه الذي بينهما هو الالتذاذ، وميل القلب إليه، فهذه هي الاستعارة بالكناية، ثم لما ذكر المشبه أضاف إليه ما هو من خواص المشبه به ولوازمه، وهو الحلاوة، على سبيل التخيل، وهي استعارة تخييلية، وقوله: (كما يكره أن يقذف في النار) تشبيه، وليس باستعارة؛ لأن الطرفين مذكوران، فالمشبه هو العَوْد في الكفر، والمشبه به وهو القذف في النار، ووجه الشبه هو وجدان الألم، وكراهة القلب إياه.

وبالنسبة إلى الحكمة في كون حلاوة الإيمان في هذه الأشياء الثلاثة، فهي عنوان كمال الإيمان المحصل لتلك اللذة؛ لأنه لا يتم إيمان أحد حتى يتمكن في نفسه أن المنعم بالذات هو الله سبحانه وتعالى، ولا مانح ولا مانع سواه، وما عداه تعالى وسائط ليس لها في ذاتها إضرار ولا إنفاع، وأن الرسول، صلى الله عليه وسلم، هو العطوف الساعي في صلاح شأنه، وذلك يقتضي أن يتوجه بكليته نحوه، ولا يحب ما يحبه إلاَّ لكونه وسطاً بينه وبينه، وأن يتيقن أن جملة ما أوعد ووعد حق، تيقناً يخيل إليه الموعود، كالواقع، والاشتغال، فيحسب مجالس الذكر رياض الجنة، وأكل مال اليتيم أكل النار، والعود إلى الكفر إلقاء في النار.(*)

سائلين الله العلي القدير أن يؤلف بين قلوب المؤمنين، وأن يهدي قلوبهم إلى التحاب في جلاله الكريم، وإلى لقاء قادم بإذن الله تعالى مع متابعة قراءة النصوص الشرعية والمواقف السليمة عن الحب في الله، وصلى الله على رسولنا محمد، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* عمدة القاري: 1/ 147 - 149.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يبين فضل المتحابين بجلال الله

الحلقة الثالثة

عن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا يَجِدُ أَحَدٌ حَلاوَةَ الإِيمَانِ حتى يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لِلهِ، وَحَتَّى أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ أَحَبُّ إليه من أَنْ يَرْجِعَ إلى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ الله، وَحَتَّى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا).(*)

تعرضت الحلقتان السابقتان لمسائل وموضوعات تتعلق بفضل المتحابين بجلال الله تعالى، وتتناول هذه الحلقة قضايا ذات صلة، ومنها تتمة الوقوف عند بعض معاني الحديث النبوي أعلاه، والذي يربط الحب بالله ببعض خواص الإيمان، فحلاوته لا يتذوقها شخص حتى يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لِلهِ، ومما جاء في عمدة القاري بلغني قول النووي: هذا حديث عظيم، أصل من أصول الإسلام، وقال العيني: كيف لا؟! وفيه محبة الله ورسوله، التي هي أصل الإيمان، بل عينه، ولا تصح محبة الله ورسوله حقيقة، ولا حب لغير الله، ولا كراهة الرجوع في الكفر إلاَّ لمن قوي الإيمان في نفسه، وانشرح له صدره، وخالطه دمه ولحمه، وهذا هو الذي وجد حلاوته، والحب في الله من ثمرات الحب لله، وقال ابن بطال: محبة العبد لخالقه التزام طاعته، والانتهاء عما نهى عنه، ومحبة الرسول كذلك، وهي التزام شريعته.

وقال بعضهم المحبة: مواطأة القلب على ما يرضي الرب سبحانه، فيحب ما أحبَّ، ويكره ما يكره، قال القاضي عياض: ومعنى حب الله الاستقامة في طاعته، والتزام أوامره ونواهيه في كل شيء، والمراد ثمرات المحبة، فإن أصل المحبة الميل لما يوافق المحبوب، والله سبحانه منزه أن يميل أو يمال إليه، وأما محبة الرسول، فيصح فيها الميل، إذ يميل الإنسان لما يوافقه، إما

* صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحب في الله.

للاستحسان، كالصورة الجميلة، والمطاعم الشهية، وشبههما، أو لما يستلذه بعقله من المعاني والأخلاق، كمحبة الصالحين والعلماء، وإن لم يكن في زمانهم، أو لمن يحسن إليه، ويدفع المضرة عنه، وهذه المعاني كلها موجودة في حق النبي، صلى الله عليه وسلم، من كمال الظاهر والباطن، وجمعه الفضائل، وإحسانه إلى المسلمين جميعهم، بهدايته إياهم، وإبعادهم عن الجحيم.

وقوله: (وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله) هذا حث على التحاب في الله؛ لأجل أن الله جعل المؤمنين إخوة، قال الله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً...}[1]، ومن محبته سبحانه ومحبة رسوله، صلى الله عليه وسلم، محبة أهل ملته، فلا تحصل حلاوة الإيمان إلاَّ أن تكون خالصة لله تعالى، غير مشوبة بالأغراض الدنيوية، ولا الحظوظ البشرية؛ فإن من أحب لذلك انقطعت تلك المحبة عند انقطاع سببها.[2]

الدعاء للأحبة بظهر الغيب:

علاقة الإنسان بمن يحب، لا تنحصر بحرارة اللقاء، وإنما تتعدى إلى حال الغيبة، فالمحب يذكر حبيبه المتواري عن عينيه، ويسعى لخيره، ومن ذلك دعاؤه له، فعن صَفْوَانَ، وهو ابن عبد اللهِ بن صَفْوَانَ، وَكَانَتْ تَحْتَهُ الدَّرْدَاءُ، قال: (قَدِمْتُ الشَّامَ، فَأَتَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فِي مَنْزِلِهِ، فلم أَجِدْهُ، وَوَجَدْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ، فقالت: أَتُرِيدُ الْحَجَّ الْعَامَ؟ فقلت: نعم، قالت: فَادْعُ اللهَ لنا بِخَيْرٍ، فإن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يقول دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قال الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ، قال: فَخَرَجْتُ إلى السُّوقِ، فَلَقِيتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فقال لي: مِثْلَ ذلك، يَرْوِيهِ عن النبي، صلى الله عليه وسلم) [3]

1. آل عمران:103.
2. عمدة القاري: 1/ 147 - 149.
3. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب.

فهذا الحديث يعزز جانب الحب في الله، فمن يحب يبذل الجهود تلو الجهود لإنجاء محبه، والعمل على رفده بالمستطاع من البذل والسخاء والجهود، ومن ذلك الدعاء له بظهر الغيب، وهذا ما حرصت أم الدرداء عليه، عملاً بتوجيهات النبي، صلى الله عليه وسلم، وفي شرح النووي لهذا الحديث، أن قوله صلى الله عليه وسلم: (بظهر الغيب) أي في غيبة المدعو له، وفي سره؛ لأنه أبلغ في الإخلاص، وقوله: (بمثل): بكسر الميم، وإسكان الثاء، وروي بفتحها أيضاً، يقال: هو مثله، ومثيله بزيادة الياء، أي عديله سواء، ويقول النووي: وفي هذا فضل الدعاء لأخيه المسلم بظهر الغيب، ولو دعا لجماعة من المسلمين، حصلت هذه الفضيلة، ولو دعا لجملة المسلمين، فالظاهر حصولها أيضاً، وكان بعض السلف إذا أراد أن يدعو لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوة؛ لأنها تستجاب ويحصل له مثلها. [1]

من صفات المتحابين في الله:

من الصفات التي تميز المتحابين في الله، أنهم رحماء بينهم، مصداقاً لقوله تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}. [2]

فالمؤمنون المتحابون بجلال الله متراحمون فيما بينهم، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يؤكد هذا المعنى، فعن النُّعْمَانِ بن بَشِيرٍ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ، تَدَاعَى له سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) [3]

1. صحيح مسلم بشرح النووي، 17/ 49.
2. الفتح: 29.
3. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

وفي هذا تصريح في تعظيم حقوق المسلمين، بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم، والملاطفة، والتعاضد، في غير إثم ولا مكروه. [1]

والمحبة أليس من أركانها الملاطفة والمواددة والمعاضدة؟! بل هي هنا تتجاوز الحدود، لتصبح اندماجاً في المحبوب، مثل اندماج أعضاء الجسد الواحد، فتتداعى أركانه حين يشكو بعضه من ألم أو حمى.

حب الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم:

أسمى أنواع الحب، هو حب الله، ومن أفضل النعيم أن ينال المرء حب الله، ومن سحر الشعر، ذاك الذي نظمته الناسكة رابعة العدوية، رحمها الله تعالى في حب الله، إذ تقول:

عَرَفْتُ الهَوى مُذ عَرَفْتُ هواك ... وأغْلَقْتُ قَلْبي عَلى مَنْ عَاداكْ

وقُمْتُ أُناجِيكَ يا مَن تَـرى ... خَـفايا القُـلُـوبِ ولَسْنا نراك

أحِبُـكَ حُبَيْنِ حُبَ الهَـوى ... وحُبْـاً لأنَكَ أهْـلٌ لـذَاك

فأما الذي هُوَ حُـبُ الهَـوى ... فَشُغْلِي بذِكْرِكَ عَمَنْ سِـواكْ

وأمّـا الذي أنْتَ أهـلٌ لَهُ ... فَلَسْتُ أرى الكَـوْن حَتى أراكْ

فلا الحَمْدُ في ذا ولا ذاكَ لـي ... ولـكنْ لكَ الحَمْدُ في ذا وذاك

وقد تم التصريح عن المحبة المتبادلة بين الله جل في علاه، وبين محبيه من خلقه الأخيار، فقال جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[2]

ويتجلى صدق الحب لله بالتزام طاعته، واجتناب نهيه، ويكون ذلك من خلال طاعة

1. صحيح مسلم بشرح النووي، 16/ 139.
2. المائدة: 54.

الرسول، صلى الله عليه وسلم، والعمل بسنته، تنفيذاً لأمره سبحانه، حيث يقول تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.[1]

فهذه الآية الكريمة تدل على أن علامة المحبة الصادقة لله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، هي اتباعه صلى الله عليه وسلم، فالذي يخالفه ويدعي أنه يحبه، فهو كاذب، إذ لو كان محباً له لأطاعه، ومن المعلوم أن المحبة تستجلب الطاعة، ومنه قول الشاعر: لو كان حبك صادقاً لأطعته، إن المحب لمن يحب مطيع.[2]

سائلين الله العلي القدير أن يهدي قلوبنا إلى التحاب في جلاله الكريم، والبغض فيه سبحانه، وإلى لقاء قادم بإذن الله تعالى مع متابعة قراءة النصوص الشرعية، والمواقف ذات الصلة بالحب في الله، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. آل عمران: 31.
2. أضواء البيان: 1/ 199.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يبين فضل المتحابين بجلال الله

الحلقة الرابعة والأخيرة

عن عَمْرُو بن الْعَاصِ، رضي الله عنه: (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، بَعَثَهُ على جَيْشِ ذَاتِ السُّلاسِلِ، فَأَتَيْتُهُ، فقلت: أَيُّ الناس أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قال: عَائِشَةُ، فقلت: من الرِّجَالِ؟ فقال: أَبُوهَا، قلت: ثُمَّ من؟ قال: عُمَرُ بن الْخَطَّابِ، فَعَدَّ رِجَالاً)[1]

متابعة لبيان فضل المتحابين بجلال الله، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يعبر في الحديث الشريف أعلاه عن عمق حبه لعائشة، زوجه، وأبيها، رضي الله عنهما، مما يدحض حجج الذين يعتبرون حب الأزواج أمراً منكراً، أو عورة يجب سترها، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو الأسوة الحسنة يفصح عن حبه لزوجه عائشة، بصورة لا تقبل التأويل، وتتفق مع مبادئ العلاقات الزوجية التي شرعها القرآن الكريم، فالله تعالى يقول: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[2]

فقوله تعالى: {وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً}يعني الحب بين الزوج والمرأة، ولم تكن بينهما قرابة، ويحب كل واحد منهما صاحبه[3]، ومن تفسير المراد بالمودة والرحمة هنا، ما روي عن ابن عباس، ومجاهد أن المودة الجماع، والرحمة الولد، وقاله الحسن، وقيل: المودة والرحمة عطف قلوبهم بعضهم على بعض، وقال السدي: المودة المحبة، والرحمة الشفقة. [4]

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذاً خليلاً).
2. الروم: 21.
3. تفسير السمرقندي: 3/ 8.
4. تفسير القرطبي، 14/ 17.

والحب المراد هنا، هو الذي ينطلق من معين الطُهر والنَقاء، والحرص على رضا الله، بعيداً عن مسارب العشق الهابط، والعلاقات الدنيئة والخسيسة، ومعلوم أنه في الوقت الذي تكون العلاقات الجنسية المستظلة برباط الزواج الشرعي عبادة مشروعة، فإن الزنى والفواحش دناءة حقيرة، لا يلجأ إليها إلا من باء بسخط من الله وغضب، فالله تعالى يقول:{وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً}[1]، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (...وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قالوا: يا رَسُولَ اللهِ؛ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ له فيها أَجْرٌ؟ قال: أَرَأَيْتُمْ لو وَضَعَهَا في حَرَامٍ أَكَانَ عليه فيها وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إذا وَضَعَهَا في الْحَلاَلِ، كان له أَجْرٌ)[2]

فالحب من أهداف الزواج السامية، وقيمه النبيلة، حسب ما جاء في السنة عن أنس، أن المغيرة بن شعبة أراد أن يتزوج امرأة، فقال له النبي، صلى الله عليه وسلم: (اذهب فانظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما : ففعل فتزوجها، فذكر من موافقتها).[3]

ومعنى يؤدم بينكما: أي بأن يؤلف بينكما ويوفق، أي يوقع الأدم بينكما، يعني يكون بينكما الألفة والمحبة؛ لأنه إن تزوجها بعد معرفة، فلا يكون بعدها غالباً ندامة.[4]

فالإسلام يؤكد على بناء العلاقات الزوجية على أساس من الحب، الذي ينمو ويترعرع مع الزمن، ويثمر أسراً وثيقة العرى، ومتينة الرباط، فالأزواج المتحابون لهم المثوبة، ما داموا يحبون بعضهم بعضاً، على سنة الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم.

---

1. الإسراء: 32.
2. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.
3. سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها، وصححه الألباني.
4. تحفة الأحوذي، 4/ 175.

حب يأبى إلا أن يكون الأول:

حب الأزواج والأولاد والآباء والعشيرة وحتى النفس، ينبغي أن لا يسبق حب الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، والجهاد في سبيله، فعن عَبْد اللهِ بن هِشَامٍ، قال: (كنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، فقال له عُمَرُ: يا رَسُولَ اللهِ؛ لَأَنْتَ أَحَبُّ إليَّ من كل شَيْءٍ، إلا من نَفْسِي، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم، لا وَالَّذِي نَفْسِي بيده حتى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ من نَفْسِكَ، فقال له عُمَرُ: فإنه الآنَ، والله لَأَنْتَ أَحَبُّ إليَّ من نَفْسِي، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: الآنَ يا عُمَرُ) [1]

والله تعالى يقول: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [2]

فمن معايير القيم الإسلامية، أن تتفاوت أوزان الحب بين المرغوبات، ليتصدرها حب الله، وحب رسوله، صلى الله عليه وسلم، على حب غيرهما من الخلق والشهوات، وإلى جانب ذلك، فإن الله يثني على المؤمن الذي يأبى موادة أعداء الله، فيقول تعالى: {لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [3]، ويرى الرازي أن هذه الآية الكريمة تزجر عن التودد إلى الكفار والفساق. [4]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كان يمين النبي، صلى الله عليه وسلم.
2. التوبة: 24.
3. المجادلة: 22.
4. التفسير الكبير: 29/ 241.

حب الله لأوليائه:

الحب بين بني البشر لا ينفصل عن حب الله، حيث إن الله جل في علاه يتفضل على المتحابين في جلاله بحبه لهم، ورفع مقامهم، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا له في قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ الله له على مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فلما أتى عليه، قال: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قال: أُرِيدُ أَخًا لي في هذه الْقَرْيَةِ، قال: هل لك عليه من نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قال: لا غير، أني أَحْبَبْتُهُ في اللهِ، عز وجل، قال: فَإِنِّي رسول اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قد أَحَبَّكَ كما أَحْبَبْتَهُ فيه) [1]

ويترتب على حب الله لعباده، تحقق ثمار جلية لهم، فيسدد خطاهم، ويكلأهم برعايته وحفظه وتوفيقه، فرسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إِنَّ اللهَ قال: من عَادَى لي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ، كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) [2]

ومن ثمرات الفوز بحب الله، أن الملائكة وأهل السماء والأرض، يحبون أحباب الله، بخلاف المبغوضين من الله، فيبغضونهم، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: (قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: إِنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ عَبْدًا، دَعَا جِبْرِيلَ، فقال: إني أُحِبُّ فُلانًا، فَأَحِبَّهُ، قال: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي في السَّمَاءِ، فيقول: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قال: ثُمَّ يُوضَعُ له الْقَبُولُ في الأرض، وإذا أَبْغَضَ عَبْدًا، دَعَا جِبْرِيلَ، فيقول: إني أُبْغِضُ فُلانًا، فَأَبْغِضْهُ، قال: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي في أَهْلِ السَّمَاءِ، إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلانًا، فَأَبْغِضُوهُ، قال: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ له الْبَغْضَاءُ في الأرض) [3]

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله.
2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.
3. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده.

وعن سُهَيْلِ بن أبي صَالِحٍ، قال: (كنا بِعَرَفَةَ، فَمَرَّ عُمَرُ بن عبد الْعَزِيزِ، وهو على الْمَوْسِمِ، فَقَامَ الناس يَنْظُرُونَ إليه، فقلت لأَبِي: يا أَبَتِ، إني أَرَى اللهَ يُحِبُّ عُمَرَ بن عبد الْعَزِيزِ، قال: وما ذَاكَ؟ قلت: لِمَا له من الْحُبِّ في قُلُوبِ الناس)(*)

فيا لها من نعمة جليلة تلك التي يتبادل فيها المرء الحب مع الله عز وجل ورسوله، صلى الله عليه وسلم، والأخيار من خلقه، وما أحوجنا نحن الخلق الضعفاء، بل والبؤساء، إلى أن يحبنا الله الودود الرحيم، ويشملنا بعين رعايته ونصره المؤزر، فنحن الفقراء إليه، العاجزون دونه، وإن لم يكن به علينا غضب فلا نبالي.

نختم بهذا القدر الذي تناولته هذه الحلقة وسابقاتها من متابعة قراءة النصوص الشرعية والمواقف ذات العلاقة بالحب في الله، سائلين الله العلي القدير أن يؤلف بين قلوب المؤمنين، وأن يهديهم إلى التحاب في جلاله الكريم، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يعبر عن يقينه وثقته بوعد الله

عن أَنَسِ بن مَالِكٍ: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلاثًا، ثُمَّ أَتَاهُمْ، فَقَامَ عليهم، فَنَادَاهُمْ، فقال: يا أَبَا جَهْلِ بن هِشَامٍ؛ يا أُمَيَّةَ بن خَلَفٍ؛ يا عُتْبَةَ بن رَبِيعَةَ؛ يا شَيْبَةَ بن رَبِيعَةَ؛ أَلَيْسَ قد وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قد وَجَدْتُ ما وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللهِ؛ كَيْفَ يَسْمَعُوا؟ وَأَنَّى يُجِيبُوا وقد جَيَّفُوا؟! قال: وَالَّذِي نَفْسِي بيده ما أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ منهم، وَلَكِنَّهُمْ لا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ، فَسُحِبُوا، فَأُلْقُوا في قَلِيبِ بَدْرٍ)[1]

عبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه أعلاه عن يقينه وثقته بتحقق وعد الله، بلسان مقاله وحاله، في مواقفه وأقواله، ومن ذلك ما كان منه بعد الانتهاء من غزوة بدر الكبرى، أولى المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام، إذ وقف صلى الله عليه وسلم عند القليب الذي دفن فيه قتلى كفار مكة، وأكد على هذه الحقيقة، كما ورد في الحديث الصحيح المثبت نصه أعلاه.

وعد الله المؤمنين برسالته بالاستخلاف والتمكين والأمن:

تكرر صدور الوعد الإلهي للمؤمنين بالنصر والاستخلاف والتمكين في آيات قرآنية عديدة، منها قوله تعالى:{وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[2].

1. صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه.
2. النور: 55.

تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاثة وعود صادقة من رب السماوات والأرض للمؤمنين، فوعدهم أن يستخلفهم في الأرض، وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأن يبدل خوفهم أمناً، والمؤمن في أحلك ظروفه لا يساوره شك في وعد الله الحق، وقد أكد الله على هذه الحقيقة الخالدة في العديد من الآيات القرآنية، فقال سبحانه: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ}[1]، وبما أن وعد الله حق، والله لا يخلف الميعاد، فإن نصر الله آت آت، وقريب قريب، شاء من شاء، وأبى من أبى، والله عز وجل يقول:{أَلَا إِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}[2]، ويقول تعالى: {وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}[3]

ارتباط الأمر بالصبر بذكر حقيقة وعد الله الحق:

المتتبع لمواضع ذكر وعد الله الحق في الآيات القرآنية الكريمة، يجد أن الأمر بالصبر اقترن بهذا الذكر، بل سبقه في عدد منها، فقال تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}[4]، وقال عز وجل:{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}[5]، وقال جل ذكره: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ}[6].

وحق للمرء أن يتساءل ويبحث عن تفسير لهذا الارتباط أو الاقتران، فالشدائد والمحن يلزم من يواجهها التحلي بالجلد والصبر، حتى يقوى عليها، ويتجاوز كربها، ومما يزيد المؤمن جلداً وصبراً يقينه بتحقق وعد الله له بالنصر والعزة والاستخلاف والتمكين لدينه، واستبدال خوفه بأمن، وقد كانت لهذا الإيمان بصمات وآثار، ظهرت بارزة في مواقف

1. فاطر: 5.
2. يونس: 55.
3. الروم: 6.
4. غافر: 55.
5. غافر: 77.
6. الروم: 60.

الأنبياء، عليهم السلام، والمؤمنين الصادقين، ومنهم الصحابة الكرام، رضي الله عنهم، والتي من شواهدها إصرار بلال بن رباح على النطق بالشهادة، وهو يجلد في أقسى الظروف والأحوال، وقد تحقق له في العاقبة، أن يؤذن من الكعبة المشرفة التي كان يعذب سابقاً في محيطها، والوعد الرباني هو هو، فالله لن يخلف وعده، وهو القائل جل شأنه: {فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [1]، فمن الصفات الثابتة لله تعالى الوفاء بالوعد والعهد، وقد قدم جل ذكره الإشارة إلى ذلك في هذه الآية الكريمة، ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً على الإطلاق، ثم قال: (رسله)، ليعلم أنه إذا لم يخلف وعد أحد من الناس، فكيف يخلف وعد رسله، وخيرة خلقه، فقدم الوعد أولاً بقصد الإطلاق، ثم ذكر الرسل لقصد التخصيص. [2]

ويقول تعالى: {وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[3]، ويقول سبحانه: {ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَن نشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ}[4].

يقول صاحب أضواء البيان، إن الله جل وعلا بين في هذه الآيات أنه أرسل الرسل إلى الأمم، فكذبوهم، وأنه وعد الرسل بأن لهم النصر والعاقبة الحسنة، وأنه صدق رسله ذلك الوعد، فأنجاهم، وأنجى معهم ما شاء أن ينجيه، والمراد به من آمن بهم من أممهم، وأهلك المسرفين، وهم الكفار المكذبون للرسل، وقد أوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه، كقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}[5] وقوله: {فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَام}.[6]

---

1. إبراهيم:47.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 143.
3. الروم: 6.
4. الأنبياء: 9.
5. يوسف: 110.
6. إبراهيم: 47، أضواء البيان: 4/ 137.

وقد صدق الله المسلمين وعده؛ بأن نصرهم على أعدائهم، وعن هذا يقول عز وجل: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ...}[1]، ومعنى تحسونهم؛ أي تقتلونهم وتستأصلونهم، وهذا ما كان مع أعداء الثلة المؤمنة، التي انتصرت عليهم بإذن الله وتوفيقه.

وصدق الله المؤمنين وعده بوراثة الأرض، والجنة من بعدها، فقال جل شأنه: {وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ}[2]، وقال عز وجل: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[3].

الذكرى المئوية لوعد بلفور:

في سياق التذكير بيقين المؤمنين بقيادة رسولهم محمد، صلى الله عليه وسلم، بوعد الله وثقتهم بنصره، وهو الذي وعدهم بالاستخلاف في الأرض، والتمكين لدينهم فيها، واستبدال خوفهم بالأمن، فهذه الوعود من رب العزة، وإله الكون، وخالق الخلق، تستحق الاعتزاز والاطمئنان إليها، والاحتفاء بها دائماً وأبداً، وقد نزلت الآيات القرآنية بها منذ عشرات القرون، ومئات السنين، ومع ذلك؛ فإن كثيراً منهم يتجاهلونها ويتعامون عنها، في مقابل الطنات والرنات التي يقيمها بعض الناس لوعد بشري ظالم، فها هم يحتفلون بمئوية وعد بلفور، الذي صدر عن وزير خارجية بريطانيا في الثاني من تشرين الثاني من عام 1917، والذي منح تشريعاً لاستجلاب اليهود إلى فلسطين، بموجب وعد جائر أصدره لقادتهم، يقضي بتسهيل إقامة وطن قومي لهم على أرضنا الفلسطينية.

ومن أبسط وأصدق ما قيل في هذا الوعد الظالم، أنه صدر عمن لا يملك لمن لا يستحق، والله تعالى يقول في أمثال هذه الوعود الزائفة وأهلها: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ

1. آل عمران: 152.
2. إبراهيم: 14.
3. الزمر: 74.

الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً} [*]، فهي وعود شيطانية باطلة وخداعة وظالمة.

بخلاف الوعد الرباني الذي يصدر عن مالك الملك سبحانه، لمن اختارهم للاستخلاف في الأرض، من عباده المخلصين، السالفين واللاحقين، ولكن أكثر الناس لا يفقهون، ولا يعلمون.

فأيهما أجدر بالاحتفال: الوعد الحق، أم وعود الباطل؟!! لا ريب أن العقلاء يؤمنون بأن وعد الله هو الحق، وهو الأجدر باليقين والثقة والاعتزاز، وأما وعود الظالمين فهي وإياهم إلى بوار، وبئس المصير.

فتبت يدا بلفور ومن جاراه وسانده والتف حوله ووثق بوعده، راجين الله أن يهدينا إلى اليقين بنصره، والثقة بعهده، والعمل بما يرضيه سبحانه، لنكون ممن ينصرون الله وينصرهم، ويثبت أقدامهم، على درب أخيار المؤمنين، وعلى رأسهم الهادي الأمين، وخاتم النبيين، محمد ابن عبد الله، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* الإسراء: 64.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يعبر في طريق هجرته عن يقينه بالمعية الإلهية

يقول الله تعالى: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.[1]

يتعلق هذا الخطاب القرآني بقضية بالغة الأهمية، كونها تخص نصرة الباري جل في علاه لنبيه المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وفي التسهيل لعلوم التنزيل، أن قوله تعالى: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ...} شرط وجواب، والضمير لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتفسير ارتباط هذا الشرط مع جوابه، أن المعنى إن لم تنصروه أنتم، فسينصره الله الذي نصره حين كان ثاني اثنين، فدل بقوله: {نَصَرَهُ اللهُ} على نصره في المستقبل. {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} يعني عند خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة، وأسند إخراجه إلى الكفار؛ لأنهم فعلوا معه من الأذى ما اقتضى خروجه. {ثَانِيَ اثْنَيْنِ} هو وأبو بكر الصديق، وقوله: {إِنَّ اللهَ مَعَنَا} يعني بالنصر واللطف، {فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} الضمير للرسول، صلى الله عليه وسلم، وقيل لأبي بكر؛ لأن النبي، صلى الله عليه وسلم، نزلت معه السكينة، ويضعف ذلك بأن الضمائر بعدها للرسول عليه الصلاة والسلام، {وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا} يعني الملائكة يوم بدر وغيره، {وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى} يريد إذلالها ودحضها، {وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا} قيل هي لا إله إلا الله، وقيل الدين كله.[2]

وقد صدرت هذه الطمأنة من النبي، صلى الله عليه وسلم، لصاحبه أبي بكر، بأنهما في معية الله جل في علاه، وهما في طريق الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ففي حديث الْبَرَاء بن عَازِبٍ، عن أبي بَكْرٍ، رضي الله عنه، قال: (...فَارْتَحَلْنَا بعدما مَالَت الشَّمْسُ، وَاتَّبَعَنَا

1. التوبة: 40.

2. التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 76.

سُرَاقَةُ بن مَالِكٍ، فقلت: أُتِينَا يا رَسُولَ اللهِ، فقال: لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا، فَدَعَا عليه النبي، صلى الله عليه وسلم، فَارْتَطَمَتْ بِهِ فَرَسُهُ إلى بَطْنِهَا، فقال: ...إني أُرَاكُمَا قد دَعَوْتُمَا عَلَيَّ، فَادْعُوَا لي، فَاللهُ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ، فَدَعَا له النبي، صلى الله عليه وسلم، فَنَجَا، فَجَعَلَ لا يَلْقَى أَحَدًا، إلا قال: كَفَيْتُكُمْ ما هُنَا، فلا يَلْقَى أَحَدًا إلا رَدَّهُ، قال: وَوَفَى لنا). [1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، عبر عن يقينه بأن الله يؤيدهما، كيف لا؟ وهو المبلغ عن ربه قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [2]، وعلى رأس المؤمنين الذين يدافع الله عنهم رسوله، صلى الله عليه وسلم، حامل رسالته للعالمين، الداعي إليه على بصيرة، هو ومن اتبعه من المؤمنين، فحق له أن يطمئن إلى أن الله سينتصر له، حتى لو لجأ إلى الهجرة عن بلده ومسقط رأسه، فالله معه، وكافيه أعداءه، وناصره عليهم، طال الزمن أم قصر، إذ العاقبة للمتقين، والخزي والعار للظالمين.

شواهد لليقين بالمعية الإلهية:

المؤمنون حقاً هم الذين يثقون بالعون الإلهي والمدد الرباني، لا يفارقهم هذا اليقين في أحوالهم كلها، مهما اشتد عسرها، وطال ليلها، وقد ضربت أم إسماعيل، عليهما السلام، مثلاً رائعاً لهذا اليقين، حين تركها زوجها إبراهيم، عليه السلام، وولدها في صحراء قاحلة، فلما علمت منه أن الأمر بذلك يعود لله جل في علاه، قالت قولتها الإيمانية المشهورة: (إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا)، قال ابن عَبَّاسٍ، قال: (أَوَّلَ ما اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ من قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا على سَارَةَ، ثُمَّ جاء بها إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حتى وضعهما عِنْدَ الْبَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ في أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بها مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فيه تَمْرٌ، وَسِقَاءً فيه مَاءٌ، ثُمَّ قفى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فقالت: يا إِبْرَاهِيمُ؛ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بهذا الْوَادِي الذي ليس فيه إِنْسٌ

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.
2. الحج: 38.

ولا شَيْءٌ؟! فقالت له ذلك مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فقالت له: آلله الذي أَمَرَكَ بهذا؟ قال: نعم. قالت: إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا ...)[1]

فالذي يركن إلى الله تعالى، إنما يستند إلى القوة الأكبر، التي شرع للمصلي المسلم أن يكرر التعبير عنها بصيغة (الله أكبر) في صلاته، بدءاً من الشروع بها، ومروراً بالانتقال بين أفعالها، فيكرر ترادها في الركعة الواحدة ما لا يقل عن خمس مرات، ويتضاعف العدد مع مضاعفة عدد الركعات، ولا توجد عبارة تتكرر في الصلاة مثلها، فهي جديرة بالفهم واليقين، فالذي يعلم أن الله أكبر من أي كبير، ويستحضر إيمانه بهذه الحقيقة في أحواله كلها، إنما يتربى على مائدة إيمانية يتزود منها يومياً بتذكير ينفعه في حله وترحاله، وبخاصة في شدائده وملماته، فلا يضعف أمام الصعاب، ولا يتهاوى أمام الخطوب، ما دام يؤمن جزماً بأن مع العسر يسراً، وأن الغلبة في نهاية المطاف وفق المعادلة الإيمانية لن تكون إلا لله وحزبه، وأنها كما كانت لنوح وموسى وعيسى ولمحمد، عليهم الصلاة والسلام، ستكون لأهل الحق الذي عرفوه والتزموا به، ولم يتنكبوا دربه، فطوبى لهم وحسن مقام، وسلام عليهم في الأولين والآخرين، على منوال أصفياء الله ورسله، الذين بعد أن اشتدت بهم الكروب، جاءهم نصر الله المبين، مصداقاً لقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}[2].

والشواهد على المعية الإلهية لأصفيائه كثيرة، سواء للمتدبر في أرض الواقع ومجريات أحداثه، أم لمطالع الآيات القرآنية، وتاليها، ومتدبر معانيها، والتي منها قوله تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}[3]، فالله لم يمد المؤمنين بالملائكة لنصرتهم فحسب، بل كان معهم معاضداً ومؤازراً وناصراً، ومن كان الله معه كفاه.

1. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه.
2. يوسف: 110.
3. الأنفال: 12.

نموذج للذين يركنون إلى غير الله تعالى:

على خلاف يقين محمد، صلى الله عليه وسلم، وأم إسماعيل، عليهما السلام، والمؤمنين في كل زمان ومكان، بحتمية انتصار من كان الله معه، فإن بعض الناس قديماً وحديثاً يرتابون بهذه الحقيقة الإيمانية، فيتركون جانب الله الأكبر إلى شيء من خلقه عظم في أعينهم، فظنوا النجاة معه لا مع خالقه، كما كان من ابن نوح، عليه السلام، حيث رد على نصح أبيه، بأنه سيلجأ إلى الجبل ليحميه من الغرق القادم، فكان في المحصلة من المغرقين، وعن الحوار الذي دار بين نوح، عليه السلام، وابنه حول هذه القضية، يحدث القرآن الكريم في قوله تعالى: {وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمَ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ* وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ}(*).

فلا الجبل ولا غيره يمكن أن يغني من استهدفه الله بالعقاب والسخط، بينما يبدل الله ضعف من شاء قوة، ومن أسطع الشواهد على ذلك عودة النبي، صلى الله عليه وسلم، وأتباعه من دار هجرتهم فاتحين لبلدهم الحرام الذي اضطُهدوا فيه من قبل، مرددين جاء الحق، وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

سائلين الله العلي القدير أن يلهمنا السداد واليقين، بأن الله معنا، ولن يضيعنا، مهما اشتدت بنا الخطوب، وضاقت بنا السبل، فنصر الله لنا بإذن الله قريب، وهو آت لا محالة، لأن الله معنا، كما كان في الهجرة وغيرها مع رسوله، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين

* هود: 41 – 43.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يبين للعالمين منزلة المسجد الأقصى عند المسلمين

عن أبي ذَر، رضي الله عنه، قال: قلت: (يا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأرض أَوَّلَ؟ قال: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ. قال: قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: المَسْجِدُ الأَقْصَى، قلت: كَمْ كان بَيْنَهُمَا؟ قال: أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ، فإن الْفَضْلَ فيه)[1].

المسجد الأقصى المبارك بموجب هذا الحديث النبوي الشريف، ثاني مسجد وضع في الأرض لعبادة رب البرية عز وجل، وهذه الحقيقة التاريخية والدينية تدل على علو المنزلة، التي يحتلها هذا المسجد عند الله، فالمساجد في الأرض كثيرة، وبقاع البسيطة التي تحتضنها منتشرة في أنحاء المعمورة، فليست مصادفة أن يسبقها المسجد الأقصى في الوجود بعد أربعين سنة من وجود المسجد الأعظم، الذي سماه الله بالحرام والمحرم والعتيق، ويمكن لأي عاقل أن يدرك أثر إيمان المسلم بهذه الحقيقة في تعميق وشائج الصلة بينه وبين هذا المسجد، الذي يضرب وجوده تجذراً في أعماق التاريخ، وهذا الارتباط لا يقف عند حدود التراث، بل يتعدى ذلك إلى مجال العبادة، التي هي غاية وجود العالمين، مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[2].

فاختيار الله المسجد الأقصى لهذا السبق التاريخي في الوجود على وجه البسيطة، يثير في أذهان المتدبرين تساؤلات عن أسرار هذا الاختيار، ودلالاته على تجذر قداسة هذا المسجد، والبقعة المباركة التي تشرفت به، ومن أسرار هذا الاختيار الذي تم الإخبار الصادق عنه في صدر الإسلام، المكانة العظيمة التي يحظى بها في ميزان الله والإسلام، ولدى المسلمين أينما وجدوا وحلوا.

1. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه.
2. الذاريات: 56.

الإسراء إليه والمباركة حوله:

مما يزيد من ارتباط المسلمين بالمسجد الأقصى المبارك، ذلك الربط العقائدي الرباني الذي تم بأمر الله عز وجل وإرادته سبحانه وفعله، فقد أسرى الله برسوله الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، من المسجد الحرام في مكة المكرمة، إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس ليلاً، في حادثة فريدة أخبر الله عنها في فاتحة سورة الإسراء، فقال عز وجل: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [1]

ودائماً يتحدث المسلمون ودعاتهم عن حكمة عظيمة، تجلت في هذه الحادثة المباركة، والمتمثلة في الربط بين المسجد الحرام الذي وجد أولاً على وجه الأرض، وبين المسجد الأقصى، الذي وجد ثانياً على وجهها، وكان يمكن أن يتم المعراج إلى السماء من المسجد الحرام مباشرة، إلا أن الإسراء بالنبي، صلى الله عليه وسلم، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أولاً، يدل على تجذر الصلة بين هذين المسجدين العظيمين، فهي صلات تاريخية وعقائدية بامتياز، أوجدها الله ورعاها، وسيبقى يرعاها إلى أن يرث الأرض وما عليها، رغم أنف الكارهين والمغرضين والمتربصين بالإسلام ومسلجده السوء والشر، وهو القائل جل في علاه: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً* وَأَكِيدُ كَيْداً* فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً}[2].

قبلة المسلمين الأولى:

لم يقف الربط العقائدي بين المسجد الحرام في مكة المكرمة، والمسجد الأقصى في فلسطين، عند الترتيب الزماني المتعلق بوجودهما، وعند حادثة الإسراء الموثقة في التاريخ المشاهد، وآيات الله المحكمة التي نزل بها الروح الأمين على قلب خاتم الأنبياء والمرسلين، عليه وإياهم صلوات الله وسلامه، بل هناك ربط آخر موثق أيضاً، لا يقل في أهميته عن

1. الإسراء: 1.
2. الطارق: 15 - 17.

الربطين السابقين، ذلكم المتعلق في قبلة صلاة المسلمين، فقد كانت في بداية الإسلام نحو بيت المقدس، ثم تم تحويلها بأمر الله ومشيئته لتصبح نحو الكعبة المشرفة في البيت الحرام، وهنا يرد تساؤل عن دلالات وجود قبلة أولى والتحول عنها إلى استقبال الكعبة المشرفة، فالمسألة تشير إلى صلة وثيقة بين المكانين، وموضوعها قضية تتعلق بعبادة المسلم، التي تتكرر من قبله في اليوم والليلة مرات عدة، فإن مسلمي الدنيا السالفين والحاضرين والقادمين يتوجهون في صلاتهم تجاه القبلة، فهل يا ترى يغفلون عن قبلتهم الأولى، التي ذكرها القرآن الكريم في أكبر سوره، فقال تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[1]، ويقول تعالى: {...وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [2]، فالقبلة الأولى التي كان عليها الرسول، صلى الله عليه وسلم، والمسلمون هي بيت المقدس، قبل أن يتم تحولهم عنها إلى البيت الحرام في مكة المكرمة، بأمر الله جل في علاه، ومن الروايات الصحيحة المثبتة لهذا التحويل، ما جاء عن الْبَرَاءِ، قال: (لَمَّا قَدِمَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، الْمَدِينَةَ، صلى نحو بَيْتِ الْمَقْدِسِ، سِتَّةَ عَشَرَ، أو سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وكان يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إلى الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: {قد نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} فَوُجِّهَ نحو الْكَعْبَةِ، وَصَلَّى معه رَجُلٌ الْعَصْرَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَمَرَّ على قَوْمٍ من الأَنْصَارِ، فقال: هو يَشْهَدُ، أَنَّهُ صلى مع النبي، صلى الله عليه وسلم، وَأَنَّهُ قد وُجِّهَ إلى الْكَعْبَةِ، فَانْحَرَفُوا، وَهُمْ رُكُوعٌ في صَلاةِ الْعَصْرِ).[3]

---

1. البقرة: 142.

2. البقرة: 143.

3. صحيح البخاري، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام.

شد الرحال إليه:

من الأمور الرئيسة التي بين من خلالها الرسول، صلى الله عليه وسلم، مكانة المسجد الأقصى في الإسلام، تشريع شد الرحال إليه، وإلى المسجدين الأعظمين الحرام والنبوي، فعن أبي هُرَيْرَةَ، يَبْلُغُ بِهِ النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ، مَسْجِدِي هذا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى)[1]

فلا يشرع شد الرحال إلى مسجد في الدنيا تعبداً وطلباً للثواب، إلا إلى هذه المساجد الثلاثة، دون سواها، ووجود المسجد الأقصى معها يدل على مكانته الرفيعة، ومنزلته العالية، فكيف للمسلمين أن يغفلوا عن نصرته وحمايته، وهم يبذلون الجهود السنوية لشد الرحال إلى أخويه، خلال قصدهما في مواسم الحج والعمرة؟! إن غفلتهم عنه يرفضها الإسلام والمسلمون، ويرفضها أحرار الخلق، لعظم حقه عليهم، فهو يتعرض للتدنيس، ويقبع تحت حراب الظالمين، والمسلمون في أنحاء الدنيا يشاهدون جراحه ودماءه النازفة، ويسمعون أناته، ويأكلون ويشربون ويلهون عنه لهو الغافلين، ولا يتوقع أن يقل تأنيبهم عن تقريع المقصرين في نصرة المستضعفين من المسلمين، الذين قال الله تعالى فيهم: {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً}[2]

فالمسجد الأقصى المبارك صاحب الفضائل سالفة الذكر، والمنازل الرفيعة عند الله والمسلمين، يتعرض في هذه الأيام إلى محن صعبة، وفواصل تاريخية فظيعة، وللأسف دون أن يحرك المسلمون ساكناً مُعتبراً لنصرته، إلا من رحم ربي منهم، والمطلوب منكم أهل بيت المقدس وأكنافه أن لا تحبطوا، وأن لا تتهاونوا في بذل الجهود المضنية لشد الرحال إلى

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.
2. النساء: 75.

مسجدكم الأقصى المبارك، والرباط فيه، والله تعالى يأمر بالصبر والمصابرة والرباط، فيقول جل في علاه:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [1]

وعن سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما عليها، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ من الْجَنَّةِ، خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما عليها، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، أو الْغَدْوَةُ خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما عليها)[2]

ففضل الرباط عموماً عظيم، فكيف إذا كان في رحاب المسجد الأقصى المبارك وحوله؟!! إنه بلا ريب سيكون أعظمَ، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا الهادي، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. آل عمران: 200.

2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
يهيئ الأجواء الإيمانية لاستقبال رمضان بالعزم على التوبة النصوح

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل شَهْرُ رَمَضَانَ، فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ)[1]

وفي رواية، قال صلى الله عليه وسلم: (إذا جاء رَمَضَانُ، فُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ)[2]

مع قرب حلول شهر رمضان المبارك، يحسن الوقوف عند مطالعة عينة من أحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، التي صنف معظمها الإمام البخاري في صحيحه، ضمن كتاب الصوم، وتشير هذه العينة المقصودة إلى أهمية الصوم، ودوره في تقويم سلوك الصائم، والارتقاء في درجاته، ورفع مكانته، والسخاء في مثوبته، مما يشجع الشوق إلى الصوم، وعلى انتهاز فرصته، لأدائه على الوجه المشروع، وفي الحديثين أعلاه يخبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن إجراءات تطرأ على الكون والملأ الأعلى منه بقدوم رمضان، فمع مجيئه تفتح أبواب الجنة، وتغلق أبواب جهنم، وتسلسل الشياطين، وجاء في عمدة القاري، أن المراد من فتح أبواب الجنة حقيقة الفتح، وقيل: المراد بذلك كثرة الطاعات في شهر رمضان، فإنها موصلة إلى الجنة، فكني بها عن ذلك، ويقال: المراد به ما فتح الله على العباد فيه من الأعمال الموجبة إلى الجنة؛ من الصيام والصلاة والتلاوة، وأن الطريق إلى الجنة في رمضان سهل، والأعمال فيه أسرع إلى القبول.[3]

وقيل: إن معناه أن الله يتجاوز فيه للصائمين عن ذنوبهم، ويضاعف لهم حسناتهم، فبذلك تغلق عنهم أبواب الجحيم، وأبواب جهنم؛ لأن الصوم جُنة، يستجير به العبد من

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان ومن رأى كله واسعاً.
2. التخريج نفسه.
3. عمدة القاري: 10 /266.

النار، وتفتح لهم أبواب الجنة؛ لأن أعمالهم تزكو فيه لهم، وتتقبل منهم، هذا مذهب من حمل الحديث على الاستعارة والمجاز.[1]

فرصة سانحة للتطهر من الذنوب والخطايا:

من النفحات الإيمانية التي تزهر بها الأجواء الرمضانية، بث روح الأمل بمسح الخطايا، ومحو الذنوب التي لا مناص من الوقوع في لممها، فصيام رمضان وقيام ليله، وبخاصة ليلة القدر، فرص سانحة جديرة أن تنتهز للخروج بها سالمين من الخطايا، معافين من وزر الذنوب، حيث الوعود الصادقة، تؤكد حقيقة توافر هذه الفرص.

فعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من قام لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ)[2]

والفرص المتاحة لتكفير الذنوب، لا تقتصر على أيام رمضان ولياليه، وإنما تشمل إلى جانبها مناسبات يومية وأسبوعية أخرى، فعن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، كان يقول: (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إلى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إلى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ ما بَيْنَهُنَّ إذا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ)[3]

والله جل في علاه أثنى على الصائمين والصائمات، ضمن الثناء على مجموعة أخرى من أصحاب الخيرات، الذين وعدهم جميعاً بالمغفرة والأجر العظيم، فقال عز وجل: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}[4]

1. التمهيد لابن عبد البر: 16 /152.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية.
3. صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر.
4. الأحزاب: 35.

والمسلم الفَطِن يجد في الوعود سالفة الذكر، محفزات له للإقبال على التوبة، والمسارعة إلى المغفرة، مهما بلغت خطاياه، وتعاظمت ذنوبه، دون أن يساوره قنوط أو إحباط من حجمها وتراكمها، فباب التوبة مفتوح، ونفحات الرحمة الربانية متاحة، وما علينا سوى طرق أبوابها، وولوج مداخلها، بيقين راسخ.

الصيام جُنّة والله يَجزي به:

من الأجواء الإيمانية التي يهيئها الرسول، صلى الله عليه وسلم، لاستقبال رمضان بالعزم على التوبة النصوح، تأكيده على أن الصيام وقاية، وأن خلوف فم الصائم أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى من رِيحِ الْمِسْكِ، وأن الصيام لله، وهو سبحانه يجزي به، مضاعفاً ثواب الحسنات، الحسنة بعشر أضعافها، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فلا يَرْفُثْ، ولا يَجْهَلْ، وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أو شَاتَمَهُ، فَلْيَقُلْ: إني صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ، وَالَّذِي نَفْسِي بيده؛ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى من رِيحِ الْمِسْكِ، يَتْرُكُ طَعَامَهُ، وَشَرَابَهُ، وَشَهْوَتَهُ، من أَجْلِي، الصِّيَامُ لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا)(*)

جاء في عمدة القاري، قول عياض في معنى (الصيام جُنَّة) أنه يستر من الآثام، أو من النار، أو بجميع ذلك، وبالأخير قطع النووي، وقوله: (فلا يرفث) أي لا يفحش، والمراد من الرفث هنا الكلام الفاحش، ويطلق على الجماع وعلى مقدماته، وعلى ذكره مع النساء، ويحتمل أن يكون النهي عما هو أعم منها، وقوله: (ولا يَجْهل) أي لا يفعل شيئاً من أفعال الجاهلية، كالسفه والسخرية، وقال القرطبي: لا يفهم من هذا أن غير الصوم يباح فيه ما ذكر، وإنما المراد أن المنع من ذلك يتأكد بالصوم، وقوله: (وإن امرؤ قاتله) أي نازعه ودافعه، وقوله: (أو شاتمه) أي أو تعرض للمشاتمة، واختلف العلماء في كيفية رد الصائم على المشاتم، على ثلاثة أقوال؛ أحدهما، أن يقول ذلك بلسانه، إني صائم؛ حتى يعلم من يجهل أنه معتصم

* صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم.

بالصيام عن اللغو والرفث والجهل، والثاني، أن يقول ذلك لنفسه؛ أي وإذا كنت صائماً، فلا ينبغي أن أخدش صومي بالجهل ونحوه، فيزجر نفسه بذلك، والقول الثالث، التفرقة بين صيام الفرض والنفل، فيقول ذلك بلسانه في الفرض، ويقوله لنفسه في التطوع، وعند الشافعي يجب الحمل على كلا المعنيين.[1]

وقد حذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من محبطات أجر الصيام، ومبطلات أثره في الوقاية من النار، من خلال الإشارة إلى وزر بعض السلوكات التي يتنافى اقترافها مع نقاء الصيام وطهره، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (من لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلهِ حَاجَةٌ في أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ)[2].

باب الريان:

من دواعي التحفز للصيام، الطمع في دخول الجنة من باب الريان، الذي خص الله به الصائمين، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (من أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ في سَبِيلِ اللهِ، نُودِيَ من أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يا عَبْدَ اللهِ؛ هذا خَيْرٌ، فَمَنْ كان من أَهْلِ الصَّلَاةِ، دُعِيَ من بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كان من أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ من بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كان من أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ من بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كان من أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ من بَابِ الصَّدَقَةِ، فقال أبو بَكْرٍ، رضي الله عنه: بِأَبِي أنت وَأُمِّي يا رَسُولَ اللهِ؛ ما على من دُعِيَ من تِلْكَ الْأَبْوَابِ من ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ من تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قال: نعم، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ منهم)[3]، راجين الله أن يوفقنا لدخول الجنة من تلك الأبواب جميعها.

فرحتا الصائم:

الصائم رغم ما يجد من آثار الإمساك عن الطعام والشراب والمفطرات الأخرى، فإنه

1. عمدة القاري: 10 /258.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين.

يجد متعة حين الإفطار وفق أحكام دينه، وتفرح نفسه وتبتهج، حين يلقى جزاءه يوم القيامة، مصداقاً لما جاء عن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، يقول: قال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم: (قال الله: كُلُّ عَمَلِ ابن آدَمَ له، إلا الصِّيَامَ، فإنه لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وإذا كان يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فلا يَرْفُثْ، ولا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أو قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إني امْرُؤٌ صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ من رِيحِ المِسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا، إذا أَفْطَرَ فَرِحَ، وإذا لَقِيَ رَبَّهُ، فَرِحَ بِصَوْمِهِ)(*)

سائلين الله العلي القدير أن يبلغنا رمضان، وأن يعيننا على صيامه، وقيام لياليه، على الوجه الذي يرضيه سبحانه، لننال مثوبته، والمغفرة التي وعدنا إياها رسولنا الأمين، وخاتم النبيين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم.

الفصل الثاني
العبادات

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم		
.1	أمره الله أن يعبده حتى يأتيه اليقين	70
.2	يلفت الانتباه إلى أهمية الاستقامة على عبادة الله وديمومتها - الحلقة الأولى	75
.3	يلفت الانتباه إلى أهمية الاستقامة على عبادة الله وديمومتها - الحلقة الثانية والأخيرة	81
.4	يعنى بتهذيب سلوك الصائم - الحلقة الأولى	86
.5	يعنى بتهذيب سلوك الصائم - الحلقة الثانية والأخيرة	91
.6	كان كالريح المرسلة في رمضان	96
.7	يبشر الصائمين بجوائزهم	101
.8	يبدأ يوم العيد بالصلاة	106
.9	يبين فضل العشر من ذي الحجة	111
.10	ينهى عن الفسوق في الحج	116
.11	يعلمنا الاستسقاء	121

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
أمره الله أن يعبده حتى يأتيه اليقين

يأمر الله رسوله المصطفى، عليه الصلاة والسلام، بالمداومة على عبادته سبحانه حتى يفارق الدنيا بالموت، فيقول جل شأنه:{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}[1]، فعبادة الله جل في علاه، لا تنحصر بأوقات أو أجيال أو شرائح من الناس، بل هي مطلوبة من الخلق دائماً، وعلى رأس من تطلب منهم العبادة هم الأنبياء والأصفياء، ومنذ أن تلقى الرسول، صلى الله عليه وسلم، التكليف الرباني بتولي مهمة النبوة، توالت عليه الأوامر الإلهية بعبادة الله، ففي فاتحة سورة المزمل أمره ربه عز وجل أن يقيم الليل بالصلاة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ* قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلاً* نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً* إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً* إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً}[2]

وكذلك فاتحة سورة المدثر، جاء فيها الأمر الرباني للنبي، صلى الله عليه وسلم، بالتطهر اللازم لأداء العبادة، مقترناً بالأمر بالتكبير، وهو نوع من العبادة، وجزء مهم من أقوال الصلاة التي تفتتح بها، ويتم بها الانتقال من فعل إلى آخر فيها، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنذِرْ* وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ* وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ* وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}[3]

وعبادة الله لا تنحصر بالصيام والصلاة والزكاة والحج، وهي ليست موسمية أو فصلية، وإنما يلتزم بها المؤمن في حله وترحاله، في حزنه وفرحه، في صحته وسقمه، فما يصدر عنه من فعل أو قول يقصد به وجه الله، يكتب له أجر تعبده لله به، حتى امتناعه عن الفعل المحرم، أو قول الإثم خشية لله، تكتب له بذلك حسنات تعبده، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، عن

1. الحجر: 99.
2. المزمل:1 – 6
3. المدثر:1 – 5.

النبي، صلى الله عليه وسلم، فِيمَا يَرْوِي عن رَبِّهِ عز وجل، قال: قال: (إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذلك، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ، فلم يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله له عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هو هَمَّ بها، فعملها كَتَبَهَا الله له عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إلى سبع مائة ضِعْفٍ، إلى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فلم يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا الله له عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هو هَمَّ بها فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا الله له سَيِّئَةً وَاحِدَةً)[1]

فعبادة الله العامة يؤديها المؤمن في سكناته وحركاته، بلسانه وبقية جوارحه، أما العبادة الخاصة، فيؤديها على الوجه المخصوص الذي وردت به عن النبي الهادي، صلى الله عليه وسلم، وهو الذي يقول: (...وَصَلُّوا كما رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي...)[2]، وعن أبي الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سمع جَابِرًا يقول: (رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يرمي على رَاحِلَتِهِ يوم النَّحْرِ، وَيَقُولُ: لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هذه) [3].

التعبير عن الموت باليقين:

عبر الله في آية سورة الحجر سالفة الذكر عن الموت الذي طلب من النبي، صلى الله عليه وسلم، أن يعبد ربه حتى يأتيه، بمصطلح اليقين، وتكرر مثل هذا التعبير عنه أيضاً في سورة المدثر، حيث قال تعالى حاكياً عن المجرمين الذين يكذبون بيوم الدين، فقال جل شأنه: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ* إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ* فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ* عَنِ الْمُجْرِمِينَ* مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ* وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ* وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ* حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ}[4].

---

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من همَّ بحسنة أو بسيئة.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.
3. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً وبيان قوله صلى الله عليه وسلم: لتأخذوا مناسككم.
4. المدثر:38 – 47.

وفي سورة التكاثر ذكر اليقين مرتين، متعلقاً مرة بالعلم، وأخرى بالعين، فقال تعالى: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ* كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ* ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ* كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ* ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ* ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}[1]

وفي أضواء البيان، أن حق اليقين هو منتهى العلم، إذ اليقين ثلاث درجات، الأولى علم اليقين، والثانية عين اليقين، والثالثة حق اليقين، ذكرت درجتان منهما في سورة التكاثر، والثالثة إذا دخلوها كان حق اليقين.[2]

وفيه أن العلم ما كان عن دلائل، وعين اليقين ما كان عن مشاهدة، وحق اليقين ما كان عن ملابسة ومخالطة.[3]

وجاء ذكر حق اليقين في سورتي الواقعة والحاقة، فقال تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}[4]، وقال سبحانه: {وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ}[5].

وقد فسر الرسول، صلى الله عليه وسلم، اليقين بالموت، فعن خَارِجَة بن زَيْدِ بن ثَابِتٍ: (أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ -امْرَأَةً من الْأَنْصَارِ- بَايَعَتْ النبي، صلى الله عليه وسلم، أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتُسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً، فَطَارَ لنا عُثْمَانُ بن مَظْعُونٍ، فَأَنْزَلْنَاهُ في أَبْيَاتِنَا، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الذي تُوُفِّيَ فيه، فلما تُوُفِّيَ وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ في أَثْوَابِهِ، دخل رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فقلت: رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ، لقد أَكْرَمَكَ الله، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: وما يُدْرِيكِ أَنَّ اللهَ قد أَكْرَمَهُ؟ فقلت: بِأَبِي أنت يا رَسُولَ اللهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ الله؟ فقال: أَمَّا هو فَقَدْ

1. سورة التكاثر.
2. أضواء البيان: 8 /263.
3. أضواء البيان: 9 /83.
4. الواقعة: 95.
5. الحاقة: 51.

جَاءَهُ الْيَقِينُ، والله إني لَأَرْجُو له الْخَيْرَ، والله ما أَدْرِي، وأنا رسول اللهِ ما يُفْعَلُ بِي، قالت: فَوَاللهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا)[1]

فالموت يغيب الميت عن حياته الدنيا، لكن بعده تتكشف له الحقائق، وتزال عنه حجب كانت مستورة عن عينيه، فهو يقين من هذه الناحية، ويقين كذلك؛ لأنه واقع بالمخلوقات كلها لا محالة، مصداقاً لقوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[2]

عينة من أوامر الله بعبادته:

بالإضافة إلى الأمر الرباني للنبي، صلى الله عليه وسلم، بعبادته حتى يأتيه اليقين، فإن الله أمر بأن يعبد، في مواضع قرآنية عديدة أخرى، منها قوله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}[3]، وفي معنى قوله عز وجل: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ} يقول القرطبي: لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة، وخصها بالذكر؛ لأنها ثانية الإيمان، وإليها يُفزع في النوائب، فقال مجاهد: الطرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر، وقيل: الطرفان الصبح والمغرب، وعن الحسن الطرف الثاني العصر وحده، وقيل: الطرفان الظهر والعصر، والزلف المغرب والعشاء والصبح.[4]

فالتعبد الواجب إلى الله بالصلاة يتعدد يومياً، مما يعني أن عبادة الله المطلوبة حتى موت العابد، يؤديها مرات عديدة على مدار اليوم، وتكرر الأمر بالأداء اليومي للصلاة في قوله جل شأنه:{أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً}[5]

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه.
2. الأنبياء: 35.
3. هود: 114.
4. تفسير القرطبي: 9 /109.
5. الإسراء: 78

غاية الخلق:

تتماشى الأوامر الإلهية للنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، بعبادة ربه، مع الحقيقة العقائدية العامة، المتمثلة في تحديد عبادة الله غاية للخالق سبحانه من خلقه، حيث يقول تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[1].

وقد وجه الله أمره لعموم الناس بعبادته، فقال جل ذكره: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[2]

والمؤمنون تلقوا عن ربهم الأمر بعبادته، فيقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[3]

وكل رسول بعثه الله تعالى كلف بالدعوة إلى عبادة الله عز وجل، فقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}[4]

مما سبق تظهر ضرورة المحافظة على ديمومة التعبد لله، يؤديها العابد صلاةً وصياماً وزكاةً وحجاً وذكراً واستغفاراً، ولا ينقطع عنها، سائلين الله العلي القدير أن يوفقنا إلى حسن طاعته وعبادته، على سنة خاتم النبيين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الذاريات: 56.
2. البقرة: 21.
3. الحج: 77.
4. النحل: 36.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
يلفت الانتباه إلى أهمية الاستقامة على عبادة الله وديمومتها
الحلقة الأولى

عن أبي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (من صَامَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا من شَوَّالٍ، كان كَصِيَامِ الدَّهْرِ)(*).

لم يترك الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذين صاموا رمضان عند أداء هذا الفرض الديني الواجب وحسب، بل شجعهم على ممارسة عبادة الصيام بعد الانتهاء من فرحتهم بالإفطار يوم عيد الفطر، وذلك على سبيل التطوع، دون الإلزام الذي خص الله به صيام رمضان، فالحديث أعلاه يشجع الصائمين على صيام جزء من شهر شوال، الذي يلي رمضان، من خلال الوعد بنيل ثواب صيام الدهر، لمن صام رمضان، وأتبعه ستة أيام من شوال، سواء صامها متتالية بعد العيد مباشرة، أم متفرقة خلال أيام الشهر، وعلى الرغم من العلم أن العبادة لا تعلل، إلا أن التدبر المشروع في حكمة الحث على صيام في شوال تطوعاً بعد الانتهاء من صوم فرض رمضان، يفسح المجال للتفكير بأن تربية المسلم على الاستقامة على العبادة، تقتضي منه تجاوز نطاق الواجبات والفرائض إلى النوافل والتطوع، حتى يبقى العباد على تواصل مع العبادات بمحض إرادتهم واختيارهم، فلا يكتفون بأداء الفرائض، ليقينهم بفضل أداء النوافل، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللهَ قال: من عَادَى لي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إليّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إليّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليّ بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ، الذي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي

* صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعاً لرمضان.

لأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)[1]

فعباد الله المخلصين يؤدون الفرض راغبين، ويسعون لأداء النوافل متطوعين، على أمل أن يرقوا في الدرجات، ونيل المزايا والهبات، التي من أسماها أن يشملهم الله بعين رعايته وتوفيقه، فيسدد خطاهم، ويحمي كيانهم، ويلبي دعاءهم، وقد أصاب الشاعر إذ قال:

وإذا العنايــة لاحظتــك عيونُهــا ... لا تخَــش من بــأسٍ فأنــت تصانُ

وبــكلّ أرضٍ قــد نزلــت قفارها ... نم فالمخــاوف كلّهــنَّ أمــانُ

واصطد بهــا العنقاء فهــي حبائلٌ ... واطعــن بهــا الأعداء فهي ســنان

وافتــح كنوز الأرض فهــي غرائمٌ ... واقتــد بهــا الجــوزاء فهــي عنان

كما أصاب الشاعر الآخر الذي قال:

إِذَا لم يَكُنْ عَونٌ مِنَ اللهِ لِلفَتى ... فَأَوّلُ مَا يَجنِي عَلَيهِ اجتِهَادُهُ

نموذج الرعاية الربانية لعباده المصطفين:

طوبى لمؤدي الفرائض، والمتطوعين بالنوافل، طوبى لهم، وحسن مقام، طوبى لهم أن يُصنعوا على عين الله، كما وعد كليمه موسى، عليه السلام، قائلاً: {...وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}[2].

ومعنى {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} أي تربى، ويحسن إليك بمرأى مني وحفظ.[3]

وقصة موسى، عليه السلام، فيها من البراهين الساطعة على ثمار الرعاية الربانية، التي

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.
2. طه: 39.
3. التسهيل لعلوم التنزيل، 3/ 13.

حين يحظى بها امرؤ أو جماعة، فإن أحوالهما تتبدل عجباً، ألم تروا كيف رجع موسى بعد أن قذفته أمه في البحر هرباً من بطش فرعون إلى حضنها وكنفها بأمر فرعون، ثم هيأ الله له السبل ليتربى في قصر فرعون، ليكون له عدواً وحزناً، مصداقاً لقوله تعالى: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ...}[1]

فلا عجب أن يعد الله المتقربين له بالنوافل بعد أدائهم الفروض بأن يكون الراعي لسمعهم وأبصارهم، وبطشهم بأيديهم وأرجلهم، كيف لا؟! وفي عقيدة المسلم أن سداده لا يكون إلا بتوفيق ربه، مصداقاً لقوله جل شأنه: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ رَمَى ...}[2].

الاستقامة على العبادة:

نذكر بالنفحات سالفة الذكر المسلمين والمسلمات، الذين انتهوا لتوهم من أداء ركن مهم من أركان إسلامهم، فصاموا رمضان، وها هم مقبلون على صيام التطوع من شوال، عسى أن يفوزوا بثواب صيام الدهر الذي وعدوا، بخلاف الذين صاموا رمضان، وصلوا التراويح، وقرأوا القرآن، وصلوا الخمس، وشدوا الرحال إلى المسجد الأقصى، وبذلوا الصدقات بسخاء في رمضان، ثم انقطعوا عن هذه العبادات أو بعضها، وفترت هممهم عن أداء واجبات فرضها الله عليهم في رمضان، وغيره من شهور العام، كأداء الصلاة، التي كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً في شهور العام جميعها، لا شك أن الذين أدوا العبادات في

1. القصص: 8.
2. الأنفال: 17.

رمضان فيهم خير، لكن عليهم أن يستثمروه لينمو سنابل عطاء ورضوان طوال حياتهم، فالأعمار قصيرة، فهنيئاً لمن اصطحب فيها الطاعات، ورافق القربات، حتى إذا ما كان الرحيل عن هذه الغابرة، وهو حتماً سيكون، طال الزمن أم قصر، كان من أهل الطمأنينة، الذين خاطب جل في علاه أنفسهم، فقال: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً* فَادْخُلِي فِي عِبَادِي*وَادْخُلِي جَنَّتِي}[1]

وفي هذا المقام يحسن إجمال التذكير ببعض ما ينبغي المحافظة على التواصل معه من العبادات بعد رمضان.

المحافظة على الصلة بالقرآن:

صحيح أن للقرآن الكريم صلة وثيقة بشهر رمضان، ففيه أُنزل، وفي الحديث الصحيح (وكان جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ في كل لَيْلَةٍ من رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ)[2]، إلا أن التواصل مع القرآن تلاوة وتدارساً وحفظاً وعملاً بمقتضاه، لا ينحصر بزمن دون آخر، بل إن **القرآن** الكريم نفسه نزل فيه شكوى الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى ربه من هجر **الناس** له، وإعراضهم عنه، فقال جل شأنه: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً}[3].

يقول ابن كثير في المراد من هجر القرآن هنا: إن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن، ولا يستمعون له، وكانوا إذا يتلى عليهم أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتى لا يسمعونه، فهذا

1. الفجر:27 - 30.
2. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة.
3. الفرقان: 30.

من هجرانه، وترك الإيمان به، وترك تصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به، وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر، أو قول، أو غناء، أو لهو، أو كلام، أو طريقة مأخوذة من غيره، كل ذلك من هجرانه، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء أن يخلصنا مما يسخطه، ويشغلنا فيما يرضيه من حفظ كتابه، وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل، وأطراف النهار، على الوجه الذي يحبه، ويرضاه، إنه كريم وهاب.[1]

المحافظة على شد الرحال إلى المسجد الأقصى المبارك والمرابطة فيه:

المسلمون من مختلف الأراضي الفلسطينية انتهزوا فسحة السماح لهم بشد الرحال إلى المسجد الأقصى المبارك، فتقاطروا من كل حدب وصوب، شيباً وشباناً إلى مسرى نبيهم، صلى الله عليه وسلم، وقبلتهم الأولى، تلهج قلوبهم ناطقة، لبيك رسول الله، لبيك أقصاه، مستجيبين بذلك إلى الحث النبوي على شد الرحال إليه، حيث قال، صلى الله عليه وسلم: (لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ؛ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ، صلى الله عليه وسلم، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى)[2]

والحشود التي شدت الرحال إلى المسجد الأقصى، أطلقت رسالة تذكيرية واضحة لا لبس فيها، أن المسجد الأقصى في قلوب المسلمين، وفي صلب عقيدتهم، التي ربط فيها الله المسجد الأقصى بالمسجد الحرام، ربطاً وثيقاً لا انفصام له، شاء من شاء، وأبى من أبى، فالأقصى

1. تفسير ابن كثير، 3/ 318.
2. صحيح البخاري، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

لنا، وما يمنعنا عنه سوى حواجز الظالمين، وإليه ينبغي أن يصبو المسلمون في أنحاء الدنيا، ولا يُقبل منا ولا منهم هجر التواصل معه، وإنما يجب الحفاظ عليه، وإعماره في رمضان وغيره، ما دام الدم في عروقنا ينبض، وما دمنا نؤمن بالله وقرآنه وأنبيائه، وحقوقنا المشروعة فيه.

سائلين الله العلي القدير أن يثبت قلوبنا على الإيمان، وأن لا يزيغها عنه، على أمل أن ييسر الله مواصلة الحديث عن لفت الانتباه إلى أهمية الاستقامة على عبادة الله، وديمومتها في الحلقة القادمة، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى الدين.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
يلفت الانتباه إلى أهمية الاستقامة على عبادة الله وديمومتها
الحلقة الثانية والأخيرة

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم: (كان يَحْتَجِرُ حَصِيرًا بِاللَّيْلِ، فَيُصَلِّي عليه، وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ، فَيَجْلِسُ عليه، فَجَعَلَ الناس يَثُوبُونَ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فَيُصَلُّونَ بِصَلاتِهِ، حتى كَثُرُوا، فَأَقْبَلَ، فقال: يا أَيُّهَا الناس؛ خُذُوا من الْأَعْمَالِ ما تُطِيقُونَ، فإن اللهَ لا يَمَلُّ، حتى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إلى اللهِ ما دَامَ، وَإِنْ قَلَّ)(*)

تواصلاً مع ما تم عرضه في الحلقة السابقة من بيّان لفضل إتباع صيام فرض رمضان بصيام ستة أيام من شوال الذي يليه، فمن يوفق لذلك يحوز ثواب صيام الدهر، ومن الاستنتاجات المستنبطة من هذا الوعد النبوي، أن يبقى العباد على تواصل مع العبادات بمحض إرادتهم واختيارهم، فلا يكتفون بأداء الفرائض، ليقينهم بفضل أداء النوافل، وليعلم القائمون بالفرائض أن واجبهم نحوها لا يقتصر على مواسم معينة، فالله جل في علاه، نعبده بصيام رمضان، ونعبده في أيام العام كلها؛ بأداء الصلاة اليومية وغيرها من العبادات، فليس أمام المسلم فسحة لأخذ إجازة مزاجية عن أداء العبادة، وفي الحديث أعلاه توجيه للمسلمين إلى المحافظة على أداء العبادة لله، بالقدر الذي يستطيعون ويطيقون، فالاندفاع المتحمس للإكثار من التعبد في فترات الحماسة، ثم الانقطاع عنها بعد فتور الهمة، ليس محبذاً، إذ إن أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إلى اللهِ ما دَامَ وَإِنْ قَلَّ.

التواصل المعتدل مع العبادة:

المسلم يحافظ على تواصل معتدل مع العبادة، ومتابعة لما تم التذكير به في الحلقة السابقة من العبادات التي ينبغي للمسلم العابد المحافظة على التواصل معها بعد رمضان، حيث تم

* صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه.

لفت الأنظار إلى قضيتي المحافظة على الصلة بالقرآن، والمحافظة على شد الرحال إلى المسجد الأقصى والمرابطة فيه، فالذي كان في رمضان من إقبال المسلمين تجاه هاتين القضيتين يبشر بخير، وحتى يدوم التواصل معهما على الوجه الذي يرضي الله تعالى أولاً، ويحقق الإنجازات المطلوبة لهما، يجدر الإبقاء على جذوة التواصل معهما دون انقطاع، وبخاصة أنهما من قضايا العقيدة الدينية والعبادات الشرعية، والمطلوب نحوهما واجب دائم، وحرارة متقدة تأبى الفتور والانطفاء، ومن القضايا الجديرة بالاهتمام في رمضان وغيره، الصلاة، التي هي عمود الدين.

المحافظة على الصلاة:

من أبرز الأمور التي ينبغي للمسلم الحرص على المحافظة عليها في المواسم والأوقات جميعها الصلاة، التي هي عمود الدين، وقد أثنى الله على المحافظين على صلاتهم، فقال جل شأنه: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}[1]، وجاء ذكر الصلاة هنا مجموعة، وفي سورة المعارج ذكرت الصلاة مفردة في سياق الثناء على المحافظين عليها، فقال تعالى:{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}[2]، وكذلك في سورة الأنعام، حيث قال جل شأنه: {...وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ}[3]، وأثنى الله كذلك على الذين هم على صلاتهم دائمون، فقال عز وجل: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} [4]، وتنوع صيغة ذكر الصلاة بين المفرد والجمع، يشير والله أعلم إلى تميز المؤمنين الصالحين بالمحافظة على جنس الصلاة، إلى جانب حرصهم على المحافظة على أداء الصلوات جميعها، دون تفريط.

فالمسلم يحرص على أن يكون من المحافظين على أداء الصلاة في وقتها الموقوت، ويدوم على ذلك، أما التهاون في أداء الصلاة، والتكاسل تجاه هذا الواجب، فهو من المذمومات،

1. المؤمنون: 9.
2. المعارج: 34.
3. الأنعام: 92.
4. المعارج: 23.

التي قبحها الله، فقال تعالى: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}[1]، ونسب الله الكسل في أداء الصلاة إلى أفعال المنافقين، فقال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً}.[2]

فعلى الذي حافظ على أداء الصلاة في رمضان أن يواصل أداءها بعده، حتى يربأ بنفسه أن يكون من المنافقين، أو الذين توعدهم الله بالويل لسهوهم عن صلاتهم، وتهاونهم في أدائها على وقتها.

عبادة الله غاية الخالق من الخلق:

من فضل العبادة بالعموم، أنها الغاية التي خلق الله الخلق لأجلها، مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ}[3]، وبمقتضى ذلك صدر الأمر الإلهي للناس أجمعين بعبادة الله، فقال عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[4]، وتكرر ورود الأمر بعبادة الله في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، فقال تعالى: {فَاسْجُدُوا لِلهِ وَاعْبُدُوا}[5]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.[6]

والأنبياء عموماً خاطبوا أقوامهم بعبادة الله، فقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}[7]

وعن إبراهيم، عليه السلام، أنه أمر قومه بعبادة الله، يقول جل ذكره: {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ

1. الماعون: 4 – 5.
2. النساء: 142.
3. الذاريات: 56.
4. البقرة: 21.
5. النجم: 62.
6. الحج: 77.
7. النحل: 36.

لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [1]

وتكرر في سورتي الأعراف وهود ذكر خطاب بعض الأنبياء إلى أقوامهم، المتضمن الأمر بعبادة الله، كما في خطاب نوح، وهود، وصالح، وشعيب، عليهم السلام، فعن نوح وقومه يقول سبحانه: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}[2].

وفي سورة المؤمنون، يقول تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ}[3]

وعن هود وقومه عاد، يقول تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} [4]، وفي سورة هود، يقول تعالى:{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ}[5]

وعن صالح وقومه ثمود، يقول سبحانه: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[6]، وفي سورة هود، يقول تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ}[7]

وعنه وقومه جاء في سورة النمل: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ}[8]

1. العنكبوت: 16.
2. الأعراف: 59.
3. المؤمنون: 23.
4. الأعراف: 65
5. هود: 50.
6. الأعراف: 73.
7. هود: 61.
8. النمل: 45.

وعن شعيب وأهل مدين يقول سبحانه: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[1]، وفي سورة هود، يقول تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ}[2]، وفي سورة العنكبوت، يقول تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[3]

يلاحظ المتدبر في الآيات القرآنية سالفة الذكر، تكرر مطالبة الرسل، عليهم السلام، لأقوامهم بأن يعبدوا الله، فهي قضية مشتركة بينهم، وهدف عام اجتمعت عليه دعوة الأنبياء والرسل، عليهم السلام، عبر الزمان والمكان، انسجاماً مع الغاية التي خلق الله عز وجل الخلق لأجلها.

سائلين الله العلي القدير أن يثبت قلوبنا على الإيمان، وأن لا يزيغها عنه، وأن يجعلنا من عباده المخلصين، الذين عرفوا طريقهم إليه والتزموه، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. الأعراف: 85.
2. هود: 84.
3. العنكبوت: 36.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يعنى بتهذيب سلوك الصائم

الحلقة الأولى

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (من لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ). [1]

الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه الشريف هذا، يربط ثواب الصيام وقبوله من صاحبه بتركه سلوكاً سيئاً، يتعلق بقول الزور والعمل به، ومعلوم أن إثم هذا السلوك المشين عظيم، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قُلْنَا: بَلَى يا رَسُولَ اللهِ، قال: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وكان مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فقال: ألا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، ألا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فما زَالَ يَقُولُهَا حتى قلت لَا يَسْكُتُ)[2]

ولا ينحصر ربط قبول العبادة، ومنها الصيام بالتخلي عن هذا السلوك وحده، بل المراد أعم من ذلك، فكل سلوك قويم ينسجم مع روح العبادة، يُقبل صدوره ممن يؤديه، ويجلب له مزيداً من الثواب، ورفع المكانة، بخلاف مثالب السلوك وخطاياه، فإنها تحبط عمل صاحبها، وتضيع ثواب تعبده، بسبب ممارسة سلوك نهى الله عنه، سواء أكان قولياً أم عملياً، فخطايا سلوك العابد تتناقض مع حسن التقرب إلى الله تعالى بالعبادة، التي تجلب لصاحبها في الأصل المصالح والمنافع في داريه. أما الله جل في علاه، فليس له حاجة في إمساك عبده عن الطعام والشراب؛ انصياعاً لأمر الله بالصيام، فالله غني عن العباد، لا تزيد الطاعات في ملكه شيئاً، ولا تنقص المعاصي منه شيئاً، مصداقاً لما جاء في الحديث القدسي، عن أبي ذَرٍّ، عن

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر.

النبي، صلى الله عليه وسلم، فِيمَا رَوَى عن اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قال: (...يا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يا عِبَادِي، لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، ما زَادَ ذلك في مُلْكِي شيئاً، يا عِبَادِي؛ لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، ما نَقَصَ ذلك من مُلْكِي شيئاً، يا عِبَادِي؛ لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلك مِمَّا عِنْدِي إلا كما يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يا عِبَادِي؛ إنما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غير ذلك، فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ). [1]

كيفية نيل الله التقوى من العباد:

لما أمر الله بتقديم الهدي من الأنعام لبيته الحرام في الحج، نبه سبحانه إلى أنه ليس بحاجة إليه، وإنما المراد أن يعبر هذا الإهداء عن استقامة الحاج على دين الله، فقال عز وجل: {فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ* الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ...}[2]

فقد ربط الله جل شأنه كثيراً من الشعائر التعبدية بالتقوى وسلوكات العابدين، فمن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ، وَبَشّر الله الْمُخْبِتِينَ أصحاب القلوب الوجلة، الصابرين المصلين المنفقين، مطعمي المحتاجين من لحوم هديهم، وأضاحيهم، وذبائحهم، التي يتقربون إلى الله بذبحها، والتصدق بلحومها، مع التنبيه إلى أن تلك اللحوم لا ينالها الله، وإنما يناله التقوى من مقدميها، حيث قال تعالى: {لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.
2. الحج: 34 - 36.

يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ}[1]، وفي التفسير؛ أن المراد بالشعائر أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها، وقوله تعالى: {لن ينال الله لحومها ولا دماؤها}؛ أي ليس المقصود منها ذبحها فقط، ولا ينال الله من لحومها ولا دمائها شيء؛ لكونه الغني الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها، والاحتساب والنية الصالحة، ولهذا قال تعالى: {ولكن يناله التقوى منكم}، ففي هذا حث وترغيب على الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه الله وحده، لا فخراً ولا رياءً ولا سمعةً، ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات، إن لم يقترن بها الإخلاص، وتقوى الله، كانت كالقشر الذي لا لب فيه، والجسد الذي لا روح فيه.[2]

تقوى الصائمين:

التعقيب الرباني الذي ختمت به آية سورة البقرة، التي فرض الله فيها الصيام على المؤمنين، يتقاطع مع ربط العبادة بالتقوى المعبرة عن سلوك العابد، فهو جدير بالتدبر، والتفكير، واستخلاص الدروس والعبر، فالله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[3]

فحصول التقوى من أداء فرض الصيام أمر مرجو ومستهدف، وهذا دون ريب رباط وثيق بين العبادة، وسلوك العابد، فالصيام عبادة بدنية، والتقوى جامعة لمكونات اعتقادية وسلوكية، تشمل أنماطاً عديدة منها، فالتقوى كما عرفها الإمام علي، رضي الله عنه، هي: العمل بالتنزيل، والخوف من الجليل سبحانه، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.[4] والتقوى صلتها بالسلوك وثيقة، فهي ترتبط ببواعثه، وشكله وأنواعه وأهدافه، ومن المحال

1. الحج: 37.
2. تفسير السعدي، 1/ 538 - 539.
3. البقرة: 183.
4. شرح العقيدة الطحاوية، 1 /1675.

أن يكون التعقيب على الأمر بالصيام على هذا النحو (لعلكم تتقون) محض صدفة، ومن الوجوه التي ذكرها الرازي في تفسير هذه العبارة القرآنية هنا، أنه سبحانه بين بهذا الكلام أن الصوم يورث التقوى؛ لما فيه من انكسار الشهوة، وانقماع الهوى، فإنه يردع عن الأشر والبطر، والفواحش، ويهون لذات الدنيا، ورياستها، وذلك لأن الصوم يكسر شهوة البطن والفرج، وإنما يسعى الناس لهذين كما قيل في المثل السائر: (المرء يسعى لعارية بطنه وفرجه) فمن أكثر الصوم، هان عليه أمر هذين، وخفت عليه مؤنتهما، فكان ذلك رادعاً له عن ارتكاب المحارم والفواحش، ومهوناً عليه أمر الرياسة في الدنيا، وذلك جامع لأسباب التقوى، فيكون معنى الآية، فرضت عليكم الصيام، لتكونوا به من المتقين، الذين أثنيت عليهم في كتابي، وأعلمت أن هذا الكتاب، هدى لهم، ولما اختص الصوم بهذه الخاصية حسن منه تعالى، أن يقول عند إيجابها: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}(*)

ربط المثوبة بسلوك العابد:

الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يربط المثوبة بكثرة العبادة، بقدر ما ربطها بسلوك العابد، الذي منه التحلي بالصدق، ويتضح هذا الربط بجلاء في حديث الأعرابي الذي سأل عن الفرائض، ووعد أنه لن ينقص منها، ولن يزيد عليها، كما جاء في الحديث الصحيح، عن طَلْحَةَ بن عُبَيْدِ اللهِ: (أَنَّ أَعْرَابِيًّا جاء إلى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، ثَائِرَ الرَّأْسِ، فقال: يا رَسُولَ اللهِ؛ أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ الله عَلَيَّ من الصَّلَاةِ؟ فقال: الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ إلا أَنْ تَطَّوَّعَ شيئاً، فقال: أَخْبِرْنِي بما فَرَضَ الله عَلَيَّ من الصِّيَامِ؟ فقال: شَهْرَ رَمَضَانَ، إلا أَنْ تَطَّوَّعَ شيئاً، فقال: أَخْبِرْنِي ما فَرَضَ الله عَلَيَّ من الزَّكَاةِ؟ فقال: فَأَخْبَرَهُ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ، قال: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ لَا أَتَطَوَّعُ شيئاً، ولا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ الله عَلَيَّ

* التفسير الكبير، 5 /60.

شيئاً، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَفْلَحَ إن صَدَقَ، أو دخل الْجَنَّةَ إن صَدَقَ)[*].

وقد يكون من المفضل مع بداية شهر رمضان المبارك، اختيار موضوع العناية بتهذيب سلوك الصائم، الذي نسأل الله العلي القدير أن يوفق وييسر لاستنباط المزيد من الدروس التهذيبية من قضاياه وجوانبه في الحلقة القادمة، بهدف تذكير الصائمين الكرام بأن لا يغفلوا عن حقيقة الربط الدائم بين العبادة وسلوكهم في شتى النواحي، سواء في علاقاتهم مع المقربين منهم من آباء وأمهات وأزواج وأبناء وإخوة وعشيرة، أم في علاقاتهم مع الآخرين من الأقربين والأبعدين، المعادين والمسالمين، فالعلاقات كلها ينبغي أن تكون وفق شرع الله القويم، الذي نزل به الروح الأمين على قلب خاتم النبيين والمرسلين، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب وجوب صوم رمضان.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
يعنى بتهذيب سلوك الصائم
الحلقة الثانية والأخيرة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فلا يَرْفُثْ ولا يَجْهَلْ، وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ، أو شَاتَمَهُ، فَلْيَقُلْ: إني صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ، وَالَّذِي نَفْسِي بيده، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى من رِيحِ الْمِسْكِ، يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ من أَجْلِي، الصِّيَامُ لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا)(*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى مسألة ربط قبول العبادة، ومنها الصيام بالتخلي عن مثالب السلوك وخطاياه، فإنها تحبط عمل صاحبها، وتضيع ثواب تعبده، بسبب ممارسة سلوك نهى الله عنه، سواء أكان قولياً أم عملياً، فخطايا سلوك العابد تتناقض مع حسن التقرب إلى الله تعالى بالعبادة، التي تجلب لصاحبها في الأصل المصالح والمنافع في داريه. وأجابت تلك الحلقة عن كيفية نيل الله التقوى من العباد، فالله جل في علاه، ليس له حاجة في إمساك عبده الصائم عن الطعام والشراب؛ وأمر بتقديم الهدي من الأنعام لبيته الحرام في الحج، ليعبر هذا الإهداء عن استقامة الحاج على دين الله، وربط الله جل شأنه، كثيراً من الشعائر التعبدية بالتقوى وسلوكات العابدين، والتعقيب الرباني الذي ختمت به آية سورة البقرة، التي فرض الله فيها الصيام على المؤمنين، يتقاطع مع ربط العبادة بالتقوى المعبرة عن سلوك العابد، فهو جدير بالتدبر، والتفكر، واستخلاص الدروس والعبر، فحصول التقوى من أداء فرض الصيام أمر مرجو ومستهدف، وهذا دون ريب رباط وثيق بين العبادة وسلوك العابد، والرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يربط المثوبة بكثرة العبادة، بقدر ما ربطها بسلوك العابد، الذي منه التحلي بالصدق، ويتضح هذا الربط بجلاء في حديث الأعرابي الذي سَأل

* صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم.

عن الفرائض، ووعد أنه لن ينقص منها، ولن يزيد عليها.

سلوكات ممنوعة على الصائم:

حديث أبي هُرَيْرَة، رضي الله عنه، أعلاه، يؤكد متانة الصلة بين الصيام، وتهذيب سلوك الصائم، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، حرص على بيان ذلك من خلال توضيح أن الصيام جُنّة؛ أي وقاية وسترة، قيل من المعاصي؛ لأنه يكسر الشهوة ويضعفها، ولذا قيل إنه لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين. وقيل: جُنّة من النار، وبه جزم ابن عبد البر؛ لأنه إمساك عن الشهوات، والنار محفوفة بها. [1]

فالأصل في الصيام أن يهذب النفس وشهواتها، ويقيها من اقتراف السلوك السيئ، لينجو صاحبه بهذا التهذيب من النار، ويفوز بالجنة، استجابة للأمر الإلهي الوارد في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}. [2]

وبالتأكيد فإن تهذيب سلوك الصائم عن الفواحش والآثام، يقود إلى الوقاية من النار، ويندرج ضمن فعاليات الاستجابة الإيجابية لله ورسوله، صلى الله عليه وسلم.

ربط أحكام الصيام بضوابط سلوكية:

من الآيات القرآنية الكريمة التي تضمنت عرض أحكام الصيام ومتعلقاته، قوله عز وجل:{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا

1. شرح الزرقاني، 2 /262.
2. التحريم: 6.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[1]

فالله جل شأنه حين بين بعض الأحكام المتعلقة بالصيام في هذه الآية الكريمة، ربطها بمسائل سلوكية، مثل مسألة الرفث إلى النساء، والمراد به في الآية المباشرة بالجماع ومقدماته[2]، ومن تلك المسائل، الحديث عن حالة الاندماج البدني والنفسي والعاطفي والغرائزي بين الزوجين، والتي عبر عنها بقوله تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ} ومراعاة الاحتياج المتبادل بين الزوجين، كل منهما للآخر، حيث شرع الله من أحكام الصيام وليلته ما يكفل التجاوب مع هذا الاحتياج، دون الحاجة إلى المخاتنة، فأباح المعاشرة بين الزوجين ليلة الصيام، من بعد غروب الشمس حتى بزوغ الفجر، ثم يحدث الإمساك عنها، كما يحدث مع تناول الطعام، واحتساء الشراب، ووضع الله قيداً آخر للمعاشرة الليلية، بأن لا تحدث خلال أداء سنة الاعتكاف، وهو في اللغة ملازمة المرء للشيء، وحبس نفسه عليه، براً كان أو إثماً، قال تعالى: {يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ}[3]، والاعتكاف الشرعي المكث في بيت الله تقرباً إليه، قال الله تعالى: {...طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ}[4].

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: {وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} فمنهم من حمله على كل المباشرات، ولم يقصره على الجماع، والأقرب عند الرازي أن لفظ المباشرة لما كان مشتقاً من تلاصق البشرتين، لم يكن مختصاً بالجماع، بل يدخل فيه الجماع فيما دون الفرج، وكذا المعانقة والملامسة، إلا أنهم إنما اتفقوا في هذه الآية على أن المراد به هو الجماع؛ لأن السبب في هذه الرخصة، كان وقوع الجماع من القوم، ولأن الرفث المتقدم ذكره لا يراد به إلا الجماع، إلا أنه لما كانت إباحة الجماع، تتضمن إباحة ما دونه، صارت

1. البقرة:187.
2. أضواء البيان، 5/ 13.
3. الأعراف: 138.
4. البقرة: 125.

إباحته دالة على إباحة ما عداه، فصح ها هنا حمل الكلام على الجماع فقط، ولما كان منع الجماع في الاعتكاف، لا يدل على المنع مما دونه، صلح اختلاف المفسرين فيه.[1]

ونبه سبحانه إلى أن هذه الأحكام هي جزء من حدود الله، التي يحرم انتهاكها، أي تلك الأشياء التي منعتم عنها، إنما منعتم عنها بمنع الله، ونهيه عنها، فلا تقربوها.[2]

والعجيب أن هذه الآية المفصلة لبعض أحكام الصيام وليلته، ختمت بما ختمت به الآية الكريمة، التي تضمنت النص على فرض الصيام على المؤمنين، فقال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [3]، لكن الفرق بين الموضعين، أن الخطاب في آية فرض الصيام كان موجهاً للمؤمنين، فكان التنبيه في أعقابه إلى رجاء تحقق التقوى منهم، بينما في الآية السالفة، التي بينت بعض أحكام الصيام وليلته، كان التعقيب موجهاً للناس، برجاء تحقق التقوى لهم، فقال عز وجل: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}.

إخفاء علم موعد ليلة القدر:

ربط الرسول، صلى الله عليه وسلم، سبب إخفاء العلم الجازم، والقاطع بموعد ليلة القدر، بحدث سلوكي، فعن أَنَس، قال: أخبرني عُبَادَةُ بن الصَّامِتِ، (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، خَرَجَ يُخْبِرُ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلاحَى رَجُلانِ من الْمُسْلِمِينَ، فقال: إني خَرَجْتُ لأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَإِنَّهُ تَلاحَى فُلانٌ وَفُلانٌ، فَرُفِعَتْ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، الْتَمِسُوهَا في السَّبْعِ، وَالتِّسْعِ وَالْخَمْسِ)[4]

أدرج البخاري هذا الحديث في صحيحه، في كتاب فضل ليلة القدر، تحت بَاب رَفْعِ مَعْرِفَةِ

1. التفسير الكبير،5/ 92.
2. التفسير الكبير، 5/ 99.
3. البقرة: 183.
4. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

لَيْلَةِ الْقَدْرِ لِتَلاحِي الناس؛ أي بسبب تلاحي الناس، وقوله فتلاحى رجلان، كان لأحدهما دين على الآخر، فطلبه، فتنازعا فيه، ورفعا صوتيهما في المسجد، فرفع بيان موعد ليلة القدر، أو علمها، وإلا فهي باقية إلى يوم القيامة(*)، فبعض السلوكات التي صدرت من بعض الصحابة تسببت في حجب العلم القاطع، بموعد ليلة القدر عن الناس.

راجين الله أن يوفق قارئي هذه السطور وما سبقها من الصائمين الكرام، وغيرهم إلى استنباط أهمية الربط الدائم بين العبادة وسلوك العابدين في شتى النواحي، سواء في علاقاتهم مع المقربين منهم، من آباء، وأمهات، وأزواج، وأبناء، وإخوة، وعشيرة، أم في علاقاتهم مع الآخرين من الأقربين والأبعدين، المعادين والمسالمين، فالعلاقات كلها ينبغي أن تكون وفق شرع الله القويم، الذي نزل به الروح الأمين، على قلب خاتم النبيين والمرسلين، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* عمدة القاري، 1 /281.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

كان كالريح المرسلة في رمضان

عن ابْن عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَجْوَدَ النَّاسِ بِالخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ، عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ، حَتَّى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، القُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، كَانَ أَجْوَدَ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ)[1]

يصف الصحابي الجليل عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، في هذا الحديث الشريف جود النبي، صلى الله عليه وسلم، في رمضان، مما يدل على أن لرمضان خصوصية وتميزاً في الفضل والعطاء، فهو إلى جانب ما فيه من ثواب الصيام والقيام، ومضاعفة حسنات الأعمال، فيه أيضاً حرص على تقديم المزيد من الطاعة، التي كان عليه الصلاة والسلام خير أسوة في مضاعفة البذل لها فيه، سواء على مستوى الصلاة، أم الصدقات، أم أشكال الإحسان الأخرى، وحسب الحديث أعلاه يتبين أن جود النبي، صلى الله عليه وسلم، تميز بخصيصتين، إحداهما، أنه كان في الأحوال جميعها أجود الناس، والثانية أن جوده صلى الله عليه وسلم في رمضان شبه بالريح المرسلة.

أجود الناس:

جود النبي، صلى الله عليه وسلم، في الأحوال جميعها يفوق على جود الناس جميعهم، فهو حسب وصف حبر الأمة، رضي الله عنه، أجود الناس، ومعنى أجود الناس أي أكثرهم كرماً، ويؤكد هذا التميز بهذه الصفة الكريمة المحمودة، حديث خادمه، أنس بن مالك، رضي الله عنه، الذي وصف الرسول، صلى الله عليه وسلم، فقال: (كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَحْسَنَ الناس، وكان أَجْوَدَ الناس، وكان أَشْجَعَ الناس)[2]

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب أجود ما كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يكون في رمضان.
2. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في شجاعة النبي، عليه السلام، وتقدمه للحرب.

الجود في رمضان:

كثير من الناس يخرجون زكاة أموالهم في رمضان، رغبة في مضاعفة ثوابها في هذا الشهر المبارك، إضافة إلى إخراج صدقة الفطر، التي فرضها الله على أشخاص المسلمين كافة، صغارٍ وكبارٍ، بغض النظر عن مستويات معيشتهم، وأحوالهم الاقتصادية والمعيشية، وغالباً ما يكون المسلمون في هذا الشهر متحفزين للبحث عن الفقراء والمحتاجين والأرحام؛ ليقدموا لهم الصدقات النقدية والعينية، ويجودون عليهم مما تفضل الله به عليهم من نعيم وخيرات، أسوتهم في ذلك الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي يصف ابن عباس جوده في رمضان، بأنه كان كالريح المرسلة، ويذكر ابن حجر أن التقدير: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مدة كونه في رمضان أجود منه في غيره.

ومعنى قوله: (كالريح المرسلة)؛ أي المطلقة، يعني أنه في الإسراع بالجود أسرع من الريح، وعبر بالمرسلة إشارة إلى دوام هبوبها بالرحمة، وإلى عموم النفع بجوده، كما تعم الريح المرسلة جميع ما تهب عليه.[1]

ويروي ابن حجر، عن الزين بن المنير، ذكره وجه التشبيه بين أجوديته، صلى الله عليه وسلم، بالخير، وبين أجودية الريح المرسلة، أن المراد بالريح ريح الرحمة، التي يرسلها الله تعالى لإنزال الغيث العام، الذي يكون سبباً لإصابة الأرض الميتة وغير الميتة؛ أي فيعم خيره وبره من هو بصفة الفقر، والحاجة، ومن هو بصفة الغنى والكفاية، أكثر مما يعم الغيث الناشئة عن الريح المرسلة.[2]

1. فتح الباري، 1/ 31.
2. فتح الباري، 4/ 116.

فوائد ولطائف من الحديث أعلاه:

يستنبط النووي، رحمه الله تعالى، من هذا الحديث فوائد، منها بيان عظم جوده، صلى الله عليه وسلم، ومنها استحباب إكثار الجود في رمضان، ومنها زيادة الجود والخير عند ملاقاة الصالحين، وعقب فراقهم، للتأثر في لقائهم، ومنها استحباب مدارسة القرآن.[1]

ومن الفوائد واللطائف التي استنتجها ابن حجر العسقلاني من حديث ابن عباس المثبت نصه أعلاه، أن في قوله: (أجود بالخير من الريح المرسلة) فيه جواز المبالغة في التشبيه، وجواز تشبيه المعنوي بالمحسوس ليقرب فهم سامعه، وذلك أنه أثبت له أولاً وصف الأجودية، ثم أراد أن يصفه بأزيد من ذلك، فشبه جوده بالريح المرسلة، بل جعله أبلغ في ذلك منها؛ لأن الريح قد تسكن.

وفيه الاحتراس؛ لأن الريح منها العقيم الضارة، ومنها المبشرة بالخير، فوصفها بالمرسلة ليعين الثانية، وأشار إلى قوله تعالى:{وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ...}[2]

فالريح المرسلة تستمر مدة إرسالها، وكذا كان عمله، صلى الله عليه وسلم، في رمضان دائماً لا ينقطع.

وفيه استعمال أفعل التفضيل في الإسناد الحقيقي والمجازي؛ لأن الجود من النبي، صلى الله عليه وسلم، حقيقة، ومن الريح مجاز، فكأنه استعار للريح جوداً باعتبار مجيئها بالخير، فأنزلها منزلة من جاد.

وفي تقديم معمول أجود على المفضل عليه نكتة لطيفة، وهي أنه لو أخره لظن تعلقه بالمرسلة، وهذا وإن كان لا يتغير به المعنى المراد بالوصف من الأجودية، إلا أنه تفوت فيه المبالغة؛ لأن المراد وصفه بزيادة الأجودية على الريح المرسلة مطلقاً.[3]

1. صحيح مسلم بشرح النووي، 15/ 69.
2. الأعراف:57.
3. فتح الباري، 9/ 45 - 46.

الجود النبوي ينسجم مع مضاعفة ثواب الإنفاق في سبيل الله:

تتعدد النصوص الشرعية من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة الواردة في الحث على الإنفاق في سبيل الله تعالى، وبيان ثواب المنفقين، ومضاعفة أجورهم، فالله يضاعف الحسنة إلى عشرة أضعاف، وإلى سبعمائة ضعف، بل وإلى أضعاف كثيرة، فقال تعالى: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [1]

فالدينار الذي ينفق في سبيل الله ينمو عند الله تعالى، ويتضاعف إلى دنانير، تصل إلى سبعمائة ضعف، كحبة القمح التي تلقى في الأرض فتنتج سبع سنابل، وليس سبع حبات فقط، مصداقاً لقوله تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [2]

وفرق بين الحبة والسنبلة، ومضاعفة أجر الحسنة بموجب الكرم الرباني، لا تقف عند حد المضاعفة إلى سبعمائة ضعف، حيث بين تعالى أنه يضاعفها إلى أكثر وأكثر، دون تحديد سقف لذلك، فعقب سبحانه على مضاعفة أجر الحسنة في الآية السالفة بقوله سبحانه: {وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}

ويفسر الرازي المراد بمضاعفة أجر الحسنة، فيقول: التضعيف والإضعاف والمضاعفة واحد، وهو الزيادة على أصل الشيء حتى يبلغ مثلين أو أكثر، وفي الآية حذف، والتقدير فيضاعف ثوابه، أما قوله تعالى: {أَضْعَافًا كَثِيرَةً} فمنهم من ذكر فيه قدراً معيناً، وهو المذكور في قوله تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ} [3]، فيقال يحمل المجمل على المفسر؛ لأن كلتا الآيتين وردتا في الإنفاق، ويمكن أن يجاب عنه بأنه تعالى لم يقتصر في هذه الآية على التحديد، بل قال بعده: {وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء} [4]

1. الأنعام: 160.
2. البقرة: 261.
3. البقرة: 261.
4. البقرة: 261.

والقول الثاني وهو الأصح – والله تعالى أعلم – واختيار السدي أن هذا التضعيف لا يعلم أحد ما هو، وكم هو، وإنما أبهم تعالى ذلك؛ لأن ذكر المبهم في باب الترغيب أقوى من ذكر المحدود.[1]

فكيف إذن يتعجب من كون الرسول، صلى الله عليه وسلم، أجود الناس، وهو المبلغ عن ربه هذه الآيات وأمثالها من الآيات القرآنية التي تحث على الإنفاق والإحسان، وتعد بمضاعفة أجور المنفقين والمحسنين، وقد بلّغ عن الله تعالى أيضاً قوله في الحديث القدسي: (أَنْفِقْ يا ابن آدَمَ، أُنْفِقْ عَلَيْكَ)[2].

وهو نفسه، صلى الله عليه وسلم يقول: (السَّاعِي على الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ في سَبِيلِ اللهِ، أو الْقَائِمِ اللَّيْلَ، الصَّائِمِ النَّهَارَ).[3]

ما سبق ذكره ليس سوى غيض من فيض الحث على الجود والإنفاق، الذي بلغ المؤمنون فيه درجات فائقة، فكان منهم الذي أنفق من قلّة، مؤثراً على نفسه رغم الخصاصة، أسوتهم أجود الناس، ومن كان كالريح المرسلة في رمضان، الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. التفسير الكبير، 6/ 143.
2. صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل.
3. التخريج نفسه.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
يبشر الصائمين بجوائزهم

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (يقول الله عز وجل: الصَّوْمُ لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ، وَأَكْلَهُ، وَشُرْبَهُ من أَجْلِي، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ؛ فَرْحَةٌ حين يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حين يَلْقَى رَبَّهُ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ من رِيحِ الْمِسْكِ)[1]

يخبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه هذا عن رب العزة سبحانه بشراه للصائمين، الذين استجابوا لأمره، فأمسكوا عن مفطرات مباحة لغير الصائمين، إيماناً واحتساباً وعملاً بمقتضى التكليف الرباني.

وامتثال الصائم للأمر بالصيام، قابله الله جل في علاه بجزاء وافر، تعددت صوره وأشكاله، التي منها إعلان الله عن توليه جزاء الصائمين بنفسه، وقوله في الحديث أعلاه: (الصَّوْمُ لي، وأنا أَجْزِي بِهِ) هو من كلام الله عز وجل، وهو من رواية النبي، صلى الله عليه وسلم، عن ربه عز وجل.[2]

وعن العيني أن قوله: (وأنا أجزي به) بيان لكثرة ثوابه؛ لأن الكريم إذا أخبر بأنه يتولى بنفسه الجزاء، اقتضى عظمته وسعته، وقال الكرماني: تقديم الضمير للتخصيص، أو للتأكيد والتقوية، ويرى العيني أن الكلام يحتملهما، لكن الظاهر من السياق الأول؛ أي أنا أجازيه لا غيري، بخلاف سائر العبادات، فإن جزاءها قد يفوض إلى الملائكة، وقد كثر القول في معنى: (الصَّوْمُ لي، وأنا أَجْزِي بِهِ)، وملخصه أن الصوم لا يقع فيه الرياء، كما يقع في غيره؛ لأنه لا يظهر من ابن آدم بفعله، وإنما هو شيء في القلب.[3]

1. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {يريدون أن يبدلوا كلام الله} (الفتح: 15).
2. فتح الباري: 10/ 369.
3. عمدة القاري: 10 /259.

فرحتا الصائم:

يبين الحديث أعلاه أن من جزاء الصائمين فرحهم فرحتان، إحداهما عند الفطر، والأخرى عند لقاء الله، ونيل جزائه، فقوله: (لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ؛ فَرْحَةٌ حين يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حين يَلْقَى رَبَّهُ) يدل على تمتع الصائم بفرحتين بسبب صيامه، إحداهما حين يفطر، وذلك يشمل الفطر بعد غروب شمس كل يوم يصوم العبد نهاره، ويشمل كذلك الانتهاء من صيام شهر رمضان، بدخول الأول من شوال، وهو يوم عيد الفطر، فبعد الطاعة لله، بالإمساك عن المفطرات، يطيع الصائم ربه بالإفطار، حيث يحرم الصيام يوم العيد، لنهيه صلى الله عليه وسلم، عن ذلك، بقوله: (ولا صَوْمَ فِي يَوْمَيْنِ؛ الْفِطْرِ، وَالْأَضْحَى)[1]، كما ورد النهي عن مواصلة الصيام دون إفطار، فعن عبد اللهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: (نهى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، عن الْوِصَالِ، قالوا: إِنَّكَ تُوَاصِلُ، قال: إني لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إني أُطْعَمُ وَأُسْقَى)[2].

والممنوع حين يرفع عنه الحظر، يبتهج ويفرح، فكيف إذا توج رفع الحظر بجزاء وليس أي جزاء، وإنما مثوبة من رب العالمين، الذي يطعم ويسقي، وفي فتح الباري، أن قوله يفرحهما، أصله يفرح بهما، فحذف الجار، ووصل الضمير، كقوله صام رمضان؛ أي فيه، وفيه عن القرطبي قوله: معناه فرح بزوال جوعه وعطشه، حيث أبيح له الفطر، وهذا الفرح طبيعي، وهو السابق للفهم، وقيل: إن فرحه بفطره إنما هو من حيث إنه تمام صومه، وخاتمة عبادته، وتخفيف من ربه، ومعونة على مستقبل صومه، ولا مانع من الحمل على ما هو أعم مما ذكر، ففرح كل أحد بحسبه، لاختلاف مقامات الناس في ذلك، فمنهم من يكون فرحه مباحاً، وهو الطبيعي، ومنهم من يكون مستحباً، وهو من يكون سببه شيئاً مما ذكره، قوله: (وإذا لقي

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم يوم النحر.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الوصال، ومن قال: ليس في الليل صيام.

ربه فرح بصومه) أي بجزائه وثوابه، وقيل: الفرح الذي عند لقاء ربه، إما لسروره بربه، أو بثواب ربه، على الاحتمالين، والثاني أظهر إذ لا ينحصر الأول في الصوم، بل يفرح حينئذ بقبول صومه، وترتب الجزاء الوافر عليه.[1]

جزاء وافر ونعيم مقيم:

من وصف جزاء أهل الجنة، ومنهم الصائمون المحتسبون، ما جاء في أوائل سورة البقرة، حيث يقول جل شأنه: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[2]، فطوبى لكم معشر الصائمين جزاؤكم وفرحكم بفطركم ولقاء ربكم، طوبى وحسن مقام.

وفي الحديث القدسي، ورد التشويق لما في الجنة من نعيم، حيث التميز والسعة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال الله: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، فاقرءوا إن شِئْتُمْ: {فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ})[3].

والآية الكريمة المذكورة في التعقيب على الوعد الرباني المذكور في هذا الحديث، هي من سورة السجدة، ونصها: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.[4]

ومن الأحاديث الصحيحة التي وصفت نعيم الجنة، ما رواه أبو هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ، صُورَتُهُمْ على صُورَةِ الْقَمَرِ

1. فتح الباري: 4 /118.
2. البقرة: 25.
3. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة.
4. السجدة: 17.

لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لا يَبْصُقُونَ فيها، ولا يَمْتَخِطُونَ، ولا يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فيها الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ من الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمْ الأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمْ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ منهم زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا من وَرَاءِ اللَّحْمِ من الْحُسْنِ، لا اخْتِلافَ بَيْنَهُمْ ولا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا)[1] .

دخول الجنة من باب الريان:

مما امتاز به جزاء الصائمين، تخصيص باب في الجنة لهم، ليدخلوها منه دون سواهم، فإذا ما انتهوا أغلق دون سواهم، فعن سَهْلٍ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا، يُقَالُ له الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ منه الصَّائِمُونَ يوم الْقِيَامَةِ، لا يَدْخُلُ منه أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ لا يَدْخُلُ منه أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فإذا دَخَلُوا أُغْلِقَ، فلم يَدْخُلْ منه أَحَدٌ)[2]

ولا يخفى أن خص الصائمين بباب من أبواب الجنة، فيه من التكريم، والاحتفاء بهم ما فيه، فهم المكرمون، الذين وعدهم رب العزة مع ثلة من أصناف الأخيار؛ مغفرة وأجراً عظيماً، فقال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}[3]

غفران الذنوب بالصيام والقيام:

من أبرز جزاء الصائمين الذي يتطلعون لنيله، أن يغفر الله ذنوبهم، ويمحو خطاياهم، فرمضان فيه من النفحات التي تحقق لهم ذلك، مصداقاً لقول رسول اللهِ، صلى الله عليه

1. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين.
3. الأحزاب: 35.

وسلم: (من صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ)[1]

وقوله صلى الله عليه وسلم: (من قام رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ) [2]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (من يَقُمْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ)[3].

فهنيئاً للذين صاموا رمضان إيماناً واحتساباً، وبخاصة تلك الجموع الحاشدة منهم، التي شدت الرحال إلى المسجد الأقصى، للصلاة فيه، وإعماره بالصلاة، والقيام، والاعتكاف، والمرابطة في جنباته، والذين شدوا رحالهم إلى بيت الله العتيق معتمرين، حيث العمرة في رمضان تعدل حجة تطوع، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (لَمَّا رَجَعَ النبي، صلى الله عليه وسلم، من حَجَّتِهِ، قال لأُمِّ سِنَانٍ الأَنْصَارِيَّةِ: ما مَنَعَكِ من الحَجِّ؟ قالت: أبو فُلانٍ، تَعْنِي زَوْجَهَا، كان له نَاضِحَانِ، حَجَّ على أَحَدِهِمَا، وَالآخَرُ يَسْقِي أَرْضًا لنا، قال: فإن عُمْرَةً في رَمَضَانَ، تَقْضِي حجةً، أو حَجَّةً مَعِي).[4]

سائلين الله العلي القدير أن يتقبل صيامنا وقيامنا وصلاتنا، وأن يعتق رقابنا والمؤمنين والمؤمنات من النار، وأن يدخلنا وإياكم الجنة بسلام، بصحبة رسولنا الأكرم، صلى الله عليه وسلم، وعلى أزواجه وآله وأصحابه، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان.
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قيام ليلة القدر من الإيمان.
4. صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب حج النساء.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يبدأ يوم العيد بالصلاة

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قال: (كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَخْرُجُ يوم الْفِطْرِ وَالأَضْحَى إلى الْمُصَلَّى، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلاةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ الناس، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ على صُفُوفِهِمْ، فَيَعِظُهُمْ، وَيُوصِيهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ، فَإِنْ كان يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثًا قَطَعَهُ، أو يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ)(*).

تأسياً بالرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، يحتفل المسلمون في أنحاء الدنيا اليوم بحلول اليوم الأول من أيام عيد الأضحى المبارك، الذي نسأل الله أن يجعله عيد يمن وخير وبركة عليهم، أينما حلوا ووجدوا، ومن الجدير استذكاره في هذا المقام، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، علم المسلمين بسلوكه يوم العيد، أن يبدأوه بطاعة الله وعبادته، فكان أَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ يوم العيد الصَّلاة، وتلك لعمري إشارة ساطعة على أهمية التقرب إلى الباري سبحانه بهذه العبادة، التي هي عمود الدين، فالعيد الذي هو مناسبة للسرور والابتهاج، يبدأه المسلم بأداء صلاة العيد، ليكمل يومه في سرور، عنوانه الطاعة، وإطاره القربة، حتى إن الوعظ الديني المتمثل في خطبة العيد، وما يتبعها، يكون له نصيب مميز من صباح يوم العيد، مما يدل على أهمية التواصل مع الدين وأحكامه في الظروف والأحوال جميعها، فلا وقت للغفلة عن ذلك، بل إن الأمة الجادة لا تتغافل عن أداء واجباتها الدينية المتمثلة في حماية حياضها، والإبقاء على حالة الاستعداد لمواجهة المتربصين بها، في العيد وغيره من سائر الأيام، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، بعد أداء شعائر صلاة العيد وخطبته، كان يسير الجيوش، للقيام بواجبها العسكري، ولم يدع مناسبات الأعياد وغيرها أن يحل فيها الاسترخاء مكان الجد والحذر.

* صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر.

خروج النساء إلى مصلى العيد ووعظهن:

من سنن العيد، أن يهب المسلمون إلى المشاركة في شعائره، حسب السنة الواردة عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولم يقتصر ذلك على شريحة معينة منهم دون سواها، بل السنة المطهرة تقتضي مشاركة جموع المسلمين، ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً، في الخروج إلى مصلى العيد، فعن أُمِّ عَطِيَّةَ، قالت: (كنا نُؤْمَرُ أَنْ نَخْرُجَ يوم الْعِيدِ، حتى نُخْرِجَ الْبِكْرَ من خِدْرِهَا، حتى نُخْرِجَ الْحُيَّضَ، فَيَكُنَّ خَلْفَ الناس، فَيُكَبِّرْنَ بِتَكْبِيرِهِمْ، وَيَدْعُونَ بِدُعَائِهِمْ، يَرْجُونَ بَرَكَةَ ذلك الْيَوْمِ وَطُهْرَتَهُ)[1]

فيا لها من سنة تحترم حضور المرأة، حتى وهي في ظرف لا تتمكن مع وجوده من أداء الصلاة، فلها في الحضور إلى مصلى العيد بركة وفوائد، يغفل عنها كثير من المسلمين، فالدين والعبادة لا يطلبان من رجال المسلمين دون نسائهم، بل يطلبان منهما على حد سواء، والنساء في الإسلام شقائق الرجال، يخرجن من بيوتهن ملتزمات بأحكام الشرع وآدابه لأداء الواجبات التي تناط بهن، غير متبرجات، فلهن دور مهم في الحياة العملية والتعبدية، واستمرارية الوجود الإنساني، لا يقل قدره عما يؤديه الرجال في مواقعهم، فالأدوار بين الرجال والنساء في الإسلام تكاملية، في النواحي جميعها، في البيوت والعمل والتربية والحرث والنسل، لا يستغني شطرهم عن الآخر، فالحث على شهود النساء صلاة العيد وسماع خطبتها دليل جلي على هذه المؤشرات، بل كان عليه الصلاة والسلام يخصهن بعد أداء صلاة العيد وخطبتها بوعظ خاص، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (خَرَجْتُ مع النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم فِطْرٍ أو أَضْحَى، فَصَلَّى، ثُمَّ خَطَبَ، ثُمَّ أتى النِّسَاءَ، فَوَعَظَهُنَّ، وَذَكَّرَهُنَّ، وَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ)[2]

---

1. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب التكبير أيام منى، وإذا غدا إلى عرفة.
2. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب خروج الصبيان إلى المصلى.

الهدي والأضاحي:

العاشر من ذي الحجة، هو يوم النحر، الذي قال فيه سبحانه: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}[1]

فالحاج في هذا اليوم ينحر الهدي الذي ساقه إلى البيت الحرام، أو يذبحه، إن كان قارناً، بين العمرة والحج، والمتمتع الذي اعتمر ثم تحلل، وعاد فأحرم للحج يقوم بالنحر، أو الذبح اللازم مثل القارن، لكن دون أن يسوق الهدي، والحاج المفرد الذي نوى الحج فحسب، يتطوع بنحر الهدي أو ذبحه في هذا اليوم، ليس على صفة الإلزام، أما غير الحجاج فيؤدون صلاة العيد، ثم ينحرون أضاحيهم أو يذبحونها، متأسين بالسنة الثابتة، فعن أَنَس بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يُضَحِّي بِكَبْشَيْنِ، وأنا أُضَحِّي بِكَبْشَيْنِ).[2]

ويسن للمضحي أن يذبح أضحيته بنفسه، فعن أنس، قال: (ضَحَّى النبي، صلى الله عليه وسلم، بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ، فَرَأَيْتُهُ وَاضِعًا قَدَمَهُ على صِفَاحِهِمَا، يُسَمِّي، وَيُكَبِّرُ، فَذَبَحَهُمَا بيده)[3]

وقت الأضحية:

يبدأ وقت الأضحية بعد صلاة يوم النحر، العيد، فعن الْبَرَاءِ بن عَازِبٍ، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَوَّلَ ما نَبْدَأُ في يَوْمِنَا هذا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ، فَمَنْ فَعَلَ ذلك، فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ نَحَرَ قبل الصَّلاةِ، فَإِنَّمَا هو لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ، ليس من النُّسُكِ في شَيْءٍ، فقال رَجُلٌ من الأَنْصَارِ- يُقَالُ له أبو بُرْدَةَ بن نِيَارٍ-: يا رَسُولَ اللهِ؛ ذَبَحْتُ وَعِنْدِي جَذَعَةٌ خَيْرٌ من مُسِنَّةٍ، فقال: اجْعَلْهُ مَكَانَهُ، وَلَنْ توفي أو تَجْزِيَ عن أَحَدٍ بَعْدَكَ) [4].

ويمتد وقت الذبح إلى آخر أيام التشريق، وهو اليوم الرابع من أيام عيد الأضحى المبارك، ولا فرق بين من ذبح في ليل أو نهار.

1. الكوثر: 2.
2. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب في أضحية النبي، صلى الله عليه وسلم، بكبشين أقرنين ويذكر سمينين.
3. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب من ذبح الأضاحي بيده.
4. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخطبة بعد العيد.

والأضحية تنحصر في الأنعام من الإبل والبقر والغنم، والشاة تكفي عن أهل بيت واحد، والبقر والإبل يكفي كل منها لسبعة أشخاص، ويشترط في الأضحية السلامة من العيوب؛ كالعرج، والمرض، والعور، والهزال، وكذلك السن الشرعية، فإذا تعذر ذلك؛ فتجوز التضحية بالجذع، بحيث إذا خلط مع الكبار خفي، ويجوز من الضأن ما أتمّ ستة شهور.

صلة الرحم وذوي القربى:

صلة الرحم والأقارب من أفضل الأعمال التي يتقرب بها المسلم إلى ربه عز وجل، ومن الأحاديث الصحيحة الواردة بالخصوص، ما رواه أَنَس بن مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (من أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ له في أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ)[1]، وذلك يكون بمناسبة وغيرها، والعيد فرصة ذهبية لتعزيز التواصل مع ذوي الأرحام والأقارب.

يوم النحر والأضحى إحياء لسنة عريقة:

يستذكر المسلمون يوم الأضحى والنحر قصة نبي الله إبراهيم، وولده إسماعيل عليهما السلام، الذي فداه الله بذبح عظيم، حيث أسلما وجهيهما لله، وانقادا لأمره، وقد قص علينا القرآن الكريم قصتهما بالخصوص، فقال تعالى:{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[2]، فقد كان من إبراهيم وولده إسماعيل الطاعة المطلقة لله تعالى، وكان من الله جل شأنه، الفداء بالذبح العظيم، وجرت هذه السنة الطيبة المباركة منذ ذلك الحين، وانتقلت إلى سنة نبينا وأسوتنا محمد، صلى الله عليه وسلم، والله

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم.
2. الصافات: 102 - 110.

تعالى يقول: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}[1]، ويقول تعالى: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}.[2]

سائلين الله العلي القدير، أن يتقبل من الحجاج حجهم وهديهم، وأن يردهم إلى أهليهم سالمين غانمين، بعفو الله ومغفرته ورضاه، وأن يتقبل أضاحي المسلمين، ويجعلها في ميزان حسناتهم يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على خاتم النبيين محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. آل عمران: 68.
2. الحج: 78.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يبين فضل العشر من ذي الحجة

عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قال: (ما الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ منها في هذه؟ قالوا: ولا الْجِهَادُ؟ قال: ولا الْجِهَادُ، إلا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فلم يَرْجِعْ بِشَيْءٍ)(*)

جاء في عمدة القاري، أن أيام التشريق تقع تلو أيام العشر، وقد ثبت بهذا الحديث أفضلية أيام العشر، وثبت أيضاً بذلك أفضلية أيام التشريق.

وعن ابن بطال، أن العمل في قوله: (ما العمل) يعني التكبير المسنون في أيام التشريق، وهو أفضل من صلاة النافلة؛ لأنه لو كان هذا الكلام حضاً على الصلاة والصيام في هذه الأيام لعارضه: إنها أيام أكل وشرب، وقد نهي عن صيام هذه الأيام، وهذا يدل على تفريغ هذه الأيام للأكل والشرب، فلم يبق تعارض إذا عنى بالعمل التكبير، ورد عليه بأن الذي يفهم من العمل عند الإطلاق العبادة، وهي لا تنافي استيفاء حظ النفس من الأكل وسائر ما ذكر، فإن ذلك لا يستغرق اليوم والليلة، وقال الكرماني: العمل في أيام التشريق لا ينحصر في التكبير، بل المتبادر منه إلى الذهن أنه هو المناسك من الرمي وغيره، الذي يجتمع بالأكل والشرب، مع أنه لو حمل على التكبير، لم يبق لقوله في صحيح البخاري، بعده باب التكبير أيام منى معنىً، ويكون تكراراً محضاً، ورد عليه بعضهم بأن الترجمة الأولى لفضل التكبير، والثانية لمشروعيته، أو صفته، أو أراد تفسير العمل المجمل في الأولى بالتكبير المصرح به في الثانية، فلا تكرار. وقوله: (منها)؛ أي في هذه الأيام؛ أي في أيام التشريق على تأويل من أوله بهذا.

وقوله: (ولا الجهاد) أي ولا الجهاد أفضل منها، وقوله: (إلاّ رجلٌ) فيه حذف، أي إلاّ جهادُ

* صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق.

رجلٍ، وقوله: (يخاطر بنفسه) جملة حالية؛ أي يكافح العدو بنفسه وسلاحه وجواده، فيسلم من القتل أو لا يسلم، فهذه المخاطرة، وهذا العمل أفضل من هذه الأيام وغيرها، مع أن هذا العمل لا يمنع صاحبه من إتيان التكبير والإعلان به، وقوله: (فلم يرجع بشيء)؛ أي من ماله، ويرجع هو، ويحتمل أن لا يرجع هو ولا ماله، فيرزقه الله الشهادة، وقد وعد الله عليها الجنة.

ومما يستفاد من هذا الحديث أن فيه تعظيم قدر الجهاد، وتفاوت درجاته، وأن الغاية القصوى فيه بذل النفس لله تعالى، وفيه تفضيل بعض الأزمنة على بعض، كالأمكنة، وفضل أيام عشر ذي الحجة على غيرها من أيام السنة، وتظهر فائدة ذلك، فيمن نذر الصيام، أو علق عملاً من الأعمال بأفضل الأيام، فلو أفرد يوماً منها تعين يوم عرفة؛ لأنه على الصحيح أفضل أيام العشر.[1]

الليالي العشر:

لأهمية العشر الأوائل من شهر ذي الحجة، أقسم سبحانه بها، فقال عز وجل: {وَالْفَجْرِ* وَلَيَالٍ عَشْرٍ* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ* وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ* هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ}[2].

وللمفسرين في المراد من الفجر والليالي العشر ستة أقوال:

أحدها، أنه الفجر المعروف الذي هو بدء النهار.

والثاني، صلاة الفجر.

والثالث، النهار كله، فعبر عنه بالفجر؛ لأنه أوله.

والرابع، أنه فجر يوم النحر خاصة.

والخامس، أنه فجر أول يوم من ذي الحجة.

والسادس، أنه أول يوم من المحرم، تنفجر منه السنة.

1. عمدة القاري، 6/ 290 - 291.
2. الفجر:1 - 5.

وقوله تعالى: { وَلَيَالٍ عَشْرٍ } فيه أربعة أقوال:

أحدها، أنه عشر ذي الحجة، والثاني، أنها العشر الأواخر من رمضان، والثالث، العشر الأول من رمضان، والرابع، العشر الأول من المحرم.

وللمفسرين في قوله: {والشفع والوتر } أقوال كثيرة، منها:

أن الشفع يوم عرفة، ويوم الأضحى، والوتر ليلة النحر، ومنها أن الشفع يوم النحر، والوتر يوم عرفة.[1]

أيام العشر من ذي الحجة متعددة، سواء بالنسبة إلى الحاج أم غيره، ومن الأعمال المشتركة بين الحاج وغيره، الإكثار من ذكر الله فيها، وغير الحاج الذي يريد أن يضحي يترك الحلق والتقصير، فعن أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا دَخَلَت الْعَشْرُ، وَأَرَادَ أحدكم أَنْ يُضَحِّيَ، فلا يَمَسَّ من شَعَرِهِ وَبَشَرِهِ شيئاً)[2].

ولم يثبت في السنة صيام أيام العشر جميعها، ففي صحيح مسلم، بَاب صَوْمِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ، وفيه عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (ما رأيت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، صَائِمًا في الْعَشْرِ قَطُّ)[3].

وقد بينت روايات صحيحة فضل صيام يوم عرفة، فعن أبي قَتَادَةَ الأَنْصَارِيِّ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: سُئِلَ عن صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ، فقال: (يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ ...)[4].

والمقصود هنا غير الحاج، أما الحاج فلا يسن له صوم يوم عرفة.

أما أعمال الأيام العشر بالنسبة إلى الحاج، ففيها تكون ذروة أعمال الحج، حيث يحرم الحجاج المتمتعون يوم التروية، وهو الثامن من ذي الحجة، ويصبح بذلك الحجاج جميعهم

1. زاد المسير، 9/ 102 –104.
2. صحيح مسلم، كتاب الأضاحي، باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة وهو مريد التضحية أن يأخذ من شعره...
3. صحيح مسلم، كتاب الاعتكاف، باب صوم عشر ذي الحجة.
4. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر...

محرمين، ويتوجهون في اليوم التاسع إلى عرفة ليقفوا هناك، وهو أهم أركان الحج، فالحج عرفة، وفي اليوم الذي يليه، وهو يوم العاشر من ذي الحجة، يبدأ غير الحجاج بذبح الأضاحي، ويؤدون صلاة العيد، والحجاج يذبحون ويرمون جمرة العقبة الكبرى، ويتحللون من الإحرام بالحلق أو التقصير، وبعضهم يطوف الإفاضة، ثم يتابعون بقية أعمال الحج في الأيام التي تلي الأيام العشر.

فصلِّ لربك وانحر:

جاء في الحديث الصحيح، عن أَنَسٍ، قال: (بَيْنَا رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ بين أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: ما أَضْحَكَكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ، فَقَرَأَ: بِسْمِ اللهِ الرحمن الرَّحِيمِ {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ* إِنَّ شَانِئَكَ هو الأَبْتَرُ} ثُمَّ قال: أَتَدْرُونَ ما الْكَوْثَرُ؟ فَقُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: فإنه نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عز وجل عليه خَيْرٌ كَثِيرٌ، هو حَوْضٌ تَرِدُ عليه أُمَّتِي يوم الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ منهم، فَأَقُولُ: رَبِّ إنه من أُمَّتِي، فيقول: ما تَدْرِي ما أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ؟ زَادَ ابن حُجْرٍ في حَدِيثِهِ بين أَظْهُرِنَا في الْمَسْجِدِ، وقال: ما أَحْدَثَ بَعْدَكَ) (*).

وللعلماء في المراد بالأمر بالصلاة والنحر خمسة أقوال:

الأول: أنه أمره بالصلاة على الإطلاق، وبنحر الهدي والضحايا.

الثاني: أنه صلى الله عليه وسلم كان يضحي قبل صلاة العيد، فأمره أن يصلي، ثم ينحر، فالمقصود على هذا تأخير نحر الأضاحي عن الصلاة.

الثالث: أن الكفار يصلون مكاء وتصدية، وينحرون للأصنام، فقال الله لنبيه، صلى الله عليه وسلم: صل لربك وحده، وانحر له؛ أي لوجهه، لا لغيره، فهو على هذا أمر بالتوحيد والإخلاص.

* صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة.

الرابع: أن معنى انحر ضع يدك اليمنى على اليسرى عند صدرك في الصلاة، فهو على هذا من النحر؛ وهو الصدر.

الخامس: أن معناه ارفع يديك عند نحرك في افتتاح الصلاة.(*)

فالأيام العشر فضائلها كثيرة، وأعمالها كذلك، يكفي أن يعود الحاج في نهاية أداء مناسكه التي أداها فيها بلا ذنوب ولا خطايا، إن حج فلم يرفث ولم يفسق، ومن أبرز ما يعيشه المسلم في الأيام العشر، ذكرى الطاعة المطلقة لله التي بدت من إبراهيم وولده إسماعيل، عليهما السلام، والتي توجت بفداء إسماعيل بذبح عظيم، فالحاج يقدم الهدي من الأنعام يوم النحر تقرباً إلى الله تعالى، وهو يستذكر فداء إسماعيل، وطاعته ووالده رب العالمين، وغير الحاج يذبح أضحيته أو ينحرها يوم الأضحى، تماشياً مع تلك الذكرى، وتشاركاً مع إخوانه الحجيج الذين ذبحوا أو نحروا الهدي في منى يوم النحر وأيام التشريق التي تليه.

سائلين الله أن يوفقنا لحسن عبادته وذكره دائماً، وبالأخص في الأيام العشر المباركة القادمة، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على الحبيب محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 220.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

ينهى عن الفسوق في الحج

الحج ركن من أركان الإسلام الخمسة، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (بُنِيَ الإِسْلامُ على خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ)[1].

فرضه الله تعالى على المسلم المستطيع مرة في العمر، فقال جل شأنه: {... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[2] .

الحج بلا مثالب:

وعد الله الذي يؤدي الحج إيماناً واحتساباً لوجهه الكريم، المغفرة، التي من شروط نيلها البراءة من الرفث والفسق، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (من حَجَّ هذا الْبَيْتَ، فلم يَرْفُثْ، ولم يَفْسُقْ، رَجَعَ كيوم وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)[3]

ما جاء على لسان الرسول، صلى الله عليه وسلم، بشأن هذا الاشتراط ينسجم تماماً مع مضمون النهي الإلهي عن الرفث والفسق في الحج، حسب ما جاء في قوله عز وجل: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ}[4].

فالبراءة من التلبس بالرفث والفسق في الحج، شرط لنيل الجائزة الموعودة بالرجوع من الحج صفحة بيضاء من الخطايا والذنوب، كيوم ولد الإنسان، فخرج إلى الدنيا بريئاً منها،

---

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس.
2. آل عمران: 97.
3. صحيح البخاري، كتاب الحصر، باب قول الله تعالى: {فلا رفث}(البقرة: 197).
4. البقرة: 197.

مصداقاً لما روي عن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (ما من مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ على الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وينصرانه، أو يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعَاءَ؟ ثُمَّ يقول أبو هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه: {فِطْرَت اللهِ التي فَطَرَ الناس عليها، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلك الدِّينُ الْقَيِّم})[1]، وحتى يكون الحاج على بصيرة من أمره، لا بد له ابتداءً من فهم معنى الرفث والفسق والجدال، حتى يحذرها، ويتجنب الوقوع في شباكها.

المقصود بالرفث والفسق والجدال:

جاء في التفسير، أن صيغة الخبر في قوله تعالى: {فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} أريد بها الإنشاء، أي فلا يرفث، ولا يفسق، ولا يجادل، وقد تقرر في فن المعاني أن الصيغة قد تكون خبرية، والمراد بها الإنشاء، لأسباب، منها: التفاؤل، كقولك رحم الله زيداً، فالصيغة خبرية، والمراد بها إنشاء الدعاء له بالرحمة، ومنها إظهار تأكيد الإتيان بالفعل، وإلزام ذلك، كقوله تعالى: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* تُؤْمِنُونَ بِاللهِ...} [2]؛ أي آمنوا بالله، بدليل جزم الفعل في قوله تعالى: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...}[3]، فهو مجزوم بالطلب المراد بالخبر في قوله: {تُؤْمِنُونَ بِاللهِ}؛ أي آمنوا بالله يغفر لكم ذنوبكم، كقوله: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ}[4]، ونحو ذلك، فالمسوغ لكون الصيغة في الآية خبرية، هو إظهار التأكد، واللزوم في الإتيان بالإيمان، فعبر عنه بصيغة الخبر، لإظهار أنه يتأكد ويلزم أن يكون كالواقع بالفعل، المخبر عن وقوعه، وفيه أيضاً أن الأظهر في معنى الرفث في الآية أنه شامل لأمرين:

أحدهما، مباشرة النساء بالجماع ومقدماته، والثاني الكلام بذلك، كأن يقول المحرم لامرأته

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي، فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام.
2. الصف: 10 – 11.
3. الصف: 12.
4. التوبة: 14.

إن أحللنا من إحرامنا فعلنا كذا وكذا، ومن إطلاق الرفث على مباشرة المرأة كجماعها قوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ}[1]، فالمراد بالرفث في الآية المباشرة بالجماع ومقدماته، ومن إطلاق الرفث على الكلام، قول العجاج:

ورب أسرابٍ حجيج كظم عن اللغا ورفث التكلم

والأظهر في معنى الفسوق في الآية، أنه شامل لجميع أنواع الخروج عن طاعة الله تعالى، ومنه قول العجاج:

يهوين في نجدٍ وغوراً غائراً فواسقاً عن قصدها جوائرا

يعني بقوله فواسقاً عن قصدها، خوارج عن جهتها التي كانت تقصدها.

والأظهر في الجدال في معنى الآية، أنه المخاصمة والمراء، أي لا تخاصم صاحبك وتماره حتى تغضبه، وقال بعض أهل العلم: معنى لا جدال في الحج، أي لم يبق فيه مراء ولا خصومة؛ لأن الله أوضح أحكامه على لسان رسوله، صلى الله عليه وسلم.[2]

فهذه بعض المعاني الواردة في كتب التفسير للرفث في الحج والفسق والجدال، ويبدو -والله تعالى أعلم- أن إطلاق هذه الألفاظ ينفي عنها حصر المعاني، لافتقار ذلك إلى الدليل الشرعي المقيّد للمطلق، وبناء عليه؛ فإن معاني الرفث والفسق تشمل التصرف بالقول، أو العمل بالإثم، فيما يخص الكلام عن المعاشرة الجنسية، والغرام من قبل الحجاج نساء أو رجالاً، أو غير ذلك، فلا يجوز النظر إلى محرّم، لأنه وإن كان هذا الفعل محرّماً في الأوقات جميعها، إلا أنه في الحج آكد وأعظم، وبخاصة أن الاختلاط في الحج بين الجنسين أمر لا مفر منه، فكلاهما يؤدي المناسك في الأوقات نفسها، والاكتظاظ في الطّواف، والمشي في الطرقات، خلال الذهاب والإياب إلى الحرم للصلاة والطّواف، أو إلى رمي الجمرات، فحفظ البصر،

1. البقرة: 187.
2. أضواء البيان، 5/ 13 - 14.

والحرص على تجنب احتكاك الأبدان ببعض، أو لمس الأجانب من الجنس الآخر، إضافة إلى الابتعاد عن لغو الكلام وفحشه، والصخب في الحافلات والشوارع والأسواق ومراكز السكن ومخاصمة رفاق السفر، ومضايقة الطائفين ومزاحمة الساعين، والتأفف من أعمال الحج، والضجر من مشاق المناسك، والتمادي في المزاح والاستخفاف بالشعائر، والانشغال بأمور الدنيا على حساب الصلوات والشعائر، فتصبح الشعائر بالنسبة إليه ثانوية، وهي الأهم، وغيرها ثانوي. كل ذلك وغيره مما يشابهه يدخل في معنى الرفث والفسق المنهي عن اقترافهما لمن يقصد نيل الثواب الأجزل للحج.

الحج المبرور:

الحج الخالي من الرفث والفسق والجدال، هو ما يطلق عليه وصف المبرور، والذي يعد وفق الاعتبارات الشرعية من أفضل الأعمال التي يتقرب بها العبد إلى ربه، فقد سُئِلَ النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قال: إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قال: جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قال: حَجٌّ مَبْرُورٌ)[1].

فمن أراد أن يكون حجه مبروراً ينبغي له أن يؤديه على الوجه المأثور، استجابة لأمره صلى الله عليه وسلم، حيث روي عن جَابِر، قوله: (رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يرمي على رَاحِلَتِهِ يوم النَّحْرِ، وَيَقُولُ: لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هذه)[2]

وإلى جانب هذا الشرط، يجب على الحاج ليكون حجه مبروراً تجنب المحظورات السلوكية المنهي عن اقترافها، كالرفث، والفسق، والجدال، فإذا ما كان منه ذلك، كان حجه مبروراً، بعون الله ورحمته.

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور.
2. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً وبيان قوله صلى الله عليه وسلم: (لتأخذوا مناسككم).

وفي مرقاة المفاتيح عن الطيبي، رحمه الله، قوله: إن الحج المبرور أي المقبول، وقيل: المقابل بالبر، وهو الثواب، وهو الذي لم يخالطه شيء من المآثم، وقيل: أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، وبهذا يظهر وجه الترتيب في الأفضلية، إذ لا نزاع في أن الإيمان أفضل مطلقاً، ثم الجهاد، الذي يكون عادة مع الاجتهاد في العبادة، وزيادة الرغبة في الآخرة، بالسعي إلى وسيلة نيل سعادة الشهادة، ثم الحج الجامع بين العبادة البدنية والمالية، ومفارقة الوطن والمألوف، وترك الأهل والولد، وغير ذلك على الوجه المعروف، أو يقال ذكره على ترتيب فرضيتها، فوجب الجهاد بعد الإيمان، ثم فرض الحج تكملة للأركان، قال تعالى: {...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ...}[1][2]

سائلين الرحمن الرحيم أن يوفق حجاج بيته الحرام، وضيوفه فيه، إلى أن يؤدوا حجهم على الوجه المبرور، الخالي من الرفث والفسق والجدال والنواقص جميعها، راجين لهم حجاً مبروراً، وسعياً مشكوراً، وذنباً مغفوراً، وتجارة لن تبور، وصلى اللهم وسلم وبارك، على الحبيب محمد، وعلى آله وأصحابه وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. المائدة: 3.
2. مرقاة المفاتيح: 5/ 422.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يعلمنا الاستسقاء

عن عبد اللهِ بن أبي بَكْرٍ، عن عَبَّادِ بن تَمِيمٍ، عن عَمِّهِ، قال: (خَرَجَ النبي، صلى الله عليه وسلم، يَسْتَسْقِي، وَحَوَّلَ رِدَاءَهُ)[1].

يشير هذا الحديث الشريف إلى سنة من سنن الرسول، صلى الله عليه وسلم، الفعلية، ألا وهي سنة الاستسقاء، الذي يُلجأ إليها عادة عند الجدب، أو تأخر نزول الغيث، الذي هو من سنن الله تعالى وآياته في هذا الكون، وهو رحمة للمخلوقات، ونعمة للكائنات، وسبب لاستمرار الحياة، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ}[2]، والرسول، صلى الله عليه وسلم، مارس الاستسقاء بنفسه، بكيفيات سيتم الوقوف عند بعضها لاحقاً.

تعريف الاستسقاء :

جاء في لسان العرب: اسْتَقى الرجلَ واسْتَسْقاه: طَلب منه السَّقْيَ. والاسْتِسْقاء هو اسْتِفْعال من طَلب السُّقْيا، أَي إِنْزال الغَيْثِ على البلادِ والعِبادِ. يقال: اسْتَسْقى وسَقى اللهُ عبادَه الغَيْثَ، وأَسْقاهم، والاسم السُّقْيا، بالضم.[3]

وفي فتح القدير، الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء، وحبس المطر، ومعناه في اللغة طلب السقيا، وفي الشرع ما ثبت عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في صفته، من الصلاة والدعاء.[4]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء وخروج النبي، صلى الله عليه وسلم، في الاستسقاء.
2. الأنبياء:30.
3. لسان العرب:7/ 212.
4. فتح القدير:1/ 91.

حاجة الأرض إلى الماء:

اقتضت حكمة الله جل شأنه أن يجعل من الماء كل شيء حي، وهو سبحانه جعل الماء الذي ينزله من السحاب على الأرض، آية من آياته العظيمة، وهو القائل:{وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً* لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً *وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً}[1].

والأرض المجدبة إذا نزل الماء عليها أنبتت من كل زوج بهيج، ولبست حلتها الخضراء، واستبشر أهلها، مصداقاً لقوله تعالى: {...وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[2].

جاء في التفسير الكبير، أن قوله سبحانه وتعالى: {وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً} أي تراها يابسة، خالية عن النبات والخضرة، وقوله: {اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} أي تحركت بالنبات وانتفخت.

أما قوله تعالى: {وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} فهو مجاز؛ لأن الأرض ينبت منها، والله تعالى هو المنبت لذلك، لكنه يضاف إليها توسعاً، ومعنى{مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} أي من كل نوع من أنواع النبات؛ من زرع وغرس، والبهجة حسن الشيء ونضارته، والبهيج بمعنى المبهج، قال المبرد: وهو الشيء المشرق الجميل.[3]

اللجوء إلى دعاء الله والإنابة إليه عند الجدب والقحط:

يلجأ الناس إلى الله طالبين النجدة والفرج، حين تواجههم مصاعب الحياة ومشقاتها وكروبها، ومن ذلك جدب الأرض وقحطها، بسبب قلة الماء، أو انحباس الغيث، أو تأخر نزوله، ومن الشواهد القرآنية على مثل هذا اللجوء، ما كان من موسى، عليه السلام، الذي استسقى لقومه لما عطشوا واحتاجوا إلى الماء، وعن هذا يقول الله تعالى في محكم التنزيل: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ

1. النبأ: 14 – 16.
2. الحج:5.
3. التفسير الكبير:9/ 23.

عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[1].

وهود، عليه السلام، دعا قومه إلى الاستغفار استجلاباً لماء السماء، وبهذا الصدد يقول جل شأنه: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ* يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ* وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ}[2]، والمراد بالسماء هنا المطر والسحاب، أو السماء حقيقة، ومدراراً بناء مبالغة وتكثير، من قول در المطر، إذا غزر.[3]

وتكرر مثل هذا الحث من قبل نوح، عليه السلام، فخلال سرد القرآن الكريم لمقاطع من حواره معهم، يقول تعالى:{ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً*ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً* فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً* يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً}[4].

فعلى العباد أن يتوجهوا إلى الله تعالى بالدعاء والاستغفار والابتهال والتضرع، طلباً للعفو والرحمة، والتجاوز عن السيئات، بإغاثتهم بالمطر الذي تحيا به الأرض، وتنتفع به المخلوقات، وتنشر به الرحمة، مصداقاً لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ}[5].

صفة الاستسقاء:

الاستسقاء في الإسلام عبادة، ورد أصلها عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وصفته لها صيغ عدة، وردت في الهدي النبوي، ففي الحديث الشريف: (أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَرَجَ

1. البقرة: 60.
2. هود: 50 – 52.
3. التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 3.
4. نوح:8 – 11.
5. الشورى:28.

إِلَى الْمُصَلَّى، فَاسْتَسْقَى، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَقَلَبَ رِدَاءَهُ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ)[1]، وصلاة الاستسقاء كصلاة العيد؛ يكبر فيها الإمام تكبيرات الزوائد، ويجهر بها في القراءة، ثم يخطب بعدها بالناس، ويتوجه إلى القبلة بالدعاء، ويبالغ برفع الأيدي، وهو يدعو، ويكثر من الاستغفار.

ويسن خروج الناس إلى الفلاة لأداء صلاة الاستسقاء، يخرج الشيوخ والأطفال وأهل الدين والصلاح، لأنهم الأقرب إلى استجابة دعائهم.

ومن صور الاستسقاء المشروعة، الدعاء يوم الجمعة على المنبر في خطبة الجمعة، فقد ورد عن أَنَس بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، (أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ، كَانَ وِجَاهَ الْمِنْبَرِ، وَرَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ هَلَكَتْ الْمَوَاشِي وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَدَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، قَالَ أَنَسٌ: وَلا وَاللهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلا قَزَعَةً، وَلا شَيْئًا، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلا دَارٍ، قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتْ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: وَاللهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، وَرَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ هَلَكَتِ الأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُمْسِكْهَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالآجَامِ وَالظِّرَابِ وَالأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ، قَالَ: فَانْقَطَعَتْ، وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ)[2].

ومن الأدعية التي وردت عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في الاستسقاء (... اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا...)[3]، وفي لفظ: (... اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا ...)[4].

1. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب تحويل الرداء في الاستسقاء.
2. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع.
3. التخريج نفسه.
4. صحيح مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء.

ومن هذا الهدي النبوي في الاستسقاء استرشد الصحابة، رضي الله عنهم، فاستسقوا، فقد روى أنس، رضي الله عنه، (أَنَّ عُمَرَ بنَ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا، فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ)[1]، وهذا حديث ثابت وصحيح، لا يقبل الطعن، الذي ذهب إليه بعض من أنكر التوسل بالأشخاص في الدعاء، إذ إن التوسل بدعاء الصالحين مشروع، ويختلف عن اتخاذ ند مع الله.

الحاجة إلى الاستسقاء مستمرة:

في هذا العام، وفي كل عام، يجدر بالمؤمنين التضرع إلى الله طالبين الغوث، وبخاصة عند تأخر الأمطار وشحها، وينبغي أن يرافق هذا التضرع أو يسبقه اللجوء إلى الله تعالى بالتوبة الصادقة عن الخطايا والذنوب، وترك المظالم، والتخلي عنها، والتقرب إلى الله بالطاعات؛ كالصيام والنوافل والصدقات، والضراعة إلى الله تعالى بقلوب خاشعة منكسرة، وهم يطلبون السقيا من المولى عز وجل.

فالتذلل إلى الله تعالى من أسباب إجابة الدعاء، وقد وصف الله عباده الصالحين بذلك، فقال تعالى:{وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[2].

فعلينا أن نُخلص النوايا لله تعالى بتوبة صادقة، وأعمال صالحة، وندعو الله تعالى بخير الدعاء في طلب الغيث، بما دعاه به رسوله الأكرم، صلى الله عليه وسلم، فهو أقرب للإجابة، وأدعى للقبول، إن الله تعالى بعباده رؤوف رحيم.

وصلى الله وسلم وبارك، على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.
2. الأنبياء:90.

الفصل الثالث
السيرة النبوية

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم		
.1	صاحب الإرادة الصلبة والعزيمة القوية	127
.2	ونماذج من حسن وفائه	131
.3	تفطرت قدماه شكراً لله	135
.4	مات ودرعه مرهونة ـ الحلقة الأولى	140
.5	مات ودرعه مرهونة ـ الحلقة الثانية والأخيرة	145

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
صاحب الإرادة الصلبة والعزيمة القوية

يخاطب الله عز وجل نبيه الكريم، محمداً بن عبد الله، قائلاً: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[1]، من بين مضامين هذا الخطاب الرباني الشهادة الإلهية للنبي المصطفى، صلى الله عليه وسلم، بسوية منهجه في دعوة الخلق للاستقامة على دين الله القويم، فكان رحيماً بهم ورفيقاً، وإلى جانب ذلك، كان صاحب إرادة صلبة، وعزيمة قوية، فكان أباً حانياً، وقائداً فذاً، شهدت له المواقف بالحزم والعزم، كيف لا؟ والله تعالى رباه على عينه، على هذا الصراط السوي، فأمره بعد العزم بالتوكل على الله محب المتوكلين، الذين يأخذون بالأسباب بالتزامن مع الاعتماد على الله، الذي هو حسبهم وكافيهم.

وكان عليه الصلاة والسلام من أولي العزم من الرسل، الذين قال فيهم جل ذكره: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ...}[2]، فكانت قراراته في السلم والحرب تتسم بحسن الخلق، الذي ينبع من رصيد مشبع بالمكارم، التي شهد له بها رب البرية سبحانه، بقوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [3].

فأكرم به من نبي وقائد، صلوات ربي وسلامه عليه، لم تحجزه الصعاب عن ولوج دربها، وصدقت فيه المدائح، التي نطق بها الخالق والخلق، على غرار قول المتنبي:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ وتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ

1. آل عمران: 159.
2. الأحقاف: 35.
3. القلم: 4.

وَيَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَيَصغُرُ فِي عَيْنِ العَظِيم العَظَائِمُ

وقول شاعر:

إِذَا كُنتَ ذَا رَأيٍ فَكُن ذَا عَزِيمَةٍ فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأيِ أَن تَتَرَدَّدَا

نيل المطالب والمعالي:

في سنين محدودة دانت للرسول، صلى الله عليه وسلم، أنحاء واسعة من دنيا العرب والعجم، وأنشأ جيلاً دعوياً، حمل الإسلام رسالة هداية للعالمين، ولم يفته إنشاء جيش يحمي دعوته، وكرامة أتباعه، ومقدسات دينه، فخاض معارك قاسية، توجت بالفتح الأعظم لمكة المكرمة، وانتشر الإسلام في ربوع الدنيا، بفضل عوامل عديدة، من أبرزها قيادته الحكيمة، وصلابة إرادته، وقوة عزيمته، وعن هذا الجانب وغيره من فضائل شمائله، وصفاته صلى الله عليه وسلم، يقول أمير الشعراء أحمد شوقي، في إحدى قصائده المشهورة:

وَسَوّى اللهُ بَينَكُمُ المَنايا *** وَوَسَّدَكُمْ مَعَ الرُسلِ التُرابا

وَأَرسَلَ عائِلاً مِنكُمْ يَتيمًا *** دَنا مِن ذي الجَلالِ فَكانَ قابا

نَبِيُّ البِرِّ بَيَّنَهُ سَبيلاً *** وَسَنَّ خِلالَهُ وَهَدى الشِعابا

وَكانَ بَيانُهُ لِلهَدي سُبلاً *** وَكانَت خَيلُهُ لِلحَقِّ غابا

وَما نَيلُ المَطالِبِ بِالتَمَنّي *** وَلَكِن تُؤخَذُ الدُنيا غِلابا

وَما استَعصى عَلى قَومٍ مَنالٌ *** إِذا الإِقدامُ كانَ لَهُمْ رِكابا

تَجَلّى مَولِدُ الهادي وَعَمَّتْ *** بَشائِرُهُ البَوادي وَالقِصابا

وَأَسدَتْ لِلبَرِيَّةِ بِنتُ وَهبٍ *** يَدًا بَيضاءَ طَوَّقَتِ الرِقابا

لَقَد وَضَعَتهُ وَهّاجًا مُنيرًا *** كَما تَلِدُ السَماواتُ الشِهابا

فَقامَ عَلى سَماءِ البَيتِ نورًا *** يُضيءُ جِبالَ مَكَّةَ وَالنِقابا

وَضاعَت يَثرِبُ الفَيحاءُ مِسكًا *** وَفاحَ القاعُ أَرجاءً وَطابا

أَبا الزَهراءِ قَد جاوَزتُ قَدري *** بِمَدحِكَ بَيدَ أَنَّ لِيَ انتِسابا

فَما عَرَفَ البَلاغَةَ ذو بَيانٍ *** إِذا لَم يَتَّخِذكَ لَهُ كِتابا

مَدَحتُ المالِكينَ فَزِدتُ قَدرًا *** فَحينَ مَدَحتُكَ اقتَدتُ السَحابا

سَأَلتُ اللهَ في أَبناءِ ديني *** فَإِن تَكُنِ الوَسيلَةَ لي أَجابا

وَما لِلمُسلِمينَ سِواكَ حِصنٌ *** إِذا ما الضَرُّ مَسَّهُمُ وَنابا

كَأَنَّ النَحسَ حينَ جَرى عَلَيهِمْ *** أَطارَ بِكُلِّ مَملَكَةٍ غُرابا

وَلَو حَفَظوا سَبيلَكَ كان نورًا *** وَكانَ مِنَ النُحوسِ لَهُمْ حِجابا

بَنَيتَ لَهُمْ مِنَ الأَخلاقِ رُكنًا *** فَخانوا الرُكنَ فَانهَدَمَ اضطِرابا

وَكانَ جَنابُهُمْ فيها مَهيبًا *** وَلَلأَخلاقِ أَجدَرُ أَن تُهابا

فَلَولاها لَساوى اللَيثُ ذِئبًا *** وَساوى الصارِمُ الماضي قِرابا

فَإِن قُرِنَت مَكارِمُها بِعِلمٍ *** تَذَلَّلَتِ العُلا بِهِما صِعابا

وَفي هَذا الزَمانِ مَسيحُ عِلمٍ *** يَرُدُّ عَلى بَني الأُمَمِ الشَبابا

والرسول، صلى الله عليه وسلم، عَلَّمَنا بِناءَ المَجدِ بسواعد قوية، تضع بصماتها واضحة جلية على درب المعالي، بالعمل الدؤوب، المنطلق من إيمان يعمر القلوب، ويقين بلزوم القيام بالواجب، فكما قال شاعرنا:

وَما نَيلُ المَطالِبِ بِالتَمَنّي *** وَلَكِن تُؤخَذُ الدُنيا غِلابا

وَما استَعصى عَلى قَومٍ مَنالٌ *** إِذا الإِقدامُ كانَ لَهُمْ رِكابا

إرادة الذين نهلوا من مدرسة النبوة:

ظهرت معالم الإرادة الصلبة والعزائم القوية في سلوك الذين كان منهم الخليفة المغوار الأول، رضي الله عنه، حيث كانت مواقفه مجللة بالحزم والعزم، كما جاء في الحديث الصحيح عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قَالَ: (لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاسْتُخْلِفَ

أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَبِ، قَالَ عُمَرُ لأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ، إِلا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ، فَقَالَ: وَاللهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ. قَالَ ابْنُ بُكَيْرٍ، وَعَبْدُ اللهِ عَنِ اللَّيْثِ: عَنَاقًا وَهُوَ أَصَحُّ)(*).

فأبو بكر، رضي الله عنه، صاحب الرأي الحليم، والرفق واللين، كان منه الحزم، وكانت منه الصرامة، حين تطلبت المواقف ذلك، ولولا ذلك منه، لكان ما كان في تاريخ الإسلام، وفي واقع الإسلام والمسلمين. من إصرار أهل القدس ومن جاورهم على الصلاة تحت حر الشمس ولهيبها، وترك النوم في ساعات الليل والسحر، من أجل الحضور للصلاة على مشارف الأقصى وأبوابه، لما حرمهم الظالمون من أدائها في جنباته، ومن تلك الرسائل أيضاً تلك التي ينبغي لقادة الأمة وشعوبها، وبخاصة أهل فلسطين أن يستخلصوا العبر منها، أن الوحدة والإرادة القوية، والإيمان بالحق ورعاية الله لأهله، ينتج عن ذلك ثمر طيب، كالشجرة التي أصلها في الأرض وأغصانها تناطح السحاب، فهل من معتبر؟!

سائلين الله العلي القدير أن يلهمنا والمؤمنين في بيت المقدس وأكنافه، وبلاد الإسلام والمسلمين كافة؛ لنكون من أصحاب الإرادات الصلبة، والعزائم القوية، على خطى نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
ونماذج من حسن وفائه

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (ما غِرْتُ على أَحَدٍ من نِسَاءِ النبي، صلى الله عليه وسلم، ما غِرْتُ على خَدِيجَةَ، وما رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قلت له: كَأَنَّهُ لم يَكُنْ في الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إلا خَدِيجَةُ، فيقول: إِنَّهَا كانت وَكَانَتْ، وكان لي منها وَلَدٌ)[1].

يشير هذا الحديث الشريف، إلى خلق فاضل حميد من مكارم أخلاق النبي، صلى الله عليه وسلم، حيث كان يبر زوجته الأولى خديجة، حتى بعد وفاتها، ومن ذلك إهداؤه صديقاتها من لحوم الذبائح التي كان يذبحها، معبراً بذلك عن تقديره لهن، كونهن صديقات لها، فمن اعتزازه بها، انبثق هذا التقدير لصديقاتها، فهو بذلك يؤدي عملاً يفوح منه مسك الوفاء، الذي عز وجوده بين الأحياء، فكيف إذا كان تجاه أموات؟! فقد كانت لخديجة، رضي الله عنها، مكانة عند الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، قبل مماتها، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (أتى جِبْرِيلُ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللهِ؛ هذه خَدِيجَةُ، قد أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فيه إِدَامٌ أو طَعَامٌ أو شَرَابٌ، فإذا هِيَ أَتَتْكَ، فَاقْرَأْ عليها السَّلامَ من رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ في الْجَنَّةِ من قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه، ولا نَصَبَ)[2]، وقد أثارت تلك المكانة الغيرة في نفس أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، رغم أنها لم تشاركها الحياة الزوجية مع الرسول، صلى الله عليه وسلم، إذ ماتت من قبل، لكن ذكر الرسول، صلى الله عليه وسلم، لها كان يضايقها، ومن شواهد غيرة عائشة من خديجة، رضي الله عنهما، بسبب اهتمام الرسول، صلى الله عليه وسلم، بها ما جاء في روايتها الصحيحة، قالت: (اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ على رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارْتَاعَ لِذَلِكَ،

1. صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي، صلى الله عليه وسلم، خديجة وفضلها، رضي الله عنها.
2. التخريج نفسه.

فقال: اللهم هَالَةَ، قالت: فَغِرْتُ، فقلت: ما تَذْكُرُ من عَجُوزٍ من عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ، هَلَكَتْ في الدَّهْرِ، قد أَبْدَلَكَ الله خَيْرًا منها)[1].

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ)؛ أي تذكر استئذانها، لشبه صوتها بصوت خديجة، قوله: (فَارْتَاعَ لِذَلِكَ) من الروع؛ أي فزع، ولكن المراد لازمه، وهو التغير، ويروى، فارتاح؛ أي اهتز لذلك سروراً، قوله: (فقال: اللهم؛ هَالَةَ) أي اللهم اجعلها هالة. وقوله: (قالت) أي عائشة، (فَغِرْتُ) من الغيرة، (فقلت: ما تَذْكُرُ من عَجُوزٍ من عَجَائِزِ قُرَيْشٍ) أرادت به خديجة، قوله: (حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ) الشدق بالكسر جانب الفم، أرادت أنها عجوز كبيرة جداً، قد سقطت أسنانها من الكبر، ولم يبق بشدقها بياض من الأسنان، إنما بقيت فيه حمرة اللثات، وقوله: (خَيْرًا منها)؛ أي من خديجة.[2]

فمن هذه المواقف يتبين وفاؤه، صلى الله عليه وسلم، لزوجته المتوفاة، بل كان يعبر بحرارة عن حبه لها، وارتباط قلبه بها، على الرغم من أن لديه من النساء غيرها، وكان يثير تقديره لها غيرة في نفوسهن.

وفاؤه لصاحبه أبي بكر:

لم يقتصر وفاء النبي، صلى الله عليه وسلم، على ما كان منه تجاه أزواجه، وعناصر أسرته، بل تعدى ذلك لعموم من ارتبط به من الناس، الذين كان من أبرزهم صاحبه أبو بكر، فقد حفظ له مواقفه الصادقة، ولم يفته استذكارها عند النوازل، فعن ابن عَبَّاسٍ، قال: (خَرَجَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، في مَرَضِهِ، الذي مَاتَ فيه، عاصب رَأْسَهُ بِخِرْقَةٍ، فَقَعَدَ على الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عليه، ثُمَّ قال: إنه ليس من الناس أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ في نَفْسِهِ وَمَالِهِ من أبي بَكْرِ بن أبي قُحَافَةَ، وَلَوْ كنت مُتَّخِذًا من الناس خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ خُلَّةُ الإِسْلامِ أَفْضَلُ، سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ في هذا الْمَسْجِدِ، غير خَوْخَةِ أبي بَكْرٍ)[3].

1. صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي، صلى الله عليه وسلم، خديجة وفضلها، رضي الله عنها.
2. عمدة القاري: 16 /282.
3. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب الخوخة والممر في المسجد.

وكان صلى الله عليه وسلم يحدث عن صداقته لأبي بكر، فعن أَنَس، رضي الله عنه، قال: (صَعِدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، أُحُدًا، وَمَعَهُ أبو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ، وقال: اسْكُنْ أُحُدُ، أَظُنُّهُ ضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ، فَلَيْسَ عَلَيْكَ إلا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ)(*).

ومن أبلغ وفائه، صلى الله عليه وسلم، لصديقه أبي بكر، أنه زف إليه البشرى بالجنة قبل مماته، فعن أبي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ: (أَنَّهُ تَوَضَّأَ في بَيْتِهِ، ثُمَّ خَرَجَ، فقلت: لأَلْزَمَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وَلأَكُونَنَّ معه يَوْمِي هذا، قال: فَجَاءَ الْمَسْجِدَ، فَسَأَلَ عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فَقَالُوا: خَرَجَ وَوَجَّهَ هَا هُنَا، فَخَرَجْتُ على إِثْرِهِ، أَسْأَلُ عنه حتى دخل بِئْرَ أَرِيسٍ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ، وَبَابُهَا من جَرِيدٍ، حتى قَضَى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، حَاجَتَهُ، فَتَوَضَّأَ، فَقُمْتُ إليه، فإذا هو جَالِسٌ على بِئْرِ أَرِيسٍ، وَتَوَسَّطَ قُفَّهَا، وَكَشَفَ عن سَاقَيْهِ، وَدَلاهُمَا في الْبِئْرِ، فَسَلَّمْتُ عليه، ثُمَّ انْصَرَفْتُ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ، فقلت: لأَكُونَنَّ بَوَّابَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، الْيَوْمَ، فَجَاءَ أبو بَكْرٍ، فَدَفَعَ الْبَابَ، فقلت: من هذا؟ فقال أبو بَكْرٍ، فقلت: على رِسْلِكَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ، فقلت: يا رَسُولَ اللهِ؛ هذا أبو بَكْرٍ، يَسْتَأْذِنُ، فقال: ائْذَنْ له، وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، فَأَقْبَلْتُ حتى قلت لأَبِي بَكْرٍ: ادْخُلْ وَرَسُولُ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يُبَشِّرُكَ بِالْجَنَّةِ، فَدَخَلَ أبو بَكْرٍ، فَجَلَسَ عن يَمِينِ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، معه في الْقُفِّ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ في الْبِئْرِ، كما صَنَعَ النبي، صلى الله عليه وسلم، وَكَشَفَ عن سَاقَيْهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ، فَجَلَسْتُ، وقد تَرَكْتُ أَخِي يَتَوَضَّأُ، وَيَلْحَقُنِي، فقلت: إن يُرِدْ الله بِفُلانٍ خَيْرًا، ـ يُرِيدُ أَخَاهُ ـ يَأْتِ بِهِ، فإذا إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ، فقلت: من هذا؟ فقال: عُمَرُ بن الْخَطَّابِ، **فقلت**: على رِسْلِكَ، ثُمَّ جِئْتُ إلى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَسَلَّمْتُ عليه، فقلت: هذا عُمَرُ بن الْخَطَّابِ يَسْتَأْذِنُ، فقال: ائْذَنْ له، وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، فَجِئْتُ، فقلت: ادْخُلْ وَبَشَّرَكَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، بِالْجَنَّةِ، فَدَخَلَ، فَجَلَسَ مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، في الْقُفِّ عن يَسَارِهِ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ في الْبِئْرِ، ثُمَّ رَجَعْتُ، فَجَلَسْتُ، فقلت: إن يُرِدِ الله بِفُلَانٍ خَيْرًا

* صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي، رضي الله عنه.

يَأْتِ بِهِ، فَجَاءَ إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ، فقلت: من هذا؟ فقال: عُثْمَانُ بن عَفَّانَ، فقلت: على رِسْلِكَ، فَجِئْتُ إلى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَأَخْبَرْتُهُ، فقال: ائْذَنْ له، وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ على بَلْوَى تُصِيبُهُ، فَجِئْتُهُ، فقلت له: ادْخُلْ، وَبَشَّرَكَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، بِالْجَنَّةِ على بَلْوَى تُصِيبُكَ، فَدَخَلَ، فَوَجَدَ الْقُفَّ قد مُلِئَ، فَجَلَسَ وِجَاهَهُ من الشَّقِّ الآخَرِ، قال شَرِيكٌ بن عبد الله: قال سَعِيدُ بن الْمُسَيَّبِ: فَأَوَّلْتُهَا قُبُورَهُمْ).[1]

وفاؤه للأنصار:

من الشرائح المجتمعية التي قدمت للإسلام خيراً، فذكر الرسول، صلى الله عليه وسلم، فضلها، وأشاد بمواقفها، الأنصار الذين بادروا المهاجرين بالإيواء والمناصرة، فكان لهم فضل لم ينسه النبي، صلى الله عليه وسلم، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (جَمَعَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، الأَنْصَارَ، فقال: أَفِيكُمْ أَحَدٌ من غَيْرِكُمْ؟ فَقَالُوا: لا إلا ابن أُخْتٍ لنا، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، إِنَّ ابن أُخْتِ الْقَوْمِ منهم، فقال: إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ، وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ، وَأَتَأَلَّفَهُمْ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ الناس بِالدُّنْيَا، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ إلى بُيُوتِكُمْ، لو سَلَكَ الناس وَادِيًا، وَسَلَكَ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ).[2]

فالوفاء خلق كريم، يتجلى فيما يصدر عن المرء من سلوك تجاه الآخرين، وهو من مكارم الأخلاق التي بعث بها النبيون، عليهم السلام، وجاء بها الإسلام، وتحلى بها المسلمون المخلصون، وليس ما ذكر آنفاً سوى نماذج لصور من وفائه، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1.صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذاً خليلاً).
2. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، وتصبر من قوي إيمانه.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
تفطرت قدماه شكراً لله

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (كان يَقُومُ من اللَّيْلِ حتى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فقالت عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هذا يا رَسُولَ اللهِ؟ وقد غَفَرَ الله لك ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ، وما تَأَخَّرَ؟ قال: أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا...)[1].

علل الرسول، صلى الله عليه وسلم، حرصه على قيام الليل لدرجة أن قدميه كانتا تتفطران من طول القيام، بحبه أن يكون عبداً شكوراً، ومن الرسائل التي يبعثها هذا الموقف التعبدي، أن الإنسان مهما بلغت درجة تقواه، وحسن طاعته لله، فإنه بحاجة إلى مواصلة التعبد لله، وهم يحتاجون إلى العبادة وليس الله، فهم الفقراء إليه سبحانه، وهو الغني الحميد، لا يريد منهم من رزق، وما يريد أن يطعمون، ونعِمُ الله وآلاؤه على عباده لا تعد ولا تحصى، ويعجزون عن مكافأتها، من هنا؛ فإنهم لا يدخلون الجنة بحسن أعمالهم، وإنما برحمة ربهم، فعن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (سمعت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، قالوا: ولا أنت يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: لَا، ولا أنا، إلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، ولا يَتَمَنَّيَنَّ أحدكم الْمَوْتَ، إِمَّا مُحْسِنًا، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وإما مُسِيئًا، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ)[2].

ومن الرسائل الأخرى التي يبعثها حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على قيام الليل، ليكون عبداً شكوراً، أن الشكر المطلوب لله لا يقف عند حدود الألفاظ، وإنما يتعدى ذلك إلى العمل المعبر عنه، فقيام الليل حتى تتفطر القدمان، برهان على أن أداء تلك العبادة

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الفتح، باب {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك...} (الفتح: 2).
2. صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت.

لم يكن عابراً، وإنما بذل له جهد فاق الأداء العادي للصلاة، مما يؤكد على أن بواعث هذا الأداء كانت الحرص على نيل رضوان الله، الذي منح الإنسان بشكل عام النعم والآلاء، والرسول، صلى الله عليه وسلم، بشكل خاص منحه الله مزيداً من النعم؛ باصطفائه نبياً ورسولاً وخاتماً للنبيين، ومبشراً ونذيراً للعالمين، وأضفى عليه محبته، ورضوانه وتوفيقه، ونصره على أعدائه، وجعله أسوة حسنة لمن معه، والذين يلونه من بعده، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

تمحيص الشاكرين:

من غايات ابتلاء الله الإنسان في حياته، تمحيص الشاكرين من الجاحدين، وقد أبان الله للناس الدربين، فقال تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً}.[1]

وفي التفسير أن الهداية هنا بمعنى البيان، كما في قوله تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}[2].

والسبيل الطريق السوي، وفيه بيان انقسام الإنسان إلى قسمين؛ شاكر معترف بنعمة الله تعالى عليه، مقابل لها بالشكر، أو كافر جاحد.

وقوله: {إِمَّا شَاكِراً} يشير إلى إنعام الله تعالى على العبد، وقد ذكر تعالى نعمتين عظيمتين، الأولى إيجاد الإنسان من العدم، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، وهذه نعمة عظمى، لا كسب للعبد فيها، والثانية الهداية، بالبيان والإرشاد إلى سبيل الحق والسعادة، وهذه نعمة إرسال الرسل، وإنزال الكتب، ولا كسب للعبد فيها أيضاً، وقد قال العلماء: هناك ثلاث نعم لا كسب للعبد فيها، الأولى وجوده بعد العدم، والثانية نعمة الإيمان، والثالثة دخول الجنة. [3]

وذكر الابتلاء لتمحيص الشاكرين من غيرهم على لسان سليمان، عليه السلام، وعن

1. الإنسان:3.
2. فصلت: 17.
3. أضواء البيان: 8 /379.

ذلك يحدث القرآن الكريم في سورة النمل، فيقول تعالى: {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[1]

وفي التفسير، أن سليمان لما رأى العرش مستقراً عنده، محمولاً إليه من مأرب إلى الشام في قدر ارتداد الطرف، قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر نعمه، أم أكفر فلا أشكرها، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، أي يعود نفع شكره إليه، وهو أن يستوجب به تمام النعمة ودوامها؛ لأن الشكر قيد النعمة الموجودة، وصيد النعمة المفقودة، ومن كفر، فإن ربي غني عن شكره، كريم بإفضال على من يكفر نعمه.[2]

شكر النعم العامة والخاصة:

آلاء الله ونعمه على الخلق كثيرة، لا تعد ولا تحصى، والإنسان العاقل السوي يشكرها، وقد لفت سبحانه الأنظار إلى بعضها، فقال تعالى: {قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}[3]، فالنجاة من الكرب والمصيبة ومصاعب العيش نعمة جديرة بالشكر، من هنا؛ فإن الإنسان عادة ما يتعهد بشكر المتفضل عليه بالنعم، كالتي ذكرت في الآية السالفة، أو غيرها، كما في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}[4]، وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ

1. النمل: 40.
2. تفسير البغوي: 3/ 420.
3. الأنعام: 63.
4. الأعراف: 189.

اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}[1]، ومن النعم الخاصة، تلك التي وهبها عز وجل لنبيه داود، عليه السلام، والتي حدث عن بعضها في قوله تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ}[2].

والمراد بصنعة اللبوس صنعة الدروع ونسجها، والدليل على أن المراد باللبوس في الآية الدروع، أنه أتبعه بقوله تعالى: {لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ} أي لتحرز وتقي بعضكم من بأس بعض؛ لأن الدرع تقيه ضرر الضرب بالسيف والرمي بالرمح والسهم، كما هو معروف.[3]

فنعم الله ينبغي أن تقابل بالشكر، الذي يعبر عنه بالأقوال والأفعال، وخير أسوة في ذلك النبيين والمرسلين، الذين حرص خاتمهم على أن يكون عبداً شكوراً، حتى تفطرت قدماه من طول قيامه الليل، والذي علم المسلمين سجود الشكر، ولا شك أن شكر المنعم – حتى لو كان بشراً – هو نوع من اللياقة والأدب، فالمؤدب يرد بكلمة شكراً، أو ما شابه ذلك من الألفاظ والعبارات، للتعبير عن الامتنان للمتفضل عليه بصغير الأمور وكبيرها، فكيف إذا تعلقت النعم بالخلق والسمع والبصر والقوة والصحة والعقل، وتيسير أمور الحياة، والهدى للإيمان والخير، وما إلى ذلك من آلاء الخالق، التي إذا ما أضيفت للنعم العامة المتعلقة بالغيث والزرع والشمس والقمر والنجوم ونواميس الكون وقوانينه، التي لو اختلت لتعكر صفو الحياة، بل لو اختل بعضها لانعدم وجود الخلق، واستحال بقاؤهم على البسيطة، والإنسان بالذات مكرم بفضل الله، وقد سخرت له المخلوقات الأخرى لينعم في حياته، ويتلذذ بخيراتها، فهل له عذر بعد ذلك أن يجحد الآلاء، وينكر الخيرات، ويكفر الخالق؟! بالتأكيد إنه لن يعذر، بل الواجب يقتضيه أن يكون شكوراً بلسانه وسنانه وأفعاله جميعها، ومن أبسط دلائل الشكر أن يربأ بنفسه عن المعاصي والخطايا التي تغضب الباري،

1. يونس: 22.
2. الأنبياء: 80.
3. أضواء البيان: 4/ 232.

وأن يكون دائماً ملبياً لخالق الآلاء والنعم وواهبها، فالنبي، صلى الله عليه وسلم، علمنا التلبية في الحج، والإقرار لله بالفضل والنعم، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: (سمعت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يُهِلُّ مُلَبِّدًا، يقول: (لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لك لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لك وَالْمُلْكَ، لا شَرِيكَ لك)[*]

ومن المؤكد أن شكر الآلاء والنعم لا ينحصر استذكاره عند أداء مناسك الحج، بل يؤديه المسلم صباح مساء، غدواً وعشياً؛ لأن نِعَم الله عليه لا تنقطع، وشكرها ينبغي أن لا ينقطع كذلك.

سائلين الله العلي القدير، أن يهدينا لنكون من العابدين الشاكرين، على سنة رسولنا الأمين، محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب التلبيد.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
مات ودرعه مرهونة
الحلقة الأولى

عن قتادة، عن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: (وَلَقَدْ رَهَنَ النبي، صلى الله عليه وسلم، دِرْعَهُ بِشَعِيرٍ، وَمَشَيْتُ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، بِخُبْزِ شَعِيرٍ، وَإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يقول: ما أَصْبَحَ لآلِ مُحَمَّدٍ، صلى الله عليه وسلم، إلا صَاعٌ، ولا أَمْسَى، وَإِنَّهُمْ لَتِسْعَةُ أَبْيَاتٍ)[1]

يشير هذا الحديث الشريف إلى أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يمارس حياته المعيشية بصفته بشراً، يتعرض للغنى والفقر، ولولا أن ظروفاً اقتصادية اضطرته للاستدانة مقابل رهن أودعه لدى صاحب الدين، ما لجأ إلى رهن درعه، ومن دلالة أن يكون صلى الله عليه وسلم راهناً، الربط بين رهن درعه، صلى الله عليه وسلم، وبين الحالة الاقتصادية التي كان يعيشها آنذاك، ومما جاء في شرح هذا الحديث الشريف، أن قوله: (إِهَالَة) هي الأَلية، وقيل: هي ما أذيب من الشحم، وقيل: هي الشحم والزيت، وقيل: ما أذيب من شحم الأَلية وقوله: (سَنِخَة) هي المتغيرة الرائحة من طول الزمان، وروي زنخة بالزاي، فيقال: سنخ وزنخ بالسين والزاي أيضاً، وقوله: (لآلِ مُحَمَّدٍ) يعني لأزواجه، وهن تسع.

وقوله: (وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ) قال الكرماني: كلام قتادة، وفاعل يقول أنس، وقال بعضهم: هو كلام أنس، والضمير في سمعته للنبي، صلى الله عليه وسلم؛ أي قال ذلك لما رهن الدرع عند اليهودي، مظهراً للسبب في شرائه إلى أجل، ووهم من زعم أنه كلام قتادة، وجعل الضمير في سمعته لأنس؛ لأنه إخراج للسياق عن ظاهره بغير دليل، وقال العيني: الأوجه في حق النبي، صلى الله عليه وسلم، ما قاله الكرماني؛ لأن في ذلك نوعَ إظهار بعض الشكوى، وإظهار الفاقة على سبيل المبالغة، وليس ذلك يذكر في حقه، صلى الله عليه وسلم.[2]

1. صحيح البخاري، كتاب الرهن، باب الرهن في الحضر.
2. عمدة القاري: 11/ 184.

ما يرشد إليه الحديث الشريف:

يؤخذ من هذا الحديث أنه لا بأس للرجل أن يذكر عن نفسه أنه ليس عنده ما يقوته، ويقوت عياله، على غير وجه الشكاية والتسخط، بل على وجه الاقتداء به.[1]

واستنبط ابن حجر من الحديث المذكور أعلاه جواز معاملة الكفار فيما لم يتحقق تحريم عين المتعامل فيه، وعدم الاعتبار بفساد معتقدهم، ومعاملاتهم فيما بينهم، واستنبط منه جواز معاملة من أكثر ماله حرام، وفيه جواز بيع السلاح ورهنه، وإجارته، وغير ذلك من الكافر، ما لم يكن حربياً، وفيه ثبوت أملاك أهل الذمة في أيديهم، وجواز الشراء بالثمن المؤجل، واتخاذ الدروع والعُدد وغيرها من آلات الحرب، وأنه غير قادح في التوكل، وأن قنية آلة الحرب لا تدل على تحبيسها، وأن أكثر قوت ذلك العصر الشعير، وأن القول قول المرتهن في قيمة المرهون، مع يمينه، وفيه ما كان عليه النبي، صلى الله عليه وسلم، من التواضع، والزهد في الدنيا، والتقلل منها، مع قدرته عليها، والكرم الذي أفضى به إلى عدم الادّخار، حتى احتاج إلى رهن درعه، والصبر على ضيق العيش، والقناعة باليسير، وفضيلة لأزواجه لصبرهن معه على ذلك، وقال العلماء: الحكمة في عدوله صلى الله عليه وسلم عن معاملة مياسير الصحابة إلى معاملة اليهود، إما لبيان الجواز، أو لأنهم لم يكن عندهم إذ ذاك طعام فاضل عن حاجة غيرهم، أو خشي أنهم لا يأخذون منه ثمناً، أو عوضاً، فلم يرد التضييق عليهم، فإنه لا يبعد أن يكون فيهم إذ ذاك من يقدر على ذلك، وأكثر منه، فلعله لم يطلعهم على ذلك، وإنما أطلع عليه من لم يكن موسراً به، ممن نقل ذلك، والله أعلم.[2]

تعريف الرهن:

يطلق الرهن في اللغة على الحبس، وعلى الثبوت، جاء في لسان العرب، أن ابن سيده،

---

1. عمدة القاري: 11/ 184.
2. فتح الباري: 5/ 141ـ 142.

قال: الرَّهْنُ ما وضع عند الإنسان مما ينوب مناب ما أُخذ منه، يقال: رَهَنْتُ فلاناً داراً رَهْناً، وارْتَهنه، إذا أَخذه رَهْناً، والجمع رُهون ورِهان ورُهُنٌ، بضم الهاء، والرَّهينة: واحدة الرَّهائن. ورَهَنَه الشيءَ يَرْهَنَه رَهْناً ورَهَنَه عنده، كلاهما: جعله عنده رَهْناً. قال الأَصمعي: ولا يقال أَرْهَنتُه.

والمُراهَنَةُ والرهانُ: المسابقة على الخيل، وغير ذلك.

والمُرْتَهِنُ: الذي يأْخذ الرَّهْنَ، والشيء مَرْهُونٌ ورهِين، والأُنثى رَهِينة.

والراهِنُ: الثابت.

وقال ابن عرفة: الرَّهْنُ في كلام العرب هو الشيء الملزم. يقال: هذا راهِنُ لك، أَي دائم محبوس عليك.

وقوله تعالى: {كلُّ نفْسٍ بما كَسَبَتْ رَهِينَة} {وكل امرئٍ بما كَسَبَ رَهِين}؛ أَي مُحْتَبَس بعمله، ورَهِينة محبوسة بكسبها. (*)

ومن تعاريف الرهن في الفقه الإسلامي، ما نصت عليه مجلة الأحكام في المادة 701، والتي جاء فيها أن الرَّهْن جَعْلُ مَالٍ مَحْبُوسٍ وَمَوْقُوفٍ مُقَابِلَ حَقٍّ مُمْكِنِ الِاسْتِيفَاءِ مِنْ ذَلِكَ الْمَالِ، وفي شرح هذه المادة، جاء في درر الحكام شرح مجلة الأحكام، أنه كَمَا يُقَالُ لَهُ: مَرْهُونٌ يُقَالُ لَهُ: أَيْضًا رَهْنٌ، والرَّهْنُ لُغَةً: جَعْلُ شَيْءٍ مَحْبُوسًا وَمَوْقُوفًا لِسَبَبٍ مَا، سَوَاءٌ أَكَانَ السَّبَبُ دَيْنًا أَوْ خِلافَهُ، وَسَوَاءٌ أَكَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ مَالاً، أَوْ غَيْرَهُ، فَبِنَاءً عَلَى هَذَا، يَكُونُ نَقْلُ وَاسْتِعْمَالُ الرَّهْنِ لِلْمَعْنَى الْوَارِدِ فِي هَذِهِ الْمَادَّةِ، مِنْ قَبِيلِ نَقْلِ الْعَامِّ إلَى الْخَاصِّ، وَفِي اصْطِلاحِ الْفُقَهَاءِ الرَّهْنُ، تَرْكُ الرَّاهِنِ مَالاً مَحْبُوسًا وَمَوْقُوفًا بِيَدِ الْمُرْتَهِنِ أَوْ الْعَدْلِ، وَيُعَبَّرُ عَنْ الْمَالِ الْمَذْكُورِ بِالْمَرْهُونِ وَبِالرَّهْنِ، مِنْ قَبِيلِ تَسْمِيَةِ الْمَفْعُولِ بِالْمَصْدَرِ، وَالسَّبَبُ فِي قَوْلِهِ جَعْلُ مَالٍ مَحْبُوسًا وَمَوْقُوفًا، بَدَلاً مِنْ حَبْسٍ وَتَوْقِيفِ مَالٍ إلَخْ، هُوَ لأَنَّ الْحَبْسَ وَالتَّوْقِيفَ مِنْ الْمُرْتَهِنِ، وَلَيْسَ مِنْ الرَّاهِنِ،

* لسان العرب: 6 /246.

وَأَمَّا جَعْلُ الْمَالِ مَحْبُوسًا، وَمَوْقُوفًا، فَهُوَ مِنْ الرَّاهِنِ، والاسْتِيفَاءُ عَلَى وَجْهَيْنِ؛ حَقِيقِيٌّ، وحُكْمِيٌّ يَحْصُلُ بِهَلاكِ الرَّهْنِ بِيَدِ الْمُرْتَهِنِ، أَوْ الْعَدْلِ.[1]

مشروعية الرهن:

ثبتت مشروعية الرهن في الإسلام بأدلة من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، فيقول تعالى: {وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[2].

هذه الآية القرآنية هي التالية مباشرة لأطول آية في القرآن الكريم، ألا وهي آية الدين، والتي فصَّل الله جل شأنه فيها بعض قضايا الدين، تفصيلاً امتزج فيه الحديث عن مسألة اقتصادية بامتياز، مع المواعظ والتوجيهات المنبثقة عن تعاليم الإسلام وقيمه وعقيدته، وقد أُتبعت آية الدين بالحديث عن أمور اقتصادية أيضاً، كان منها الرهن، حيث قال تعالى: {فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ} والرهان جمع رهن، وجاء ذكره هنا في سياق توثيق الديون، فالرهن مشروع بدلالة هذه الآية الكريمة.

ولا تتقيد مشروعية الرهن بالسفر، وإنما يجوز أن يتم فيه وفي الحضر، وإنما تقيدت الآية بذكر السفر على سبيل الغالب.[3]

والحديث أعلاه من أوضح الأدلة على مشروعية الرهن، فهو من السنة الفعلية، التي مارسها الرسول، صلى الله عليه وسلم، حيث رهن درعه، مما يدل بوضوح على مشروعية الرهن في الإسلام، وفي بعض الروايات الصحيحة لهذا الحديث الشريف ذكر لسبب الرهن الذي كان منه صلى عليه وسلم، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (تُوُفِّيَ رسول

1. درر الحكام شرح مجلة الأحكام: 2/ 53 – 54.
2. البقرة: 283.
3. التفسير الكبير: 7/ 105.

اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا من شَعِيرٍ، وقال يعلى: حدثنا الأَعْمَشُ دِرْعٌ من حَدِيدٍ)(*).

فهذه لمحة مجملة عن دلالة موت الرسول، صلى الله عيه وسلم ، ودرعه مرهونة، إضافة إلى بيان معنى الرهن في اللغة والاصطلاح، وأدلة مشروعيته، وهو موضوع جدير بالبحث والعرض والتذكير بأحكامه، كون بعض المسلمين يتساءلون عن حكمه، في ظل تعاملاتهم المصرفية، التي يضطرون أحياناً إلى رهن بعض ممتلكاتهم للجهات التي تمول مشاريعهم، آملين أن ييسر الله جل في علاه عرض مزيد من أحكام الرهن وشروطه، في الحلقة القادمة، من هذه الزاوية الصحفية الأسبوعية، المعنونة بالرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي، صلى الله عليه وسلم، والقميص في الحرب.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
مات ودرعه مرهونة
الحلقة الثانية والأخيرة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ كان يقول: (الرَّهْنُ يُرْكَبُ بِنَفَقَتِهِ، وَيُشْرَبُ لَبَنُ الدَّرِّ إذا كان مَرْهُونًا) [1].

وفي رواية صحيحة أخرى، ورد مزيد من التوضيح لما ورد في هذه الرواية، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (الرهن يُرْكَبُ بِنَفَقَتِهِ، إذا كان مَرْهُونًا، وَلَبَنُ الدَّرِّ يُشْرَبُ بِنَفَقَتِهِ، إذا كان مَرْهُونًا، وَعَلَى الذي يَرْكَبُ وَيَشْرَبُ النَّفَقَةُ) [2]

تعرضت الحلقة السابقة إلى تعريف الرهن في اللغة والاصطلاح، وإلى ثبوت مشروعيته بأدلة من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وتمضي هذه الحلقة في عرض المزيد من أحكام الرهن وشروطه، والحديث أعلاه يشير إلى حكم استخدام الرهن، الذي له تفصيل في الأحكام.

معاني ألفاظ الحديث:

وقف ابن حجر العسقلاني في فتح الباري عند معاني ألفاظ الحديث المذكور أعلاه وضبطها، حيث بين أولاً أن قوله صلى الله عليه وسلم: (الرَّهْنُ يُرْكَبُ بِنَفَقَتِهِ وَيُشْرَبُ...) بضم أول يُرْكَبُ على البناء للمجهول، وكذلك يُشْرَبُ، وهو خبر بمعنى الأمر، لكن لم يتعين فيه المأمور، والمراد بالرهن المرهون، وقد أوضحه في الطريق الثانية، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (الظهر يُرْكَبُ بِنَفَقَتِهِ إذا كان مَرْهُونًا)

وقوله: (الدَّرِّ) بفتح الدال، وتشديد الراء، مصدر بمعنى الدارة؛ أي ذات الضرع، وقوله:

1. صحيح البخاري، كتاب الرهن، باب الرهن مركوب ومحلوب.
2. التخريج نفسه.

(لَبَنُ الدَّرِّ) هو من إضافة الشيء إلى نفسه، وهو كقوله تعالى: {...وَحَبَّ الْحَصِيد}[1]، وقوله في الرواية الثانية: (وَعَلَى الذي يَرْكَبُ وَيَشْرَبُ النَّفَقَةُ) أي كائناً من كان، هذا ظاهر الحديث.[2]

حكم الانتفاع بالرهن:

للرهن شروط وأحكام تفصيلية، يضيق المقام بعرضها ومناقشتها، وبخاصة أن الفقهاء اختلفوا في كثير منها، ومن ذلك اختلافهم في حكم الانتفاع بالرهن، سواء من قبل الراهن أم المرتهن، وقد لخص الدكتور وهبة الزحيلي، آراء الفقهاء الخاصة بهذا الجانب، فبين أن الجمهور غير الشافعية، يمنعون انتفاع الراهن بالرهن، ويجيزه الشافعية بشرط ألا يضر بالمرتهن.

وبالنسبة إلى انتفاع المرتهن بالرهن، فالجمهور غير الحنابلة منعوا المرتهن من الانتفاع بشيء من الرهن، وحملوا ما ورد من جواز على المحلوب والمركوب، بمقدار العلف، عند امتناع الراهن عن الإنفاق على الرهن، فأنفق عليه المرتهن، فله الانتفاع بمقدار العلف.

أما الحنابلة، فأجازوا للمرتهن الانتفاع بالرهن إذا كان حيواناً، فله أن يحلبه ويركبه بقدر ما يعلفه، وينفق عليه.[3]

وخلص ابن حجر في فتح الباري، عند شرح هذا الحديث، إلى أن فيه حجة لمن قال: يجوز للمرتهن الانتفاع بالرهن إذا قام بمصلحته، ولو لم يأذن له المالك، وهو قول أحمد وإسحاق، وطائفة قالوا: ينتفع المرتهن من الرهن بالركوب والحلب بقدر النفقة، ولا ينتفع بغيرهما، لمفهوم الحديث، وأما دعوى الإجمال فيه، فقد دل بمنطوقه على إباحة الانتفاع، في مقابلة الإنفاق، وهذا يختص بالمرتهن؛ لأن الحديث وإن كان مجملاً، لكنه يختص بالمرتهن؛ لأن انتفاع

1. ق:9.
2. فتح الباري: 5 /144.
3. الفقه الإسلامي وأدلته: 6 /4287 - 4289.

الراهن بالمرهون لكونه مالك رقبته، لا لكونه منفقاً عليه، بخلاف المرتهن.

والجمهور الذين منعوا المرتهن من الانتفاع بشيء من المرهون تأولوا الحديث، لكونه ورد على خلاف القياس من وجهين:

أحدهما: التجويز لغير المالك أن يركب ويشرب بغير إذنه.

والثاني: تضمينه ذلك بالنفقة لا بالقيمة.(*)

حكم التصرف في الرهن:

من أحكام الرهن التي فصلها الفقهاء، التصرف في الرهن، الذي يمكن أن يصدر عن الراهن أو المرتهن، فتصرف الراهن بالرهن قبل التسليم، ينفذ دون إذن المرتهن، عند الحنفية والشافعية والحنابلة؛ لأنه لم يتعلق به حق المرتهن حينئذ، أما المالكية الذين يقولون بأن الرهن يلزم بالإيجاب والقبول، وبأن الراهن يجبر على تسليم الرهن للمرتهن، فيجيزون للراهن أن يتصرف في الرهن قبل القبض، إن فرط مرتهنه في طلبه، وصار دينه بلا رهن لتفريطه، فإن لم يفرط في الطلب وجدَّ في المطالبة، ففي المسألة تفصيل لديهم.

أما بعد التسليم، أي إذا سلم الراهن الرهن، فإنه يبقى على ملكه، ولكن تعلق به دين المرتهن، فاستحق حبسه وثيقة بالدين، إلى أن يوفي، عند الحنفية، ويصبح متعيناً للبيع وثيقة بالدين، عند الجمهور غير الحنفية.

وعلى كلا الرأيين، لا يجوز للراهن أن يتصرف بالرهن إلا بإذن المرتهن، لتعلق حقه به، فيتنازل عن حقه في حبس الرهن، أو تعيينه للبيع.

وفيما يتعلق بحكم تصرف المرتهن بالرهن، وبناء على أن حق الراهن قائم في عين الرهن، فهو ملكه، وحق المرتهن ثابت في ماليته، فله حبسه لوفاء الدين، فإنه لا يجوز للمرتهن أن

* فتح الباري: 5/ 144.

يتصرف في الرهن بغير إذن الراهن، لأنه تصرف فيما لا يملك، ويكون تصرفه موقوفاً عند الحنفية والمالكية كتصرف الفضولي، وباطلاً عند الشافعية والحنابلة.[1]

ضمان الرهن :

اختلف الفقهاء في تحديد صفة يد المرتهن، فالحنفية يعتبرونها يد أمانة بالنظر لعين المال المرهون، ويد استيفاء أو ضمان بالنسبة إلى مالية المرهون فيما يقابل الدين من مالية الرهن، بمعنى أن ما يساوي الدين من مالية الرهن تعد يد المرتهن عليه يد ضمان أو استيفاء، فإذا امتنع رد المرهون لصاحبه بسبب هلاك أو غيره، كان المرتهن مستوفياً من دينه هذا المقدار، واحتسب من ضمانه، وأما ما زاد من قيمة الرهن على الدين فهو أمانة، يهلك هلاك الأمانة، فلا يضمن إلا بالتعدي أو التقصير.

أما عند الجمهور غير الحنفية، فيد المرتهن على الرهن عندهم يد أمانة، فلا يضمن إلا بالتعدي أو التقصير، ولا يسقط شيء من الدين بهلاك الرهن. والمالكية رغم قولهم بأن يد المرتهن يد أمانة، إلا أنهم استحسنوا تضمين المرتهن عند وجود التهمة، وذلك عندما يكون الرهن مما يمكن إخفاؤه.[2]

فهذه بعض الأحكام الخاصة بالرهن ذكرت مجملة، ومقتبسة من مرجع فقهي بارز، وهو كتاب الفقه الإسلامي وأدلته، والذي فيه من التفاصيل الخاصة بهذا الموضوع وغيره الشيء الكثير، وحيث إن مثل هذا المقال لا يهدف إلى عرض التفاصيل الفقهية، بقدر ما يهدف إلى الوقوف عند جانب من جوانب سيرة الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، فقد تم الاقتصار على ذكر بعض الآراء الفقهية الواردة في بعض مسائل الرهن، للتنويه إلى أن لهذا الموضوع تفاصيل وأحكاماً، موضعها مراجع الفقه.

---

1. الفقه الإسلامي وأدلته، 6/ 4294 - 4298.
2. المرجع السابق، 6/ 4301 - 4302.

وسائل ضمان الديون:

إن قيام الرسول، صلى الله عليه وسلم، برهن درعه يدل على مشروعية الرهن، كوسيلة مادية لضمان حقوق الدائنين، إلى جانب قيم الورع، والتقوى، وخشية الله، التي يحسن التنويه إليها في خضم الحث على سداد الديون، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من أَخَذَ أَمْوَالَ الناس يُرِيدُ أَدَاءَهَا، أَدَّى الله عنه، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلافَهَا أَتْلَفَهُ الله)[1] .

وقد سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (أَرَأَيْتَ إن قُتِلْتُ في سَبِيلِ اللهِ، أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: نعم، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إلا الدَّيْنَ، فإن جِبْرِيلَ عليه السَّلام قال لي ذلك)[2]

والله تعالى ينهى عن أكل أموال الناس بالباطل، فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً}[3]، ويقول سبحانه: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ...}[4]

فسواء حبس الرهن مقابل الدين لدى صاحبه من قبل المدين، أم لم يتم ذلك، فإن المسلم الذي يتقي الله يتجنب أكل مال الآخرين بالباطل، فيحرص على سداد الديون؛ لأنه إذا لم يبادر عند القدرة على ذلك، فإنه يعد من الظالمين، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، فإذا أُتْبِعَ أحدكم على مَلِيٍّ فَلْيَتْبَعْ)[5].

وصلى الله وسلم على خاتم النبيين محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها.
2. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين.
3. النساء: 29.
4. النساء: 58.
5. صحيح البخاري، كتاب الحوالات، باب الحوالة وهل يرجع في الحوالة.

الفصل الرابع
جهاد وأسرى

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم		
.1	يحدث عن هلاك كسرى وقيصر	151
.2	يطمئن أم الشهيد ـ الحلقة الأولى	156
.3	يطمئن أم الشهيد ـ الحلقة الثانية	161
.4	يطمئن أم الشهيد ـ الحلقة الثالثة والأخيرة	166
.5	يأمر بالعمل على إطلاق سراح الأسرى	171

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
يحدث عن هلاك كسرى وقيصر

عن جَابِرِ بن سَمُرَةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا هَلَكَ قَيْصَرُ، فلا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وإذا هَلَكَ كِسْرَى، فلا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بيده لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا في سَبِيلِ اللهِ)[1].

قوله: (كِسرى) بكسر الكاف، ويجوز الفتح، وهو لقب لكل من ولي مملكة الفرس، و(قيصر) لقب لكل من ولي مملكة الروم، وقد استشكل هذا مع بقاء مملكة الفرس؛ لأن آخرهم قتل في زمن عثمان، واستشكل أيضاً مع بقاء مملكة الروم، وأجيب عن ذلك بأن المراد لا يبقى كسرى بالعراق، ولا قيصر بالشام، وهذا منقول عن الشافعي، ويذكر أن سبب ذكر هذا الحديث أن قريشاً كانوا يأتون الشام والعراق تجاراً، فلما أسلموا خافوا انقطاع سفرهم إليهما؛ لدخولهم في الإسلام، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم، ذلك لهم؛ تطييباً لقلوبهم، وتبشيراً لهم، بأن ملكهما سيزول عن الإقليمين المذكورين.[2]

والمستضعفون في الأرض بحاجة إلى أن يستلهموا من نفحات هذا الحديث وأمثاله، ما يعزز الإيمان بتحقق وعد الله الحق، الذي قطعه على نفسه سبحانه، بأن ينصر المؤمنين، حيث قال جل شأنه: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}[3].

بل إن الله جل في علاه وعد بأن يكون نصر المؤمنين قريباً، فقال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى

1. صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي، صلى الله عليه وسلم.
2. فتح الباري: 6 /625ـ 626.
3. الروم: 47.

يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ}[1].

وقد أخبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن امتداد ملك هذه الأمة وسعة نفوذها، فعن ثَوْبَانَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم:(إِنَّ اللهَ زَوَى لي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا ما زوي لي منها، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ).[2]

وفي صحيح مسلم، بشرح النووي أن معنى زوى جمع، وأن هذا الحديث فيه معجزات ظاهرة، وقد وقعت كلها بحمد الله، كما أخبر به صلى الله عليه وسلم، وأن المراد بالكنزين الذهب والفضة، والمراد كنزي كسرى وقيصر، ملكي العراق والشام.[3]

تحقق هلاك كسرى وملكه:

ورد في شرح معاني الحديث المذكور أعلاه، أن الهلاك في كسرى عام، وفي قيصر خاص؛ لأن معنى الحديث لا قيصر بعده في أرض الشام، وقد دعا النبي، صلى الله عليه وسلم، لقيصر لما قرأ كتابه أن يثبت الله ملكه، فلم يذهب ملك الروم أصلاً، إلاَّ من الجهة التي خلا منها، وأما كسرى، فإنه مزق كتابه، صلى الله عليه وسلم، فدعا عليه أن يمزق ملكه كل ممزق، فانقطع إلى اليوم، وإلى يوم القيامة.[4]

ومن الأخبار المروية بهذا الشأن، ما رواه ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن عبد الله بن عباس، أخبره: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، بَعَثَ بِكِتَابِهِ إِلى كِسْرَى، فَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلى عَظِيمِ الْبَحْرَيْنِ، يَدْفَعُهُ عَظِيمُ الْبَحْرَيْنِ إِلى كِسْرَى، فلما قَرَأَهُ كِسْرَى مَزَّقَهُ، فَحَسِبْتُ أَنَّ ابن الْمُسَيَّبِ، قال: فَدَعَا عليهم رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ)[5]

---

1. البقرة: 214.
2. صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.
3. صحيح مسلم بشرح النووي: 18/ 13.
4. عمدة القاري: 14 /275.
5. صحيح البخاري، كتاب أخبار الآحاد، باب ما كان يبعث النبي، صلى الله عليه وسلم، من الأمراء والرسل واحداً بعد واحدٍ.

وعبارة (فَحَسِبْتُ أَنَّ ابن الْمُسَيَّبِ قال): قالها الراوي ابن شهاب.[1]

لا كسرى بعده ولا قيصر:

في قوله صلى الله عليه وسلم: (فلا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وإذا هَلَكَ كِسْرَى، فلا كِسْرَى بَعْدَهُ) كلمة (لا) هنا بمعنى ليس. [2]

قال الخطابي: معناه فلا قيصر بعده يملك مثل ما يملك، وذلك أنه كان بالشام، وبها بيت المقدس، الذي لا يملك على الروم أحد إلا كان قد دخله، إما سراً وإما جهراً، فانجلى عنها قيصر، واستفتحت خزائنه، ولم يخلفه أحد من القياصرة في تلك البلاد بعده، ويحتمل أن يكون المراد بقوله: (هلك كسرى) تحقق وقوع ذلك، حتى عبر عنه بلفظ الماضي، وإن كان لم يقع بعد، للمبالغة في ذلك.[3]

اقتسام كنوز كسرى وقيصر:

غنم المسلمون كنوز كسرى وقيصر، إيذاناً بتحقق نبوءة النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي بشرهم بتقاسم كنوزهما وإنفاقها، كما ورد في حديث جَابِرِ بن سَمُرَةَ أعلاه: (...وَالَّذِي نَفْسِي بيده لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا في سَبِيلِ اللهِ)[4].

وجاء في رواية صحيحة، عن أبي هُرَيْرَةَ: (...وَلَتُقْسَمَنَّ كنوزهما في سَبِيلِ اللهِ ...)[5].

قوله: (ولتقسمن) على صيغة المجهول، وهكذا جرى؛ اقتسم المسلمون كنوزهما في سبيل الله، وهذه معجزة ظاهرة، والكنوز جمع كنز، وهو المال المدفون، والذي يجمع ويدخر.[6]

---

1. الطبقات الكبرى: 4/ 189.
2. عمدة القاري: 15 /41.
3. فتح الباري: 6 /626.
4. صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي، صلى الله عليه وسلم.
5. صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء.
6. عمدة القاري: 14/ 275.

وروي أنه لما قدم على عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ما أصيب من العراق، قال له صاحب بيت المال: أنا أدخله بيت المال، قال: لا ورب الكعبة، لا يؤوى تحت سقف بيت حتى أقسمه، فأمر به، فوضع في المسجد، ووضعت عليها الأنطاع، وحرسه رجال من المهاجرين والأنصار، فلما أصبح غدا معه العباس بن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، أخذ بيد أحدهما، أو أحدهما أخذ يده، فلما رأوه، كشطوا الأنطاع عن الأموال، فرأى منظراً لم ير مثله، رأى الذهب فيه، والياقوت، والزبرجد، واللؤلؤ يتلألأ، فبكى، فقال له أحدهما: إنه والله ما هو بيوم بكاء، ولكنه يوم شكر وسرور، فقال: إني والله ما ذهبت، حيث ذهبت، ولكنه والله ما كثر هذا في قوم قط، إلا وقع بأسهم بينهم، ثم أقبل على القبلة، ورفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً، فإني أسمعك تقول: {سنستدرجهم من حيث لا يعلمون}، ثم قال: أين سراقة بن جعشم؟ فأتي به أشعر الذراعين، دقيقهما، فأعطاه سواري كسرى، فقال: ألبسهما، ففعل، فقال: قل: الله أكبر، قال: الله أكبر، قال: قل: الحمد لله، الذي سلبهما من كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن جعشم، أعرابياً من بني مدلج، وجعل يقلب بعض ذلك بعضاً، فقال: إن الذي أدى هذا لأمين، فقال له رجل: أنا أخبرك أنت أمين الله، وهم يؤدون إليك ما أديت إلى الله، فإذا رتعت رتعوا، قال: صدقت، ثم فرقه، قال الشافعي: وإنما ألبسهما سراقة؛ لأن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال لسراقة: ونظر إلى ذراعيه، كأني بك قد لبست سواري كسرى، قال: ولم يجعل له إلا سوارين، قال الشافعي: أخبرنا الثقة من أهل المدينة، قال: أنفق عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، على أهل الرمادة حتى وقع مطر، فترحلوا، فخرج إليهم عمر، رضي الله عنه، راكباً فرساً، فنظر إليهم، وهم يترحلون بظعائنهم، فدمعت عيناه، فقال رجل من بني محارب بن خصفة: أشهد أنها انحسرت عنك، ولست بابن أمة، فقال له عمر، رضي الله عنه: ويلك، ذلك لو كنت أنفقت

عليهم من مالي، أو من مال الخطاب، إنما أنفقت عليهم من مال الله عز وجل.[*]

فإذا كان سبب إخبار الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن هلاك كسرى وقيصر، وانقطاع أثرهما وملكهما، يعود إلى طمأنة الذين توجسوا من أن تنقطع بهم السبل إلى الشام والعراق، بسبب احتلالهما من قبل الدولتين العظميين آنذاك؛ الفرس والروم، فإن المسلمين اليوم بأمس الحاجة إلى طمأنة مشابهة لقلوبهم، وقوى العالم تتصارع على سلبهم الثروات، وبسط اليد على أراضيهم، والنفوذ عليهم، فإن الله الذي نصرهم على دولتي الفرس والروم قادر على أن ينصرهم على قوى الظلم والبطش والطغيان، فهو الله أكبر، وهو على كل شيء قدير، والنصر من لدنه قريب قريب، فينبغي أن يبلغ إيماننا بهذه الحقائق العقائدية، ما بلغ به إيمان الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* سنن البيهقي الكبرى: 6/ 581

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يطمئن أم الشهيد

الحلقة الأولى

عن حُمَيْدٍ قال: سمعت أَنَسًا، رضي الله عنه، يقول: (أُصِيبَ حَارِثَةُ يوم بَدْرٍ، وهو غُلامٌ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رَسُولَ اللهِ، قد عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ يَكُنْ في الجَنَّةِ أَصْبِرْ، وَأَحْتَسِبْ، وَإِنْ تكُ الأُخْرَى تَرَى ما أَصْنَعُ، فقال: وَيْحَكِ، أوهبلت؟! أوجنة وَاحِدَةٌ هِيَ؟! إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ في جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ)[1]

بشرى نيل الشهداء الجنة وردت في هذا الحديث الشريف على لسان النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، خلال حوار دار بينه وبين أم حارثة، التي فقدت فلذة كبدها حارثة يوم بدر، وكأي أم يعتصرها الألم على فقدان ابنها، وتحزن لذلك، حتى إن النبي، صلى الله عليه وسلم، دمعت عيناه كوالد لما توفي ولده إبراهيم، وقال: (إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، ولا نَقُولُ إلا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ)[2]

وأم حارثة عبرت بصريح العبارة عن ألم الثكل، لكن ما واساها، وخفف من شدة حزنها، الطمأنة الحقيقية التي لقيتها من الرسول، صلى الله عليه وسلم، حول مصير ابنها، في الدار الباقية، فهو في الفردوس الأعلى من الجنة، تلك المنزلة التي أُوصي المؤمنون بأن يسألوها، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كان حَقًّا على اللهِ، أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ في سَبِيلِ اللهِ، أو جَلَسَ في أَرْضِهِ التي وُلِدَ فيها، قالوا: يا رَسُولَ اللهِ؛ أَفَلا نُنَبِّئُ الناس بِذَلِكَ، قال: إِنَّ في الْجَنَّةِ مائَةَ

1. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً.
2. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (إنا بك لمحزونون).

دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ ما بَيْنَهُمَا كما بين السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فإذا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فإنه أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرحمن، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ)[1]

أحياء عند ربهم يرزقون:

من جزاء الشهداء المميز، أنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وقد نهى الله جلَّ في علاه عن وصف الشهداء بالأموات، فقال تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ}[2].

قيل: إن سبب نزول هذه الآية الكريمة أن الناس قالوا فيمن قتل ببدر وأحد، مات فلان، ومات فلان، فكره الله أن تحط منزلة الشهداء إلى منزلة غيرهم، فنزلت هذه الآية، وأيضاً فإن المؤمنين صعب عليهم فراق إخوانهم وقراباتهم، فنزلت الآية مسلية لهم، تعظم منزلة الشهداء، وتخبر عن حقيقة حالهم، فصاروا مغبوطين، لا محزوناً لهم، ويبين ذلك من حديث أم حارثة أعلاه.

والفرق بين الشهيد وغيره، إنما هو الرزق، وذلك أن الله تعالى فضلهم بدوام حالهم التي كانت في الدنيا، فرزقهم[3]، ومع هذا الذي قيل في سبب النزول، فإن دلالة الآية الكريمة تعم من نزلت بشأنهم، وغيرهم ممن شابههم، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فنزلت هذه الآية مبينة لمنزلة الشهداء عند الله، وتسلية لأقاربهم، ولا يخصها نزولها فيهم، بل حكمها على العموم في الشهداء.[4]

---

1. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب {وكان عرشه على الماء} (هود: 7) {وهو رب العرش العظيم} (التوبة: 129).
2. البقرة: 154.
3. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 1/ 227.
4. التسهيل لعلوم التنزيل: 1 /64 - 65.

أرواح الشهداء في جوف طير:

تكرر الحديث عن بقاء الشهداء أحياء عند الله تعالى، في قوله جل شأنه: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[1].

وعن مَسْرُوقٍ، قال: (سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ –هو بن مسعود–، عن هذه الآيَةِ {ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} قال: أَمَا إِنَّا قد سَأَلْنَا عن ذلك، فقال: أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لها قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ من الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إلى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهم اطِّلاعَةً، فقال: هل تَشْتَهُونَ شيئاً؟ قالوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ من الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذلك بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فلما رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا من أَنْ يُسْأَلُوا، قالوا: يا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا في أَجْسَادِنَا، حتى نُقْتَلَ في سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فلما رَأَى أَنْ ليس لهم حَاجَةٌ تُرِكُوا)[2].

وشتان بين الأحياء والأموات، إذ الفرق بينهما شاسع، والبون بينهما عميق، ولا يختلف اثنان في حقيقة تميز الحياة عن الموت، حتى إن الله جل شأنه ضرب بهما المثل، عند الحديث عن الفرق بين المؤمن والكافر، وبين العالم والجاهل، فقال تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ}[3]، قال ابن قتيبة: الأحياء العقلاء والأموات الجهال، قال قتادة: هذه كلها أمثال؛ أي كما لا تستوي هذه الأشياء، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن[4]. وهكذا أيضاً لا يستوي من فارق الحياة الدنيا إلى ممات، انتظاراً للبعث والحشر والحساب، وبين من فارقها إلى حياة وأرزاق، كما في حال الشهيد، الذي قتل في سبيل الله.

---

1. آل عمران: 169.
2. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون.
3. فاطر: 22.
4. تفسير القرطبي: 14/ 340.

منازل مطمئنة:

طوبى للشهداء منازلهم الكريمة عند ربهم، وهنيئاً لك أم الشهيد، ولك والد الشهيد، ولكم ذوي الشهيد هذا المقام، وتلك المنازل التي حظي بها فقيدكم وحبيبكم، فهي جنان، والشهيد كحارثة في الفردوس الأعلى منها، من هنا لا عجب ما يشاهد من سكينة أم الشهيد ووقارها، رغم الحزن الذي انتابها لفراق مهجة قلبها، فهي تبدي جلداً، حاشا أن يكون نابعاً من قسوة قلب أو جفائه، وإنما اكتسبته من يقينها بالأمر الموعود، الذي أعده الله للشهداء، من هنا كان تركيز أم حارثة على معرفة مصيره في الآخرة، ولو لم تكن الجنة داره، لاجتهدت في البكاء والعويل عليه، كما قالت: (يا رَسُولَ اللهِ، قد عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ يَكُنْ في الْجَنَّةِ أَصْبِرْ، وَأَحْتَسِبْ، وَإِنْ تكن الأُخْرَى تَرَى ما أَصْنَعُ)

وهكذا أمهات الشهداء اللواتي لحقن أم حارثة، يصبرن ويحتسبن، لإيمانهن بأن فلذات أكبادهن الشهداء في جنة عرضها السماوات والأرض، مع الذين أنعم الله عليهم، مصداقاً لوعده عز وجل المتضمن في قوله تعالى: {وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}(*)، فالشهداء مع النخبة المميزة، يرافقون النبيين وَالصِّدِّيقِينَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً، وأنعم به من رفق، وأنعم به من مصير، ولما يستقر في القلوب الإيمان بهذه الوعود الربانية الحقة، تجد أصحابها يعبرون عن رصانة وطمأنينة قلَّ نظيرها، وهم يواجهون مصيبة فراق الأحبة، لكن عزاءهم، أنهم شهداء عند ربهم يرزقون.

* النساء: 69.

الخنساء ظاهرة تتكرر:

من الشواهد التاريخية الواقعية المصداقة، من سلف الأمة التي أضحت مثلاً ونبراساً لخلفها، على هذا الصعيد، ذاك الانقلاب في المواقف الإيمانية عنها في الجاهلية، والتي مثلتها خير تمثيل الشاعرة العربية المسلمة الخنساء -تماضر بنت عمرو- التي بكت أخاها صخراً بشعر شديد الوقع، مليء الأسى والحزن، حتى إنها اشتهرت بشاعرة الرثاء، وكان من بين ما قالت فيه: يؤرقُني التّذكرُ حيَن أُمْسي فأصبحُ قد بليتُ بفَرْط نُكْسِ

على صَخرٍ، وأي فتى كصخرٍ ليَومِ كريهَةٍ وطعان حلس

فلم أر مثله رزءاً لجنٍّ ولم أرَ مثلَهُ رزءاً لإنس

يذكرني طلوعُ الشمسِ صخراً وأذكُرهُ لكلِ غروبِ شمسِ

ونعته بكثير من الشعر الذي يتعذر ذكره لضيق المقام، لكنها بعد أن أسلمت استشهد أولادها الأربعة في معركة القادسية سنة 16هـ فقالت لما بلغها خبر استشهادهم: (الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة).

فهنيئاً لمن أكرمه الله بالشهادة، وهنيئاً لذويه وبالأخص أمه وأبيه صبرهم واحتسابهم ومقام شهيدهم عند ربه، ومنازلهم كذلك في قلوب المخلصين من أمتهم، وعند المليك المقتدر، آملين متابعة الوقوف عند مزيد من نفحات طمأنة أم الشهيد في لقاء آخر، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يطمئن أم الشهيد

الحلقة الثانية

عن جَابِر بن عبد اللهِ، رضي الله عنهما، قال: (لَمَّا قُتِلَ أبي، جَعَلْتُ أَكْشِفُ الثَّوْبَ عن وَجْهِهِ أبكي، وينهوني عنه، وَالنَّبِيُّ، صلى الله عليه وسلم، لا يَنْهَانِي، فَجَعَلَتْ عَمَّتِي فَاطِمَةُ تَبْكِي، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: تَبْكِينَ أو لا تَبْكِينَ، ما زَالَتْ المَلائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حتى رَفَعْتُمُوهُ)[1].

وقفت حلقة سابقة عند بعض منازل الشهداء، ومقامهم الرفيع عند الله، مما يقدم لذويه، وبخاصة والديه العزاء والطمأنة، ويخفف عنهم من حزن الفراق، ويجعلهم يرتدون ثياب الجَلَد، والصبر الجميل، على شاكلة الثوب الذي ارتداه المؤمن المبتلى يعقوب، عليه السلام، الذي ما نسي الاستعانة بالصبر الجميل في محنته، كما حدث القرآن الكريم عنه، إذ يقول جل شأنه: {وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}[2]، ولم تكن محنته تلك عابرة، بل إنها تسببت في فقد بصره، لكنه لم يفقد الثقة بالله، والأمل بالفرج، ولم يختلج إيمانه الشك والريبة، أو الجزع والإحباط، وهكذا أم الشهيد التي يعتريها الحزن الطبيعي على غياب فلذة كبدها، لكن مقامه الموعود في الآخرة عند ربه، وفي الدنيا عند كرام أهله، يبلسم جرحها النازف، ويضمد قلبها المكلوم، وفي الحلقة السابقة تم التركيز على حديث أم حارثة، التي استشهد ولدها حارثة في غزوة

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه.
2. يوسف: 18.

بدر، وبشرها الرسول، صلى الله عليه وسلم، بأنه في الفردوس، كما تم التذكير فيها بأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وتم التعريج على تفسير المراد بذلك، فالشهداء في منازل رفيعة عند ربهم تطمئن ذويهم من ورائهم، فهم في رفق النبيين وَالصِّدِّيقِينَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً.

الملائكة تظل الشهداء بأجنحتها:

في حديث جابر أعلاه طمأنة أخرى من الرسول، صلى الله عليه وسلم، لذوي الشهيد، فالملائكة تظل الشهداء بأجنحتها، وجاء في شرح الحديث، أن إظلال الملائكة للشهيد عبد الله والد جابر بأجنحتها لاجتماعهم عليه، وتزاحمهم على المبادرة بصعود روحه، رضي الله تعالى عنه، وتبشيره بما أعد الله له من الكرامة، أو أنهم أظلوه من الحر؛ لئلا يتغير، أو لأنه من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاَّ ظله.[1]

والملاحظ في هذا الحديث أيضاً أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يحرم البكاء على الشهيد، فبعض الحاضرين من الصحابة، رضي الله عنهم، نهوا جابراً عن البكاء على والده الشهيد، إلا أن النبي، صلى الله عليه وسلم، شاهده يبكي ولم ينهه عن ذلك، مما يؤكد مشروعية البكاء الهادئ على فقد الأحبة، سواء بالموت أم الشهادة، وهذا ما كان من فعله صلى الله عليه وسلم لما مات ابنه إبراهيم، وقال: (إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، ولا نَقُولُ إلا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ)[2].

والحاصل أن هذا الحديث يخبر عن تصرف جابر بن عبد الله، لما أُحضر والده عبد الله شهيداً يوم أحد، سنة 3هـ، وكان المشركون مثلوا به، فجدعوا أنفه وأذنيه، والثوب في قوله:

1. عمدة القاري: 8/ 17 - 18.
2. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (إنا بك لمحزونون).

(جعلت أكشف الثوب عن وجهه) أعم من أن يكون الثوب الذي سجوه به أو من الكفن، وقوله: (أبكي) جملة وقعت حالاً، وقوله: (وينهوني) أي الحاضرون دون تحديد وصفهم، وفي رواية أخرى أخبر أن الذين نهوه هم قومه، فعنه رضي الله عنهما، قال: (جِيءَ بِأَبِي يوم أُحُدٍ، قد مُثِّلَ بِهِ، حتى وُضِعَ بين يَدَيْ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وقد سُجِّيَ ثَوْبًا، فَذَهَبْتُ أُرِيدُ أَنْ أَكْشِفَ عنه، فَنَهَانِي قَوْمِي، ثُمَّ ذَهَبْتُ أَكْشِفُ عنه، فَنَهَانِي قَوْمِي، فَأَمَرَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَرُفِعَ، فَسَمِعَ صَوْتَ صَائِحَةٍ، فقال: من هذه؟ فَقَالُوا: ابْنَةُ عَمْرٍو أو أُخْتُ عَمْرٍو، قال: فَلِمَ تَبْكِي؟ أو لا تَبْكِي، فما زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حتى رُفِعَ)[1].

بينما ذكر في رواية أخرى أن الذين نهوه هم الصحابة، رضي الله عنهم، فقال: (فَجَعَلَ أَصْحَابُ النبي، صلى الله عليه وسلم، ينهوني)[2].

وهذه الروايات جميعها صحيحة، أخرجها البخاري، رحمه الله، في صحيحه، ولا تعارض بينها، فالذين نهوه عن الكشف عن وجه والده الشهيد هم الحاضرون من قومه، ومن الصحابة، رضي الله عنهم، والمهم أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يزجره عن هذا الفعل، بمعنى أنه أقره عليه، من هنا؛ فإن وداع الشهيد أو الميت من أهله وأصحابه، والبكاء عليه دون عويل ولا صراخ، أمر مشروع، لا إثم فيه، يقول العيني صاحب عمدة القاري: (وفيه جواز البكاء على الميت، ونهي أهل الميت بعضهم بعضاً عن البكاء للرفق بالباكي)، ويضيف أن كلمة (أو) في قوله: (تبكين أو لا تبكين) ليست للشك من الراوي، بل هي من كلام الرسول، صلى الله عليه وسلم، للتسوية بين البكاء وعدمه؛ أي فو الله إن الملائكة تظله، سواء تبكين أم لا، ومعنى هذا أن الشهيد عبد الله والد جابر، مكرم عند الملائكة،

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت.
2. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب من قُتِل من المسلمين يوم أحد.

عليهم الصلاة والسلام، وقوله: (تبكين) إلى آخره، يعزيها بذلك، ويخبرها بما صار إليه من الفضل، وقوله: (حتى رفعتموه) أي من مغسله؛ لأنه نسب الفعل إلى أصله.[1]

يبشر الثكلى:

تم الوقوف في عجالة في ختام حلقة سابقة عند ظاهرة الخنساء، التي خلدت وجودها تلك الشاعرة الراثية المؤمنة المحتسبة الصابرة، وعلى خطاها سارت خنساوات كثيرات، ممن أكرمهن الله عز وجل باستشهاد أبنائهن، فحق لهن أن يرفعن هاماتهن عالياً؛ عزةً وشموخاً وقبولاً لقضاء الله وقدره، مطمئنات بمصير شهدائهن، وعيونهن ترنو لما وعدهن الله من طيب المقام، وعلو المنزلة في جنات عدن؛ تكريماً لأبنائهن الشهداء، ولصبرهن واحتسابهن، كيف لا؟! وقد وعدت الثكلى الصابرة الجنة دون اشتراط أن يكون من ثكلته شهيداً، ففي صحيح البخاري، بَاب فَضْلِ من مَاتَ له وَلَدٌ، فَاحْتَسَبَ، وقال الله عز وجل: وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ، وفيه عن أبي سَعِيدٍ، رضي الله عنه: (أَنَّ النِّسَاءَ قُلْنَ لِلنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، اجْعَلْ لنا يَوْمًا، فَوَعَظَهُنَّ، وقال: أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَ لها ثَلَاثَةٌ من الْوَلَدِ، كَانُوا حِجَابًا من النَّارِ، قالت امْرَأَةٌ: وَاثْنَانِ؟ قال: وَاثْنَانِ).[2]

فالثكلى الصابرة المحتسبة يحجبها ولدها من النار، فطوبى لها وحسن مقام.

وعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ من الْوَلَدِ، فَيَلِجَ النَّارَ، إلا تَحِلَّةَ القَسَمِ، قال أبو عَبْد اللهِ: {وَإِنْ مِنْكُمْ إلا وَارِدُهَا})[3].

فإذا ما كان هذا جزاء أي ثكلى صابرة محتسبة، فكيف إذا كانت ثكلى بشهيد؟!

---

1. بتصرف عن عمدة القاري: 8/ 17 - 18.
2. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب...
3. التخريج نفسه.

الصبر عند الصدمة الأولى:

مما يجدر تذكير أمّ الشهيد به، أن أجرها مرهون بصبرها واحتسابها، ولا يكون ذلك منها إلا إن نبع عن إيمان راسخ يملأ قلبها، تستحضره عند مصابها، فتتحلى بالجلد دون عويل، ولا لطم، ولا تمزيق ثياب، فالصبر عند الصدمة الأولى، كما جاء في حديث أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (مَرَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فقال: اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، قالت: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لم تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، ولم تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لها: إنه النبي، صلى الله عليه وسلم، فَأَتَتْ بَابَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فلم تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فقالت: لم أَعْرِفْكَ، فقال: إنما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولى). (*)

فكم من أمهات الشهداء من نسائنا المعاصرات وبخاصة في وطننا الغالي قدمن الشهداء، وأبدين جلداً قلَّ نظيره، على درب الخنساء، وما أدراك ما الخنساء! فطوبى لهن وحسن مقام، آملين متابعة الوقوف عند مزيد من نفحات طمأنة أم الشهيد في لقاء آخر، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
يطمئن أم الشهيد
الحلقة الثالثة والأخيرة

عن سَمُرَةَ، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (رأيت اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ، أَتَيَانِي، فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدْخَلانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ، لم أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ منها، قالا: أَمَّا هذه الدَّارُ، فَدَارُ الشُّهَدَاءِ).[1]

وقفت الحلقة السابقة عند بعض مثوبة الشهداء التي وعدوها، في سياق طمأنة ذويهم، فالملائكة تظلهم بأجنحتها، وأمهاتهم يحتجبن بهم من نار جهنم، فهنيئاً لهن ولهم، وحديث سمرة أعلاه، تضمنه حديث طويل، اقتبس منه هذا المقطع، الذي يصف فيه الرسول، صلى الله عليه وسلم، دَار الشُّهَدَاءِ في الآخرة، التي هي غير دار عامة أهل الجنة من المؤمنين، فلولا تميزها ما خصت بالذكر، ومعلوم أن حقيقة ما فيها وغيرها من موجودات الجنة لا يعلمها إلا الله عز وجل، مصداقاً للحديث القدسي، عن رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (قال الله تعالى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، فاقرءوا إن شِئْتُمْ: {فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ}).[2]

جزاء الصابرين على فقد الأحبة:

وعد الله الحسنى للذين يصبرون على ما يصيبهم من فقدان الأحبة، ومن ذلك ما جاء في سياق الحث على الاستعانة بالصبر والصلاة، والنهي عن وصف الشهداء بالأموات، فقال جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ* وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ* وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله...
2. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة.

وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ* أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[1]، فإذا كان عموم الصابرين المحتسبين عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ، فلا ريب أن لذوي الشهداء مثل ذلك وزيادة، لأنهم أهل البواسل، الذين قال فيهم الشاعر، وصدق:

يجودُ بالنَّفسِ أَنْ ضنَّ الجبانُ بها والجودُ بالنَّفس أقْصَى غاية الجُودِ

استبشار الشهداء بمن بعدهم:

الشهداء تسرهم مثوبة إخوانهم وذويهم من بعدهم، مصداقاً لما أخبر الله عنهم، حيث قال تعالى: {فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[2].

ومما ورد في تفسير هذه الآية الكريمة، أن الشهيد يؤتى بكتاب فيه ذكر من تقدم عليه من إخوانه وأهله، وفيه: يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، فيستبشر بقدومه، كما يستبشر أهل الغائب به، هذا قول السدي، و{هم} في قوله تعالى: {ألا خوف عليهم} تعود إلى الذين لم يلحقوا بهم، قال الفراء: معناه يستبشرون لهم بأنهم لا خوف عليهم ولا حزن، وفي ماذا يرتفع الخوف والحزن عنهم؟ فيه قولان: أحدهما، لا خوف عليهم فيمن خلفوه من ذريتهم، ولا يحزنون على ما خلفوا من أموالهم، والثاني، لا خوف عليهم فيما يقدمون عليه، ولا يحزنون على مفارقة الدنيا، فرحاً بالآخرة، يستبشرون بنعمة من الله وفضل، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين.[3]

---

1. البقرة: 153 - 157.
2. آل عمران:170.
3. زاد المسير: 1 /502.

أسوتهم الأنبياء:

من مكارم الشهداء وفضلهم، أنهم سلكوا درب الأنبياء، في حمل رايات الحق والعز والإباء، فأصابهم ما لحق ببعض الأنبياء من قتل واستشهاد من قبل الطغاة الظالمين، الذين ألزمهم الله الذل والصغار أينما كانوا ووجدوا، مصداقاً لقوله عز وجل: {....وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ}[1]، وبشرهم جل في علاه، على وجه التبكيت والتقريع بعذاب أليم، فقال جل شأنه: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[2].

من هنا لم يذكر أحد من صالحي الخلق أنه يرجو الرجوع إلى الدنيا بعد إبصاره مقامه في الجنة إلا الشهيد، فعن أَنَس بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما من عَبْدٍ يَمُوتُ، له عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ، يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنْيَا، وَأَنَّ له الدُّنْيَا وما فيها، إلا الشَّهِيدَ؛ لِمَا يَرَى من فَضْلِ الشَّهَادَةِ، فإنه يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى)[3].

حتى إن الشهيد يتمنى تكرار حدث الشهادة لفضلها عليه، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم:(...يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى من الْكَرَامَةِ)[4].

غاية الشهداء:

الشهداء درجات وأنواع، فالنبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)[5]، ويقول: (الْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَالْمَطْعُونُ شَهِيدٌ) [6]، لكن أسمى الشهداء من ابتغى

1. البقرة: 61.
2. آل عمران: 21.
3. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحور العين، وصفتهن ...
4. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب تمني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا.
5. صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب من قاتل دون ماله.
6. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون.

إعلاء كلمة الله من جهاده، فعن أبي مُوسَى، رضي الله عنه، قال: (جاء رَجُلٌ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ في سَبِيلِ اللهِ؟ قال: من قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ في سَبِيلِ اللهِ)[1].

فتحديد الغايات أمر مهم ولازم، في الأعمال جميعها، والتي من أهمها العمل لله وفي سبيله، من هنا جاء التنبيه تلو التنبيه، للتأكيد على سلامة النوايا والمقاصد، ومن الشواهد الأخرى لذلك، قوله صلى الله عليه وسلم: (انْتَدَبَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ في سَبِيلِهِ لا يُخْرِجُهُ إلا إِيمَانٌ بِي، وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي، أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ من أَجْرٍ أو غَنِيمَةٍ، أو أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ...)[2]، فينبغي التدبر ملياً في اشتراط الإيمان بالله وبرسله؛ لنيل ما أعد الله للشهداء من مثوبة وأجر، وحسن مقام.

دماء الشهداء ورائحة المسك:

من خواص الشهداء أن دماءهم الزكية التي أريقت في الدنيا، تأتي تعبق برائحة المسك يوم القيامة، لذلك لا غرابة أن يتمنى الرسول، صلى الله عليه وسلم، الشهادة في سبيل الله، ويحرص على المشاركة في سلوك أسبابها، رغم مقامه العلي، وهو القائل: (...وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده، ما من كَلْمٍ يُكْلَمُ في سَبِيلِ اللهِ إلا جاء يوم الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حين كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده؛ لَوْلا أَنْ يَشُقَّ على الْمُسْلِمِينَ ما قَعَدْتُ خِلافَ سَرِيَّةٍ، تَغْزُو في سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ، ولا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عليهم أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده، لَوَدِدْتُ أَنِّي أُغْزَو في سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أُغْزَو فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أُغْزَو فَأُقْتَلُ)[3].

---

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان.
3. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله.

بل الرسول، صلى الله عليه وسلم، أعلن شهادته على الشهداء يوم القيامة، قال ذلك عند دفن شهداء أحد، فعن جَابِر بن عبد اللهِ، رضي الله عنهما، أخبر أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (كان يَجْمَعُ بين الرَّجُلَيْنِ من قَتْلَى أُحُدٍ في ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يقول: أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ، فإذا أُشِيرَ له إلى أَحَدٍ قَدَّمَهُ في اللَّحْدِ، وقال: أنا شَهِيدٌ على هَؤُلاءِ يوم الْقِيَامَةِ، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ بِدِمَائِهِمْ، ولم يُصَلِّ عليهم ولم يُغَسَّلُوا)[1]، وقوله: (أنا شهيد على هؤلاء): أي أشهد لهم بأنهم بذلوا أرواحهم لله تعالى.[2]

فمن يرتقي شهيداً يفوز بخواص جعلها الله له دون سواه، فهو حي عند ربه يرزق، ورائحة دمه مسك، يستبشر بلقاء أحبته الذين بقوا بعده ينافحون عن دينهم وحقوقهم المشروعة، ولا يتمنى أحد من أهل الجنة العودة إلى الدنيا من الآخرة سواه.

فهذه بعض المطمئنات لأمهات الشهداء، سيق التذكير بها بالاستناد إلى الأدلة الشرعية اليقينية، عسى أن يساهم مثل هذا التذكير في بلسمة الجراح، وتعزيز الإيمان بمنازل الشهداء وذويهم عند ربهم، فهم في عليين، لا خوف عليهم ولا يحزنون، فطوبى لهم ولأمهاتهم وآبائهم الصابرين المحتسبين، طوبى لهم وحسن مقام، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب من قتل من المسلمين يوم أحد.
2. عمدة القاري: 8/ 153.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
يأمر بالعمل على إطلاق سراح الأسرى

عن أبي مُوسَى، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (فُكُّوا الْعَانِيَ، يَعْنِي: الأَسِيرَ، وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ)[1].

الرسول، صلى الله عليه وسلم، يأمر المسلمين في هذا الحديث الشريف بالعمل على إطلاق سراح الأسرى، وفك قيودهم، لينعموا بالحرية، التي هي من متطلبات الحياة الإنسانية الكريمة، قال سفيان: العاني الأسير، وقال ابن بطال: فكاك الأسير واجب على الكفاية، وبه قال الجمهور، وقال إسحاق بن راهويه من بيت المال، وروي عن مالك أيضاً.[2]

إخلاص الدعاء للأسرى:

الأسرى ينبغي أن يكونوا حاضرين في أذهان المسلمين وقلوبهم، في مناسباتهم جميعها، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يذكرهم حتى في دعائه وهو يصلي، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه: (أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فِي الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِنْ صَلاَةِ العِشَاءِ، قَنَتَ: اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ)[3].

مما يدل على لزوم بقاء قضية الأسرى في وجدان المؤمنين، وفي صدارة اهتمامهم، مسؤولين ومؤسسات، وأهل وجيران وأمة، لا من قبيل التفضل عليهم بذلك، بل انصياعاً للواجب الديني والأخلاقي، وواجب الصلة والقربى، وواجب المجازاة والمقابلة لبعض الفضل

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير.
2. فتح الباري: 6/ 167.
3. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء على المشركين.

والإحسان الذي انبرى إلى تقديمه، وسبق إليه أولئك الأخيار، فهم أصحاب السبق بالتضحية والفداء، من أجل أمتهم، التي من العار بمكان عظيم أن تنساهم، أو تغفل عن مناصرتهم ومؤازرتهم، وبخاصة حين يمارسون إضراباتهم الاحتجاجية على بقائهم في الأسر، وجور القضاء فيهم، والتعسف في حجزهم إدارياً أو توقيفاً دون محاكمات، ولا اتهامات معلنة، وعلى سوء معاملتهم وعلاجهم، والبطش بزائريهم من الأهل؛ آباء، وأمهات، وأزواج، وأبناء، وهنا تجدر الإشارة إلى أن مجلس الإفتاء الفلسطيني الأعلى أفتى بمشروعية الإضرابات التي يخوضها الأسرى للغايات المذكورة، ما داموا لم يجدوا وسيلة غيرها لتحصيل حقوقهم.

قرار مجلس الإفتاء الأعلى الخاص بحكم إضراب الأسرى في السجون الإسرائيلية:

سبق لمجلس الإفتاء الأعلى في فلسطين، أن أصدر فتوى بحكم إضراب الأسرى في السجون الإسرائيلية عن الطعام، تحت رقم: 1 /98 بتاريخ 31/ 5/ 2012م، جاء فيها:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛

فإن حفاظ الإنسان على حياته وبقائه أصل واجب، وابتعاده عن كل ما يؤذي نفسه ويضر بها مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، التي جاءت لحفظ الضرورات الخمس، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال.

لكن الإنسان قد يتعرض لضرورات وموجبات تتطلب منه القيام بأعمال تتعارض مع هذا الأصل في ظاهرها، لكنها تستند إلى أدلة شرعية، يمارسها المرء لغايات عظمى، وأهداف كبيرة، ومن ذلك امتناع الأسرى عن تناول الطعام، كوسيلة لمقاومة السجان الظالم الغاشم، وأسلوب ضغط على المحتل لتحصيل حقوقهم المشروعة، مما كفلته لهم الأديان السماوية، والمواثيق الدولية.

ويشكل إضراب الأسرى في سجون الاحتلال باباً من أبواب الصبر والمصابرة؛ لنيل

مطالبهم العادلة، وأسلوباً من أساليب مقاومة المحتل ومقارعته في رفع الظلم والضيم عنهم، وهو جهاد مشروع، دلت على ذلك العديد من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى: {يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}[1]، فالإضراب سلاح يغيظ الاحتلال ويحرجه، وقوله تعالى: { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}[2]، فالآية شملت كل موطئ يغيظ الكفار؛ ومن ذلك الإضراب الذي يفضح جرائم المحتل، ويكشف ظلمه، ويحرجه على الملأ.

فإضراب الأسرى إذا تعين كوسيلة لا بد منها، للحصول على الحقوق المشروعة، بعد استنفاذ الوسائل الممكنة، وغدا أمراً لا بد منه، كوسيلة لرفع الظلم والاضطهاد، وكان يرجى تأثيره في العدو، وفضح ممارساته، أصبح مشروعاً إلى أن يحقق الأسرى مطالبهم في رفع الظلم عنهم، وتحقيق مطالبهم المشروعة.

والأسرى أدرى بظروفهم، وأكثر فقهاً لأحوالهم، فابن تيمية، رحمه الله، يقول: (إذا اختلف دعاة الإسلام في الأمر، فالأحوط أن يكون رأي المجاهدين)، وقال الإمامان عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل، رضي الله عنهما: (إذا اختلف في شيء، فانظر ما عليه أهل الثغر، فإن الحق معهم)[3]، لأن الله عز وجل يقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ }[4].

وعليه؛ فإن مجلس الإفتاء الأعلى يرى جواز قيام الأسرى في سجون الاحتلال بالكف عن

---

1. الفتح: 29.
2. التوبة: 120.
3. المبدع في شرح المقنع: 3 /285.
4. العنكبوت: 69.

تناول الطعام، كأسلوب ضغط على السجان، إذا لم يجدوا وسيلة غيره، لتحصيل حقوقهم الإنسانية المشروعة، فهو أداة تستخدم في نطاق ضيق ضمن ضوابط محددة، على رأسها إخلاص النية لله في هذا العمل، والافتقار إلى وسائل أقل ضرراً على حياة الأسرى[1].

مساندة فعاليات الأسرى:

الأسرى بإضرابهم المشروع الذي تصيبهم فيه شدة العطش، وينتابهم الإعياء والتعب، وتلحق بهم المجاعة الشديدة، يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ سجانهم، احتساباً لوجه الله، وعملاً لرضاه سبحانه، فهم يجابهون سلاسل سجانيهم، وحرابهم، وأسلحتهم الفتاكة، بجوع بطونهم، وعطش أجسادهم، وكانت لهم جولات مشهودة على هذا الصعيد، توجت بانتصارات حققت بعض المرجو، في زمن طال فيه الليل، وندرت فيه الأنوار، لكن الأسرى لم يفقدوا الأمل، وما زال لديهم يقين بأن الفجر آتٍ آت، يردد لسانهم وحالهم، قول أبي القاسم الشابي: وَلا بُـدَّ لِلَّيْـلِ أنْ يَنْجَلِـي وَلا بُدَّ للقَيْدِ أَنْ يَـنْكَسِـر

ومن قبله وبعده، تردد حناجرهم عن يقين يملأ قلوبهم قول الله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ}[2].

فنصر الله قريب قريب، ولكن الناس يستعجلون، ولا يحل لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يساوره شك أو ريبة في حقيقة تحقق النصر المبين للإسلام والمسلمين، وحتميته، ولو بعد حين، كيف لا؟! ورب العزة والملكوت قطع وعداً بذلك، فقال عز وجل: {كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}[3].

تتعزز معنويات الأسرى، ويقوى صمودهم، حين يجدون ناسهم معهم، وهم يتابعون

1. للإطلاع على مزيد من قرارات مجلس الإفتاء الأعلى في فلسطين، انظر www.darifta.org.
2. البقرة: 214.
3. المجادلة: 21.

الأخبار على هذا الصعيد، ومن العار أن تفتر الهمم تجاههم.

ومن أبرز المطلوب القيام به على صعيد نصرة الأسرى، الاستجابة إلى مطالبتهم الحثيثة بالوحدة، ونبذ الفرقة والانقسام والتشرذم؛ لأنهم خير من يعي مرامي قول الله تعالى: {وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}(*)

تطلع الأسرى للحرية:

عبر الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود بجلاء، عن تطلع الإنسان الكريم إلى الحرية والكرامة، مهما كلفه ذلك من تضحيات، فأنشد قائلاً:

سَأَحْمِلُ رُوحي على راحَتي ... وأُلقي بِها في مَهاوي الرَّدى

فإمّا حَياةٌ تَسُرُّ الصَّـــديقَ ... وإمّا ممــاتٌ يُغيظُ العِــدى

لَعَمرُكَ إنّي أرى مَصرَعي ... وَلَكِنْ أَغُــذُّ إليه الخُـــطى

أرى مَصرعي دُونَ حَقّي السليب ... ودُونَ بِلادي هُو المُبتَغى

لَعَمْرُكَ هذا مَماتُ الرِّجالِ ... ومَنْ رَامَ مَوتاً شَريفاً فَذا

فَكَيفَ اصطِباري لِكَيدِ الحَقودِ ... وكَيفَ احتِمالي لِسَوم الأذى

بِقَلبي سَأرمي وُجوهَ الـعِدا ... فَقَلبي حَديدٌ وناري لَظى

وَأحمي حِياضي بِحَدِّ الحُسامِ ... فَيَعلَمُ قَومي بِأَنّي الفتى

سائلين الله العلي القدير أن ييسر لأسرانا البواسل الفرج القريب، والنصر المؤزر، وأن يحسن خلاصهم، ويجزي ذويهم خيراً على جميل صبرهم، ورباطة جأشهم، وأن يجمعنا وإياهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ويوردنا وإياهم حوض نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* الأنفال: 46.

الفصل الخامس
مناهج وقيم

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم		
.1	يعنى بسلامة الصدور ـ الحلقة الأولى	178
.2	يعنى بسلامة الصدور ـ الحلقة الثانية	183
.3	يعنى بسلامة الصدور ـ الحلقة الثالثة والأخيرة	188
.4	يبين دور الصبر على الابتلاء في تكفير الذنوب ورفع الدرجات	193
.5	ينبذ التطرف والمغالاة	198
.6	يبين أن خير المتدابرين من يبدأ بالسلام	203
.7	يخبر عن القوم الذين لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ ـ الحلقة الأولى	208
.8	يخبر عن القوم الذين لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ ـ الحلقة الثانية	213
.9	يخبر عن القوم الذين لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ ـ الحلقة الثالثة والأخيرة	218
.10	يبين أفضل الناس وخير الأمم ـ الحلقة الأولى	223
.11	يبين أفضل الناس وخير الأمم ـ الحلقة الثانية	228
.12	يبين أفضل الناس وخير الأمم ـ الحلقة الثالثة والأخيرة	233
.13	ينهى عن الحسد ـ الحلقة الأولى	238

.14	ينهى عن الحسد ـ الحلقة الثانية	243
.15	ينهى عن الحسد ـ الحلقة الثالثة والأخيرة	248
.16	يحدث عن الخذلان والتعاضد	253

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يعنى بسلامة الصدور

الحلقة الأولى

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (لا تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هاهنا، وَيُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ، أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ)[1].

يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه هذا مكانة القلب تجاه ما يصدر عن صاحبه من سلوك، وبالتالي تجاه مصيره وجزائه، فهو المحرك للخير أو الشر، والمنطلق للسلوك القولي والفعلي، فهو بيت المقاصد، ومبعث التصرف، من هنا حدد عليه الصلاة والسلام مقر التقوى في الجسد، مبيناً أن محلها القلب من خلال إشارته إلى صدره ثلاث مرات، ومعلوم أن التقوى تعني في اللغة الوقاية والخشية، وحدد بعض السلف معناها الاصطلاحي، فنسب إلى الإمام علي، رضي الله عنه، تعريفها: بأنها العمل بالتنزيل، والخوف من الجليل سبحانه، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.[2]

التقوى في القلوب:

كون محل التقوى القلب، يعني شيئاً كثيراً، من ذلك أن العبرة بها أولاً لا بغيرها، فليست العبرة بالمظاهر والكميات، فكم من كاسية الجسد، عارية الجزاء، وكم من حريص على حسن المظهر، وقلبه مليء بالشر، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: (...إِنَّ اللهَ لا

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.
2. شرح العقيدة الطحاوية: 1/ 1675.

يَنْظُرُ إلى أَجْسَادِكُمْ، ولا إلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ، وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إلى صَدْرِه)[1]

والله جلَّ ذكره حذر من الانخداع ببعض مظاهر الناس، فقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ}.[2]

وثبت عن ابن عمر، قوله: (لا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى، حتى يَدَعَ ما حَاكَ في الصَّدْرِ).[3]

وهذا القول يتفق مع حديث النَّوَّاسِ بن سِمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ، حيث قال: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، عن الْبِرِّ وَالإِثْمِ، فقال: الْبِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ ما حَاكَ في صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه الناس)[4].

ومن دواعي التدبر في معاني الحديث أعلاه، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، ذكر تحديد موضع التقوى، وأنه في الصدر، في سياق الحديث عن قضايا سلوكية، فجاء هذا التحديد بعد النهي عن سلوكات الحسد والنجش والتباغض والتدابر، وبيع الأخ على بيع أخيه، وأمر المسلمين بأن يكونوا عباد الله إخواناً، والتأكيد على أن الْمُسْلِم أَخُو الْمُسْلِم، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، مما يبرز دور التقوى في تقويم السلوك واستقامته.

وبالنسبة إلى قوله صلى الله عليه وسلم:(بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم) فهو يعني أنه يكفي محتقر أخاه من الشر، احتقار أخيه، فهو يجلب له الويلات، وفي تحفة الأحوذي، أن التقوى محلها مخفي عن الأعين، فلا يحكم بعدمها لأحد حتى يحقره، أو يقال محل التقوى هو القلب، فمن كان في قلبه التقوى لا يحقر مسلماً؛ لأن المتقي لا يحقر مسلماً.[5]

في الجسد مضغة:

في حديث نبوي آخر، جاء التأكيد على أهمية القلب كباعث للسلوك، لشكله ونوعه،

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.
2. البقرة: 204.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس.
4. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم.
5. تحفة الأحوذي: 6/ 46.

فعن النُّعْمَان بن بَشِيرٍ، قال: (سمعت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: الحَلالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ، لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ من الناس، فَمَنْ اتقى الْمُشَبَّهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، ألا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، ألا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وَهِيَ القَلْبُ)[1].

فهذا الحديث الشريف يبرز أهمية دور القلب في تحديد أنواع السلوك وجزائه، وهو بهذا يشبه ما تضمنه حديث أبي هريرة سالف الذكر، من حيث ذكر دور القلب في سياق الحديث عن قضايا سلوكية، تتعلق بالحلال والحرام، والاستبراء للدين من الشبهات، وفي عمدة القاري، قوله: (مضغة) أي قطعة من اللحم، سميت بذلك لأنها تمضغ في الفم لصغرها، وقوله: (صلحت) بفتح اللام وضمها، والفتح أصح، والصلاح ضد الفساد، والمفسدة خلاف المصلحة، وقوله: (القلب) هو الفؤاد، وقد يعبر به عن العقل، وقال الفراء في قوله تعالى: {إنَّ في ذَلكَ لذكرى لمن كَانَ لَهُ قَلب...}[2]، أي عقل، وقيل: القلب أخص من الفؤاد، وقال الأصمعي: وفي البطن الفؤاد، وهو القلب، سمي به لتقلبه في الأمور، وقيل: لأنه خالص ما في البدن، إذ خالص كل شيء قلبه، وأصله مصدر، وقلبت الشيء أقلبه قلباً، إذا رددته علي بذاته، وقلبت الإناء رددته على وجهه، وقلبت الرجل عن رأيه، وعن طريقه، إذا صرفته عنه، ثم نقل وسمي به هذا العضو الشريف لسرعة الخواطر فيه، وترددها عليه، وقد نظم بعضهم هذا المعنى، فقال:

ما سمي القلب إلاَّ من تقلبه فاحذر على القلب من قلب وتحويل

وقال بعضهم: ليحذر اللبيب من سرعة انقلاب قلبه، إذ ليس بين القلب والقلب إلاَّ

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه.
2. ق:37.

التفخيم، وما يعقلها إلاَّ كل ذي فهم مستقيم.[1]

وروي عن عبد اللهِ، قال: (أَكْثَرُ ما كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يَحْلِفُ: لا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ)[2] ، ويؤكد هذا قوله صلى الله عليه وسلم:(إِنَّ قُلُوبَ بني آدَمَ كُلَّهَا بين إِصْبَعَيْنِ من أَصَابِعِ الرحمن، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ، حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمَّ قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: اللهم مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا على طَاعَتِكَ)[3]

القلب السليم والمنيب:

ما دام القلب يحرك سلوك صاحبه، فإن الله عز وجل نبه إلى دور القلوب السليمة والمنيبة في تحديد جزاء أصحابها يوم القيامة، فأصحاب القلوب المنيبة يبشرهم ربهم بالفوز بالجنة، حسب ما جاء في قوله تعالى: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ* هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ* مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ}[4].

وفي التفسير الكبير، أن القلب المنيب في قوله تعالى: {وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ} كالقلب السليم في قوله تعالى: {إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[5]؛ أي سليم من الشرك، ومن سلم من الشرك يترك غير الله، ويرجع إليه، فكان منيباً، ومن أناب إلى الله بريء من الشرك، فكان سليماً.[6]

وعلى لسان إبراهيم، عليه السلام، يقول جل شأنه: {وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ* يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ* إِلا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[7].

---

1. عمدة القاري: 1/ 298.
2. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب مقلب القلوب.
3. صحيح مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء.
4. ق: 31 – 33.
5. الصافات: 84.
6. التفسير الكبير: 28/ 154.
7. الشعراء: 87 – 89.

والمراد بسليم في هذه الآية الكريمة السلامة من فتنة المال والبنين، ومعنى سلامة القلب سلامته من آفات الكفر والمعاصي، ومما أكرم الله تعالى به خليله، ونبه على جلالة محله في الإخلاص أن حكى استثناءه هذا حكاية راض بإصابته فيه، ثم جعله صفة له في قوله: {وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْراهِيمَ* إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[1]،[2].

وقد مدح إبراهيم، عليه السلام، في القرآن الكريم من قبل رب العزة سبحانه، كونه صاحب قلب منيب، كما جاء في قوله جل شأنه: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ}.[3]

وورد وصف (منيب) لشريحة من عباد الله، كما في قوله تعالى: {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ}[4]، ومما لا ريب فيه أن وصف منيب وسليم للقلب، يؤكد أهمية العناية بسلامة الصدور والقلوب؛ لتحقيق النجاة لأصحابها، والفوز بالجنة.

فهذه وقفة عند مقام العناية بسلامة الصدور، عسى أن يهدينا الله لتقدير هذا الجانب المهم من كينونة الإنسان، والعمل على العناية به، آملين متابعة الوقوف عند مزيد من جوانب هذه المسألة الفطرية والإيمانية، في ضوء ما روي بشأنها عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الصافات: 83 – 84
2. الكشاف: 3/ 326.
3. هود: 75.
4. ق:8.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يعنى بسلامة الصدور

الحلقة الثانية

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (وَيَقُولُونَ الْكَرْمُ، إنما الْكَرْمُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ)[1]

تعرضت الحلقة السابقة إلى بيان مكانة القلب تجاه ما يصدر عن صاحبه من سلوك، وأنه وعاء التقوى، وهذا يعني شيئاً كثيراً، من ذلك أن العبرة بالتقوى أولاً لا بغيرها، وبما يكون في القلب، بغض النظر عن المظاهر التي يمكن أن تكون خدّاعة في بعض الأحيان، كما وقفت تلك الحلقة عند قوله صلى الله عليه وسلم: (ألا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وَهِيَ القَلْبُ) مما يشير بجلاء إلى أهمية دور القلب في تحديد أنواع السلوك وجزائه، إضافة إلى وقوفها المجمل عند مسألة القلب السليم والمنيب، حيث استشهد بآيات قرآنية دالة على دور القلب السليم والمنيب في تحديد جزاء أصحابهما يوم القيامة، فأصحاب القلوب المنيبة يبشرهم ربهم بالفوز بالجنة، ومن أهم وجوه سلامة القلوب سلامتها من فتنة المال والبنين، ومن آفات الكفر والمعاصي، وقد مدح إبراهيم، عليه السلام، في القرآن الكريم من قبل رب العزة سبحانه، كونه صاحب قلب منيب، وورد وصف (منيب) لشريحة من عباد الله، مع استنتاج تأكيد أهمية العناية بسلامة الصدور والقلوب؛ من وصف منيب وسليم للقلب لتحقيق النجاة لأصحابها، والفوز بالجنة.

---

* صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: إنما الكرم قلب المؤمن.

وفي الحديث السابق، يصف الرسول، صلى الله عليه وسلم، قلب المؤمن بالكرم، وينزع هذا الوصف عن العنب الذي هو أحد مصادر الخمر، وجاء في فتح الباري، أن الحصر – إنما– هنا ليس على ظاهره، وإنما المعنى أن الأحق باسم الكرم قلب المؤمن، ولم يرد أن غيره لا يسمى كرماً.

وفيه قول الخطابي أن المراد بالنهي تأكيد تحريم الخمر بمحو اسمها، ولأن في بقاء هذا الاسم لها تقريراً لما كانوا يتوهمونه من تكرم شاربها، فنهى عن تسميتها كرماً، وقال إنما الكرم قلب المؤمن؛ لما فيه من نور الإيمان، وهدى الإسلام.

وعن الشيخ أبي محمد بن أبي جمرة، أنه لما كان اشتقاق الكرم من الكرم، والأرض الكريمة هي أحسن الأرض، فلا يليق أن يعبر بهذه الصفة إلا عن قلب المؤمن، الذي هو خير الأشياء؛ لأن خير ما في المؤمن قلبه، الذي إذا صلح صلح الجسد كله، وهو أرض لنبات شجرة الإيمان، فينبغي للعاقل أن يتعرض لمعالجة قلبه؛ لئلا يهلك وهو على الصفة المذمومة.[1]

نكت القلوب بالفتن:

قال حُذَيْفَةُ: سمعت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (تُعْرَضُ الْفِتَنُ على الْقُلُوبِ، كَالْحَصِيرِ، عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حتى تَصِيرَ على قَلْبَيْنِ؛ على أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ، ما دَامَت السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلا ما أُشْرِبَ من هَوَاهُ)[2]

1. فتح الباري: 10/ 566 – 568.
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً، وأنه يأرز بين المسجدين.

جاء في صحيح مسلم بشرح النووي، أن معنى (تُعْرَضُ) أنها تلصق بعرض القلوب؛ أي جانبها، كما يلصق الحصير بجنب النائم، ويؤثر فيه شدة التصاقها به، قال: ومعنى عوداً عوداً؛ أي تعاد وتكرر، شيئاً بعد شيء، وقيل: معناه تظهر على القلوب، أي تظهر لها فتنة بعد أخرى.

وقوله: (كَالْحَصِيرِ) أي كما ينسج الحصير عوداً عوداً، وشظية بعد أخرى، قال القاضي: وعلى هذا يترجح رواية ضم العين (عُوداً)، وذلك أن ناسج الحصير عند العرب، كلما صنع عوداً أخذ آخر ونسجه، فشبه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى، بعرض قضبان الحصير على صانعها، واحداً بعد واحد. وقوله صلى الله عليه وسلم: (فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ)، معنى أُشربها دخلت فيه دخولاً تاماً، وألزمها، وحلت منه محل الشراب، ومنه قوله تعالى: {...وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ...}(*)؛ أي حب العجل، ومعنى (نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ) أي نقط نقطة، قال ابن دريد وغيره: كل نقطة في شيء بخلاف لونه، فهو نكت، ومعنى أنكرها ردها، والله أعلم.

وقال القاضي عياض، رحمه الله: ليس تشبيهه بالصفا بياناً لبياضه، لكن صفة أخرى لشدته على عقد الإيمان، وسلامته من الخلل، وأن الفتن لم تلصق به، ولم تؤثر فيه؛ كالصفا، وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، وقوله: (مُجَخِّيًا) فهو بميم مضمومة، ثم جيم مفتوحة، ثم خاء مكسورة، ومعناه مائلاً، وفسره الراوي في الكتاب بقوله منكوساً، وهو قريب من معنى المائل، قال القاضي عياض قال لي ابن سراج: ليس قوله (كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا) تشبيهاً لما تقدم من سواده، بل هو وصف آخر من أوصافه، بأنه قلب ونكس، حتى لا يعلق به خير، ولا حكمة، ومثله بالكوز المجخي، وبينه بقوله: (لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا) فشبه القلب

* البقرة:93.

الذي لا يعي خيراً بالكوز المنحرف، الذي لا يثبت الماء فيه، ومعنى الحديث أن الرجل إذا تبع هواه، وارتكب المعاصي، دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة، وإذا صار كذلك افتتن، وزال عنه نور الإسلام، والقلب مثل الكوز؛ فإذا انكبَّ انصبَّ ما فيه، ولم يدخله شيء بعد ذلك، وأما قوله: (أَسْوَدُ مُرْبَادًّا) فهو البياض في سواد، وذلك أن شدة البياض في سواد لا يسمى ربدة، وإنما يقال لها بلق، إذا كان في الجسم، وحوراً، إذا كان في العين، والربدة إنما هو شيء من بياض يسير، يخالط السواد، كلون أكثر النعام، ومنه قيل للنعامة ربداء، فصوابه شبه البياض، لا شدة البياض، وقيل: الربدة لون بين السواد والغبرة، وقال ابن دريد: الربدة لون أكدر، وقال غيره: هي أن يختلط السواد بكدرة، وقال الحربي: لون النعام بعضه أسود، وبعضه أبيض، ومنه اربد لونه إذا تغير، ودخله سواد، وقال نفطويه: المربد الملمع بسواد.[1]

نعمة نزع الغل والشر من القلوب:

يحسن بالمرء دائماً تفقد قلبه، وتطهيره من عوالق الشر والإثم، وبخاصة الحقد والغل والرياء، وتلك من أشنع أمراض القلوب، التي من آلاء الله على عباده الصالحين، أنه يطهر قلوبهم منها، ويقول جل شأنه بهذا الخصوص:{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}[2]

وقد تفضل الله جل في علاه بمنح حسن الجزاء لأصفياء القلوب، فقال عز وجل:{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[3]

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 2/ 171 - 173.
2. الحجر: 47.
3. الأعراف: 43.

ومن خصائص المؤمنين وصفاتهم المحمودة، حرصهم الدائم على تنقية قلوبهم من الأدران، حتى إنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء أن يهبهم نعمة الشفاء من الغل تجاه المؤمنين، مصداقاً لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}[1]، وفسر الغل هنا بالخيانة والحقد[2]، وبعضهم فسره بالغش، والبغض، والحسد. [3]

وفي المحصلة؛ فإن المؤمن الصالح يتعاهد قلبه بالتطهير، وصرف المفسدات الضارة عنه، كيف لا؟! وهو محرك السلوك، والباعث للأقوال والأفعال، فإذا كان المرء يعنى بسلامة محرك مركبته، ويأخذ الأسباب لذلك، فأخذه ما يلزم من الأسباب لنقاء قلبه أولى وأجدر.

فهذه وقفة أخرى عند بيان أهمية القلوب وسلامة الصدور، عسى أن يهدينا الله لتقدير هذا الجانب المهم من كينونة الإنسان، والعمل على العناية به، آملين متابعة الوقوف عند مزيد من جوانب هذه المسألة الفطرية والإيمانية في ضوء ما روي بشأنها عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الحشر: 10.
2 تفسير السمعاني: 5/ 402.
3. فتح القدير: 5 /202.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
يعنى بسلامة الصدور
الحلقة الثالثة والأخيرة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، قال أبو هُرَيْرَةَ: اقرءوا إن شِئْتُمْ: {فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ})(*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى وصف قلب المؤمن بالكرم، وإلى تفسير مسألة نكت القلوب بالفتن، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَ الفتن نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، مع الوقوف عند تشبيه النبي، صلى الله عليه وسلم، القلب الذي لا يعي خيراً بالكوز المنحرف، الذي لا يثبت الماء فيه، بمعنى أن الرجل إذا تبع هواه، وارتكب المعاصي، دخلت ظلمة قلبه بكل معصية يتعاطاها، وإذا صار كذلك افتتن، وزال عنه نور الإسلام، والقلب مثل الكوز؛ فإذا انكبَّ انصبَّ ما فيه، ولم يدخله شيء بعد ذلك، كما وقفت تلك الحلقة عند شواهد قرآنية دالة على نعمة نزع الغل والشر من القلوب، مما يُحَفِّز الناس دائماً على تفقد قلوبهم، وتطهيرها من عوالق الشر والإثم، وبخاصة الحقد والغل والرياء، حيث من خصائص المؤمنين وصفاتهم المحمودة، حرصهم الدائم على تنقية قلوبهم من الأدران، حتى إنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء، أن يهبهم نعمة الشفاء من الغل تجاه المؤمنين، وسواء فسر الغل بالخيانة، والحقد بالغش والبغض والحسد، فإن المؤمن الصالح يتعاهد قلبه بالتطهير، وصرف المفسدات الضارة عنه.

---

* صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة السجدة، باب قوله: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين} (السجدة: 17).

وفي الحديث الشريف أعلاه ذكر لحالة من أحوال القلب، تتعلق بالخواطر التي تنتابه، ومعلوم أن الإنسان تجول في نفسه خواطر، تدفعه ليحدث نفسه بها، وهي قد تكون من صنوف الخير أو الشر، ومن عفو الله تعالى وجوده ورحمته أنه يتفضل بمثوبة من ينوي الخير، حتى وإن لم يتمكن من فعله، ويثيب من ينوي الشر، ولا يفعله ورعاً، فيبدل السيئات حسنات، مصداقاً لقوله، صلى الله عليه وسلم: (مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا، كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، لَمْ تُكْتَبْ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ) [1].

والخواطر القلبية التي يشير إليها الحديث أعلاه، هي المفتقرة إلى تخيل حقيقة النعيم المعد لأهل الجنة، فهو لا يخطر على قلب أحد أو باله، مما يعني أنه غير ممكن التصور من قبل البشر، في أحوالهم العادية.

علم السرائر ووسوسة النفس وحديثها:

الخواطر القلبية يعبر عنها أحياناً بحديث النفس، وأحياناً بوسوستها، ومن عظمة الله جل في علاه أنه يَعْلَم السرائر، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فيعلم السر المكنون، ومما جاء في القرآن الكريم عن علم الله بحديث النفس، وما تخفيه، قوله جل شأنه: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [2]، فخواطر النفس مكشوفة لله تعالى، بل الله سبحانه أقرب لصاحب النفس من عرق وريده، أيْ إن الله تعالى يعلم ما تحدثُ الإنسان بهِ نفسه، وما يخطرُ ببالهِ، والوسوسةُ الصوتُ الخفيُّ، ومنْهُ وسواسُ الحُليِّ، وقوله تعالى: {وَنَحْنُ أقربُ إِلَيْهِ مِنْ حبل الوريد}؛ أي إن الله تعالى أعلمُ

1. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب إذا همَّ العبد بحسنة كتبت، وإذا همَّ بسيئة لم تكتب.
2. ق: 16.

بحالِه ممنْ كانَ أقربُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريدِ، فعبرَ عنْ قُربِ العلمَ بقُربِ الذاتِ تجوزاً؛ لأنَّهُ موجبٌ لَهُ، وحبلُ الوريدِ مثلٌ في فرطِ القربِ، والحبلُ العِرْقُ، وإضافتُه بيانيةٌ، والوريدانِ عرقانِ مكتنفانِ بصفحتيْ العنقِ في مقدِّمِها، يردانِ من الرأسِ إليهِ، وقيلَ: سميَ وريداً لأنَّ الروحَ تَرِدُهُ.[1]

وتكرر التذكير القرآني بالعلم الإلهي لما يجول في الخواطر والنفوس والقلوب، فيقول جل شأنه: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}[2]، ويقول عز وجل:{وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}[3].

وكثيراً ما يأتي هذا التذكير في معرض التخويف من عقاب الله، والحث على خشيته، فلا شيء يمكن أن يغيب عن محيط علمه سبحانه، مصداقاً لقوله سبحانه:{قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.[4]

وعقب سبحانه على بعض مواقف المنافقين الذين يظهرون ما لا يبطنون، بالتذكير بالحقيقة الإيمانية، التي تفيد أنه سبحانه يعلم ما في الصدور، فقال تعالى:{هَا أَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.[5]

ومن الأحداث التي تخللها الحديث عن اختصاص الله بعلم ما في القلوب، ما جاء في حديث أُسَامَةَ بن زَيْدٍ، قال: (بَعَثَنَا رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، في سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا

1. تفسير أبي السعود: 8/ 128.
2. غافر: 19.
3. طه: 7.
4. آل عمران: 29.
5. آل عمران: 119.

الْحُرَقَاتِ من جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلاً، فقال: لا إِلَهَ إلا الله، فَطَعَنْتُهُ، فَوَقَعَ في نَفْسِي من ذلك، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: أَقَالَ لَا إِلَهَ إلا الله، وَقَتَلْتَهُ؟! قال: قلت: يا رَسُولَ اللهِ؛ إنما قَالَهَا خَوْفًا من السِّلاحِ، قال: أَفَلا شَقَقْتَ عن قَلْبِهِ، حتى تَعْلَمَ، أَقَالَهَا أَمْ لا؟! فما زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حتى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ، قال: فقال سَعْدٌ: وأنا والله لا أَقْتُلُ مُسْلِمًا حتى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ، -يَعْنِي أُسَامَةَ-، قال: قال رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلِ الله: {وَقَاتِلُوهُمْ حتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ}؟! فقال سَعْدٌ: قد قَاتَلْنَا حتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حتى تَكُونَ فِتْنَةٌ).(*)

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، رفض قبول تبرير قتل حدث في معركة، بسبب وجود عذر يمنعه، وهو النطق بالشهادة ظاهراً، وتبرير تجاوز هذا العذر بحجة أن المقتول نطق بالشهادة؛ هرباً من موت محقق رفضه صلى الله عليه وسلم؛ لأن ما في القلوب من مقاصد ونوايا لا يعلمها إلا الله تعالى.

اختبار ما في القلوب:

لو ترك الناس إلى مزاعمهم، لأظهروا أنهم على أفضل ما يرام، بخلاف ما يبطنه بعضهم في قلوبهم، من هنا اقتضت الحكمة الربانية أن يُعرَّض الناس إلى اختبارات، تهدف إلى الكشف عن مكنون قلوبهم، ويعبر عن عملية الكشف هذه بمصطلحات التمحيص والابتلاء وما شابه، كما جاء في الآية القرآنية التي عقبت على بعض أحداث غزوة أحد، فقال تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا

* صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله.

قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.[1]

وَمعنى الآيَة: أَن الله تَعَالَى أَرَادَ تمييز المُؤمنِينَ من المُنَافِقين، فأوقع النعاس على المُؤمنِينَ أَمَنَة لَهُم، حَتَّى أمنُوا، وَلم يُوقع على المُنَافِقين فبقوا على الخَوْف.

فالنعاس غشي قلوب المؤمنين، بينما المنافقون أهمتهم أنفسهم، وظنوا بالله غير الحق.

وقَوْله تَعَالَى: {وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ} أي لِيَمْتَحِنَ اللهُ، {مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ}؛ أي يُخْرِجَ وَيُظْهِرَ، وعقب الله على امتحان القلوب هذا بقوله عز وجل: {وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}أي يعلم بِمَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.[2]

فهذه تتمة لجمل الحديث عن أهمية القلوب، وسلامة الصدور، آملين أن تلفت الانتباه إلى مكانة هذه المسألة الإيمانية، وأن تثير الشوق إلى مزيد من البحث في تفاصيلها وجوانبها، حسب ما جاء في الهدي القرآني، وما ورد عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. آل عمران: 154.
2. تفسير البغوي: 2/ 121.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يبين دور الصبر على الابتلاء في تكفير الذنوب ورفع الدرجات

عن عَائِشَة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (ما من مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ، إلا كَفَّرَ الله بها عنه، حتى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا)[1]

في خضم الابتلاءات والشدائد التي يتعرض لها الناس في حياتهم، يأتي هذا الحديث الشريف ليبلسم الجراح، ويأخذ باليد، ويؤنس المصابين بالبلوى، فحتى أصغر المصائب تساهم في محو آثار الذنوب والخطايا، فما يؤذي المسلم من وخز شوكة يكفر بها من خطاياه، قال الأصمعي: شاكتني الشوكة إذا دخلت في جسدي، ويقال: أشكت فلاناً، أي آذيته بالشوكة.[2]

أنواع من الابتلاءات التي تكفر الخطايا:

إذا كان الحديث الشريف أعلاه، قد حدد سقفاً عاماً للابتلاءات التي تكفر الذنوب، فذكر مطلق المصائب، وسقفاً أدنى لها، متمثلاً بالشوكة التي توخز الجسد، فإن أنواع الابتلاءات من هذا القبيل لا تعد ولا تحصى، وقد أتت بعض النصوص الشرعية على ذكر بعضها، كما في قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}[3]

ومعنى (لنبلونكم)؛ أي لنصيبنكم إصابة من يختبر أحوالكم؛ أتصبرون على البلاء، وتستسلمون للقضاء؟ {بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ}؛ أي بقليل من ذلك، فإن ما وقاهم عنه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم، وإنما أخبر به قبل الوقوع؛ ليوطنوا عليه نفوسهم، ويزداد

1. صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض.
2. عمدة القاري: 21 /208.
3. البقرة: 155.

يقينهم عند مشاهدتهم له، حسبما أخبر به؛ وليعلموا أنه شيء يسير، له عاقبة حميدة.[1]

وعن ابن عباس أن الابتلاء بالخوف هنا يعني خوف العدو، و(الجوع) يعني القحط، و(نقص من الأموال) بالخسران والهلاك، و(الأنفس) يعني بالقتل والموت، وقيل: بالمرض والشيب، و(الثمرات) يعني الجوائح في الثمار[2]، والمعنى والله أعلم يشمل ما ذكر وغيره، مما تحتمله معاني هذه الألفاظ ودلالاتها، إذ إن صور الابتلاء يصعب حصرها، حتى في إطار أصنافه المذكورة في الآية الكريمة، وورد ذكر بعض أنواع الابتلاءات في حديث أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما يُصِيبُ الْمُسْلِمَ من نَصَبٍ، ولا وَصَبٍ، ولا هَمٍّ، ولا حُزْنٍ، ولا أَذًى، ولا غَمٍّ، حتى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إلا كَفَّرَ الله بها من خَطَايَاهُ)[3].

قوله: (من نصب) أي من تعب، و(لا وصب) أي مرض، و(لا هم) هو المكروه يلحق الإنسان، بحسب ما يقصده، و(الحزن) ما يلحقه بسبب حصول مكروه في الماضي، وهما من أمراض الباطن، و(الأذى) ما يلحقه من تعدي الغير عليه، و(الغم) ما يضيق على القلب، وقيل في هذه الأشياء الثلاثة، وهي: (الهم والغم والحزن) إن الهم ينشأ عن الفكر فيما يتوقع حصوله مما يتأذى به، والغم كرب يحدث للقلب بسبب ما حصل، والحزن يحدث لفقد ما يشق على المرء فقده، وقيل: الغم والحزن بمعنى واحد، وقال الكرماني: الغم يشمل المكروهات جميعها؛ لأنه إما بسبب ما يعرض للبدن أو للنفس.[4]

أصناف المبتلين وأشدهم تعرضاً للمحن:

تُثبت الآثار الشرعية الصحيحة، أن الناس لا محالة متعرضون للمحن والمصاعب، والواقع يصدق ما جاء في مضامين تلك النصوص بالخصوص، حتى إن درجات الناس تتفاوت حيال

1. تفسير أبي السعود: 1/ 180.
2. تفسير البغوي: 1/ 130.
3. صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض...
4. عمدة القاري: 21 /209.

ذلك، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، والمؤمن يكفر الله من خطاياه بما يصيبه من أنواع الابتلاءات وصنوفها، فالأنبياء، عليهم السلام، هم أفضل الخلق، أصابهم من البلاء الشيء الكثير، ونبينا أيضاً، عليه الصلاة والسلام، تعرض للابتلاءات وصبر واحتسب، وهكذا المؤمنون من الطبيعي أن يبتلوا، فعليهم الصبر والاحتساب، ولهم العاقبة الحميدة، ونبه الله تعالى إلى مكافأة الصابرين بحسن العاقبة، فقال تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}[1].

وعَنْ مُصْعَبِ بنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: (يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَنْ أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً؟ قَالَ الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، وَيُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَدَعَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)[2].

والأمثل أفعل من المثالة، والجمع أماثل، وهم الفضلاء.[3]

ويتصدر الأمثلون قائمة المبتلين؛ لأن من كان أشد بلاء، كان أشد تضرعاً، والتجاءً إلى الله تعالى، فلا يلهو عن ذكر الله تعالى، ثم الأمثل فالأمثل؛ أي الأشرف والأعلى في المرتبة والمنزلة.[4]

فالنبيون، عليهم السلام، كانوا أشد الناس تعرضاً للابتلاءات والمحن، سواء في أنفسهم أم أبنائهم، أم بسبب اضطهاد أعدائهم، وقصص نوح وإبراهيم وأيوب وهود وصالح وموسى وعيسى ومحمد، وبقية إخوانهم، عليهم الصلاة والسلام جميعاً، تشهد على ضراوة المصائب التي تعرضوا لها، فصبروا، حتى عجز الصبر عن صبرهم، وحث الله على الاقتداء بصبر أولي العزم منهم، فقال سبحانه: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ...}.[5]

---

1. هود: 49.
2. صحيح ابن حبان: 7 /160، وأخرجه في صحيحه رقم: 2921.
3. فتح الباري: 10 /111.
4. شرح سنن ابن ماجة: 1 /291.
5. الأحقاف:35.

غاية الابتلاء:

من أبرز غايات الابتلاء التمحيص والاختبار، فالله تعالى يقول:{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}[1]

فالمؤمن يبتلى كما ابتلي الرسل، تارة بتسليط الأعداء، وتارة بالأمراض، وتارة بالخوف، وتارة بالفقر، إلى غير ذلك، فإذا صبر على البلوى، واتقى الله، فله خير عظيم، فعظم الجزاء يكون مع عظم البلاء.

وعن أَبي هُرَيْرَة، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (من يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا، يُصِبْ منه)[2]

وفي عمدة القاري، أن قوله: (يُصِبْ منه) بضم الياء، وكسر الصاد، والضمير الذي فيه يرجع إلى الله سبحانه، ومعناه أن الله يبتليه بالمصائب، وقيل: يوصله الله إلى مصيبة ليطهره من الذنوب، وقال ابن الجوزي: أكثر المحدثين يرويه بكسر الصاد (يصِب) وعن ابن الخشاب بفتح الصاد (يُصَب) وقيل: إن هذا أحسن وأليق، فقال الطيبي: الفتح أحسن للأدب، كما في قوله تعالى: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}[3]، وقال الزمخشري: أي نيل منه بالمصائب، فعلى الفتح يكون (يُصَب) على صيغة المجهول.[4]

مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالْخَامَةِ من الزَّرْعِ:

من الأحاديث الشريفة التي وصفت حال المؤمن عند تعرضه للمحن، مقارنة مع حال المنافق في مثل تلك الأحوال، ما روي عن عبد اللهِ بن كَعْبٍ، عن أبيه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالْخَامَةِ من الزَّرْعِ، تُفَيِّئُهَا الرِّيحُ مَرَّةً، وَتَعْدِلُهَا مَرَّةً، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَالْأَرْزَةِ، لا تَزَالُ حتى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً)[5].

1. محمد: 31.
2. صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض...
3. الشعراء: 80.
4. عمدة القاري: 21/ 211.
5. صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض...

جاء في عمدة القاري، أن الخامة، هي: الشجرة الغضة الرطبة من النبات، أول ما ينبت، وقيل: هي الطاعة الغضة منه، وقيل: هي الشجرة الغضة الرطبة، والمراد من تشبيه المؤمن بالخامة، في كونه تارة يصح، وتارة يضعف، كالخامة؛ تحمر، ثم تصفر، فلا تبقى على حالة واحدة، وقوله: (تفيئها الريح) أي تميلها، وقيل ترقدها، وأصله من فاء إذا رجع، وقوله: (وتعدلها أخرى) بفتح التاء وكسر الدال؛ أي ترفعها، وقوله: (ومثل المنافق كالأرزة) قيل: الأرز معروف، واحدته أرزة، وهو الذي يقال له الصنوبر.

وقوله: (انجعافها)؛ أي انقلاعها، وقال المهلب: معنى هذا الحديث أن المؤمن إذا جاءه أمر الله انصاع له، ولان، ورضي به، وإن جاءه مكروه رجا فيه الخير، وإذا سكن البلاء اعتدل قائماً، بالشكر لربه على البلاء، بخلاف الكافر؛ فإن الله عز وجل قد لا يتفقده باختبار، بل يعافيه في دنياه، وييسر عليه أموره؛ ليعسر عليه في معاده، حتى إذا أراد الله إهلاكه قصمه، قصم الأرزة الصماء؛ ليكون موته أشد عذاباً عليه وألماً. (*)

فالمحن والابتلاءات صنوف شتى، منها ما يصيب الجسد، ومنها ما يكون في الأهل والعيال والولد، ومنها ما يكون في المال، ولا تنحصر بزمان أو مكان، وما أحوج المضطهدين في الأرض، وبخاصة المؤمنين منهم، إلى تلمس العظات والعبر من منهجية الابتلاء وغاياته وحتميته، وصنوف المتعرضين له ومواقفهم منه، عسى أن يجدوا في ذلك ما يضمد جراحهم، ويواسيهم في مصائبهم، ويوجههم للاقتداء بالنبيين، وخاتمهم محمد، عليه وإياهم صلوات الله وسلامه، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* عمدة القاري: 21/ 209ـ210.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

ينبذ التطرف والمغالاة

عن المقداد بن عمرو الكندي، أَنَّهُ قال لِرَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (أَرَأَيْتَ إن لَقِيتُ رَجُلًا من الْكُفَّارِ، فَاقْتَتَلْنَا فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فقال: أَسْلَمْتُ لِلهِ، أأقتله يا رَسُولَ اللهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: لا تَقْتُلْهُ، فقال: يا رَسُولَ اللهِ، إنه قَطَعَ إِحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قال ذلك بَعْدَ ما قَطَعَهَا، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: لا تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ، فإنه بِمَنْزِلَتِكَ قبل أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قبل أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ التي قال)(*).

يحدد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف معياراً أخلاقياً، ينبع من مبادئ عقيدة الإسلام في التعامل مع المسالمين من الناس، فرفض عليه الصلاة والسلام قتل المحارب الذي اختار في لحظة ما الاستجارة بالإسلام، بل توعد المسلم الذي لا يحترم هذا المعيار بأشد عقوبة، مستخدماً صورة تشويقية مؤثرة للالتزام بذلك، والتنفير من تنكبه، حيث وضع المخالف القاتل في مقام المحارب الكافر، ووضع المقتول في مقام قاتله المسلم، بمعنى أن النجاة تكون للمستجير المقتول، والهلاك للقاتل الذي خالف معايير الإسلام في هذا الجانب، مما يوحي بضرورة تحلي المسلم بالاعتدال والحكمة، حتى وهو يقاتل أعداء الإسلام ومحاربيه، وذلك انطلاقاً من مبادئ الإسلام وقيمه وأحكام شريعته.

جاء في شرح هذا الحديث، أن قوله: (أرأيت؟) أي أخبرني. وقوله: (ثم لاذ مني بشجرة)

* صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب منه.

أي تحيل في الفرار مني بها، ومنه قوله تعالى: {يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا}[1]، وقوله: (قال: أسلمت لله) يثبت به الإسلام، فلا يحتاج إلى كلمة الشهادة. وقوله: (أأقتله؟) بهمزة الاستفهام، على سبيل الاستعلام، وقوله: (فإنه بمنزلتك) معناه أنه مثلك في كونه مباح الدم فقط، وإن قتله المسلم بعد ذلك، صار دمه مباحاً بحق القصاص، كالكافر بحق الدين، فالكافر المحارب إذا نطق بكلمة التوحيد، حرم قتله. [2]

جريمة قتل المستجير بالإسلام:

لم ينحصر تنفير الرسول، صلى الله عليه وسلم، من قتل المستجير بالإسلام في الصورة النظرية التي رسمها خلال مناقشة سائله، كما جاء في الحديث أعلاه، بل وقع التطبيق العملي لذلك، حين صدرت عن أحد الصحابة مخالفة للمبدأ المرسى بالخصوص، فعن أُسَامَةَ بن زَيْدٍ، قال: (بَعَثَنَا رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، في سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ[3] من جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلاً، فقال: لَا إِلَهَ إلا الله، فَطَعَنْتُهُ، فَوَقَعَ في نَفْسِي من ذلك، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: أَقَالَ: لَا إِلَهَ إلا الله وَقَتَلْتَهُ؟! قال: قلت: يا رَسُولَ اللهِ؛ إنما قَالَهَا خَوْفًا من السِّلَاحِ، قال: أَفَلَا شَقَقْتَ عن قَلْبِهِ حتى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟! فما زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ، حتى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ، قال: فقال سَعْدٌ: وأنا والله لا أَقْتُلُ مُسْلِمًا، حتى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ، يَعْنِي أُسَامَةَ، قال: قال رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلْ الله {وَقَاتِلُوهُمْ حتى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ}؟! فقال سَعْدٌ: قد قَاتَلْنَا حتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حتى تَكُونَ فِتْنَةٌ) [4].

1. النور: 63.
2. عمدة القاري: 17 /117.
3. الحرقة: اسم قبيلة من جهينة، وقوله: (فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ) إشارة إلى بطون تلك القبيلة. (كشف المشكل: 4 /20).
4. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله .

فعلى الرغم من منزلة الصحابي أسامة بن زيد عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حيث كان يحبه وأباه، وكان لذلك يلقب بالحب ابن الحب، إلا أن هذه المنزلة القلبية الرفيعة لم تشفع له ليقتل مستجيراً من الأعداء في ساحة المعركة، فلما تجرأ عليه وقتله، ووصل الخبر إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنكر عليه صنيعه، بصورة جعلت أسامة يتمنى أنه لم يسلم قبل وقوع هذا التجاوز منه، وذلك على إثر غضب الرسول، صلى الله عليه وسلم، منه، حيث قال له: (أَفَلَا شَقَقْتَ عن قَلْبِهِ، حتى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟ فقال أسامة على إثر ذلك: (فما زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حتى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ)

جاء في عمدة القاري، أن الكرماني تساءل كيف جاز تمني عدم سبق الإسلام؟ ثم أجاب بقوله: تمنى إسلاماً لا ذنب فيه، أو ابتداء الإسلام ليجب ما قبله. وقال الخطابي: ويشبه أن أسامة قد أول قوله تعالى: {فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}[1]، وهو معنى مقالته كان متعوذاً، وقال ابن بطال: كانت هذه القصة سبب تخلف أسامة أن لا يقاتل مسلماً بعد ذلك، ومن ثمة تخلف عن علي، رضي الله تعالى عنه، في الجمل وصفين، وقوله: (فما زال يكررها) أي يكرر مقالته: أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله، وفيه تعظيم أمر القتل بعدما يقول الشخص لا إله إلا الله، وقوله:(حتى تمنيت...إلخ) حاصل المعنى أني تمنيت أن يكون إسلامي الذي كان قبل ذلك اليوم بلا ذنب؛ لأن الإسلام يجب ما قبله، فتمنيت أن يكون ذلك الوقت أول دخولي في الإسلام؛ لآمن من جريرة تلك الفعلة، ولم يرد أنه تمنى أن لا يكون مسلماً قبل ذلك.[2]

ويستدل النووي بهذا الحديث على قاعدة معروفة في الفقه والأصول، تنص على أن

1. غافر: 85.

2 عمدة القاري: 24/ 36.

الأحكام يعمل فيها بالظواهر، والله يتولى السرائر.[1]

استقباح قتل المعاهد:

يرجو المسلم أن يكون الناس على أحسن حال مع الله تعالى، لكن هذا الرجاء من المحال تحققه، فالله تعالى يخاطب النبي، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}[2]، ويقول جلَّ شأنه: {...فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}[3]، من هنا لا يستغرب اختلاف الناس حيال المبادئ والعقائد السماوية، فيتصور واقعياً وجود الاختلاف العقائدي بين الناس، بل العداء بينهم، والمسلم يلتزم بمحددات الشرع وأحكامه، حيال نفسه والمسلمين وغيرهم، فإذا وجد في مجتمعه غير مسلمين، فإن علاقته معهم تنظم وفق معايير الشرع، التي منها احترام دم المعاهد وماله، وقد جاء في السنة النبوية التنفير الشديد من سفك دم المعاهد، فعن عبد اللهِ بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من قَتَلَ مُعَاهَدًا لم يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ من مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا)[4].

ويتماشى التغليظ في عقاب المعتدي على المعاهدين، مع المبادئ القرآنية التي فرضت على المسلمين التمييز بين من يناصبهم العداء وينتهك حرماتهم، وبين المعاهدين والمسالمين لهم من غير المسلمين، فقال جل شأنه: {لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ}[5]، ويقول عز وجل: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ

1. صحيح مسلم، بشرح النووي: 2/ 107.
2. يوسف: 103
3. فاطر: 8.
4. صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم.
5. آل عمران:113.

فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[1].

والله لما أمر بقتال أعداء الإسلام، خص المعتدين منهم، وحرم ممارسة الاعتداء، فقال جل شأنه: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ}[2]

فهذه عينة من النفحات الإيمانية الملزمة للمسلمين في علاقاتهم مع الآخرين، مما يعني أن الذين يخرجون عن إطارها فيقتلون الآمنين في كنائسهم وصوامعهم ومساكنهم، إنما يتنكبون درب الإسلام الصحيح، الذي يمنع المسلم أن يشطط، أو يتطرف في فهم تعاليم الدين وتطبيق أحكامه، الذي أرسى مبادئ عظيمة في التعامل مع الآخرين، ونفّر من الغلو والتطرف، وسار على هذا النهج القويم المسلمون من لدن الرسول الهادي، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1. الممتحنة: 8 – 9.
2. البقرة: 190.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يبين أن خير المتدابرين من يبدأ بالسلام

عن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تَبَاغَضُوا، ولا تَحَاسَدُوا، ولا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثةِ أيام)(*)

يتضمن هذا الحديث الشريف النهي عن الهجران بين أصحاب العلاقات الاجتماعية وغيرها من أبناء المجتمع المسلم فوق ثلاثة أيام، فقد يحدث بين أفراد منهم، أو أطراف، خلاف وشقاق، يقود إلى حالة من الغضب والكراهية، والإسلام بواقعيته يجعل هذا الحال في الاعتبار، ويخضعه للمعالجة، فينهى الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن التدابر، مما يعني ضرورة بذل الجهود لتجنب القطيعة بين المسلمين، وإذا ما حدثت في ظروف خاصة، فلا يجوز أن تتجاوز فترتها ثلاثة أيام، وبهذا يتضح أن للتدابر حداً أقصى، أو سقفاً أعلى، يحرم تجاوزه، بغض النظر عن الأسباب، وعادة تفتر همم الناس تجاه معظم القضايا التي يتفاعلون معها بقوة مع مرور الوقت، ويبدو أن الثلاثة أيام كفيلة بحدوث فتور ثورة الغضب، الناتجة عن مشكلة حدثت بين متخاصمين، والذي يحرص على حب الخير، ويتفوق في صفاء السريرة، يسبق خصمه في المبادرة إلى كسر حاجز التدابر بطرح السلام، فخير المتخاصمين والمتدابرين الذي يبدأ خصمه بطرح السلام عليه، معلناً بهذا رغبته في إنهاء حال القطيعة بينهما، وعادة ما يلجأ إلى هذه المبادرة خيار الناس، الذين يدركون قدر السلام، وأثره في نشر المحبة، والتواد بين الناس، عملاً بتوجيهات الرسول، صلى الله عليه وسلم، حيث قال:

* صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر.

(لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حتى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ على شَيْءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ)[1].

وهناك قضايا وموضوعات تخدم مسألة فض النزاعات بين بني آدم بشكل عام، وبين المسلمين بشكل خاص، حثَّ عليها الإسلام، وبين فضلها وأهميتها، ومن تلك القضايا: النهي عن التنازع والشحناء، وإصلاح ذات البين، والعفو والصفح، ولأن المقام يضيق باستيعاب الحديث عن المزيد من هذه القضايا، فسيتم حصر الوقوف عند مجمل هذه القضايا الثلاث.

النهي عن التنازع:

قال تعالى: {وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[2].

مما يشد الانتباه في هذه الآية الكريمة تركيزها على قضية التنازع، وقد أشارت إلى تداعياته السلبية في سياق الأمر المهم المتعلق بلزوم طاعة الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، فالتنازع يجر إلى الفشل والإخفاق، وبالتالي يحدث الخسران، وتحدث الهزائم، فالرماح المجتمعة تكون عصية على الكسر، بعكس المتفرقة التي تتكسر آحاداً، وهكذا الجموع البشرية، إذا اتفقت واتحدت كانت قوة، أما عند تفرقها واختلافها، فإنها تضعف عن المقاومة، وصد الخصوم والأعداء، وفي صحيح البخاري، بَاب ما يُكْرَهُ من التَّنَازُعِ وَالِاخْتِلَافِ في الْحَرْبِ، وَعُقُوبَةِ من عَصَى إِمَامَهُ، وقال الله تَعَالَى: {ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} قال قَتَادَةُ: الرِّيحُ الْحَرْبُ، وفيه (أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم، بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إلى الْيَمَنِ، قال: يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا)[3]

1. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان.
2. الأنفال:46.
3. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه.

ومن سلبيات التنازع والشقاق، عدا عمّا ينتج عنهما من ضعف وخوار، أن الملائكة بأمر الله تعالى يُنْظِرون المتخاصمين المتشاحنين حتى يصطلحا، وذلك حين حدوث الفتح الأسبوعي لأبواب الجنة، كما جاء في الحديث الصحيح، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يوم الإثنين وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ، لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شيئاً، إلا رَجُلًا كانت بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: انظروا هَذَيْنِ حتى يَصْطَلِحَا، انظروا هَذَيْنِ حتى يَصْطَلِحَا، انظروا هَذَيْنِ حتى يَصْطَلِحَا)(*)

فالمتشاحنون يحجب عنهم الفوز بنيل المغفرة التي يمنحها الله جل في علاه لعباده الذين لا يشركون به شيئاً، لكن المتشاحنين يُرجأون حتى يصطلحوا، وهذا الموقف الصعب المتمثل في استجلاب التنازع للفشل على أرض المعاش في الدنيا، وحجب التمتع بالغفران الذي هو من خواص الآخرة أكثر، إنما يخص الأفراد والجماعات، وبالتأكيد أن الخصام الخاص بين فئات المسلمين الجغرافية والمذهبية والفكرية مشمول بذلك، من هنا فإن البادرة الطيبة للرجوع عن الخصام الحاصل بين شطري الوطن فلسطين، يبشر باستدراك خطر النزاع والانقسام، والعودة إلى جادة الصواب والحق محمودة، ولو كانت متأخرة، وأن تأتي متأخرة جداً خير من أن لا تأتي مطلقاً، وشعبنا الأبي المرابط على ثغور الأمة، القابع على الأرض التي باركها الله، والتي ارتوت بدماء الشهداء جدير بنصر من الله مؤزر، لا فشل من الشيطان ذريع؛ بسبب التنازع والتطاحن والشقاق والتدابر، فنبارك لطرفي الانقسام توجههم إلى المصالحة، راجين أن يكون باعثهما إليها الصدق والإخلاص، والحرص على المصالح العامة لشعبنا ووطننا وأسرانا، واحترام دماء شهدائنا.

إصلاح ذات البين:

من القضايا ذات الصلة بنبذ التدابر والتنازع السعي الحثيث لفض النزاع، والذي يطلق

* صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر.

عليه إصلاح ذات البين، الذي أمَرَ به جل شأنه، فقال: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[1]، فأمر الله بإصلاح ذات البين توسط في هذه الآية الكريمة الأمر بالتقوى، والأمر بطاعة الله ورسوله، مما يدل على عظيم قدره، وبالغ أهميته، وفي آية قرآنية كريمة أخرى، أمر الله عز وجل مرتين بالإصلاح بين المختلفين المتقاتلين من المؤمنين، فقال تعالى: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[2]، وأكد الله هذا الأمر في الآية التالية، بعد التأكيد في مطلعها على أخوة المؤمنين، فقال جل شأنه: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[3]، فمن حق المؤمنين على بعض أن يسلك الخيرون منهم سبيل إصلاح ذات البين، الذي وصفه الله بالخير، فقال عز وجل: {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}[4].

وأثنى رب العزة على إصلاح ذات البين، بقوله تعالى:{لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ من نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً} [5].

وورد في بعض روايات الحديث، أن إصلاح ذات البين يفوق في الأهمية والفضل منزلة التطوع بالصلاة والصيام والصدقة، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

1. الأنفال: 1.
2. الحجرات: 9.
3. الحجرات: 10.
4. النساء: 128.
5. النساء: 114.

وَسَلَّمَ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ). [1]

فضل العفو والصفح:

من الأمور التي تخدم مسار فض النزاع والشقاق بين الناس، تحليهم بخلق العفو والصفح، فهو يعبر عن نفس متسامحة، تنبذ الحقد والغل، وما ينشأ كثير من التدابر إلا عنهما، وقد أثنى الرسول، صلى الله عليه وسلم، على أصحاب العفو، فقال: (...وما زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إلا عِزًّا)[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (وما زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إلا عِزًّا) فيه وجهان:

أحدهما: أنه على ظاهره، وأن من عرف بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب، وزاد عزه وإكرامه.

والثاني: أن المراد أجره في الآخرة، وعزه هناك.[3]

فهذه من أبرز مناهج فض النزاع والشقاق بين الأخلاء والأشقاء، سائلين الله أن يوفق أبناء شعبنا لتجاوز حالة الانقسام، إلى وحدة الصف وأن يسدد خطاهم، ويؤلف قلوبهم، ليحققوا مصالح شعبهم ووطنهم، ويرضوا الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، باب منه، وصححه الألباني.
2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع.
3. صحيح مسلم، بشرح النووي: 16/ 141.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
يخبر عن القوم الذين لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ
الحلقة الأولى

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ لِلهِ مَلائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فإذا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا، هَلُمُّوا إلى حَاجَتِكُمْ، قال فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قال: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وهو أَعْلَمُ منهم، ما يقول عِبَادِي؟ قالوا: يقولون: يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيُمَجِّدُونَكَ، قال: فيقول: هل رَأَوْنِي؟ قال: فَيَقُولُونَ: لَا والله ما رَأَوْكَ، قال: فيقول: وَكَيْفَ لو رَأَوْنِي؟ قال: يَقُولُونَ: لو رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لك عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لك تَمْجِيدًا وتحميداً، وَأَكْثَرَ لك تَسْبِيحًا، قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ، قال: يقول: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قال: يَقُولُونَ: لَا والله، يا رَبِّ ما رَأَوْهَا، قال: يقول: فَكَيْفَ لو أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قال: يَقُولُونَ لو أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عليها حِرْصًا، وَأَشَدَّ لها طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فيها رَغْبَةً، قال: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قال: يَقُولُونَ: من النَّارِ، قال يقول: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قال: يَقُولُونَ: لَا والله يا رَبِّ ما رَأَوْهَا، قال: يقول: فَكَيْفَ لو رَأَوْهَا؟ قال: يَقُولُونَ لو رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ منها فِرَارًا، وَأَشَدَّ لها مَخَافَةً، قال، فيقول: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قد غَفَرْتُ لهم، قال: يقول مَلَكٌ من الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ ليس منهم، إنما جاء لِحَاجَةٍ، قال: هُم الْجُلَسَاءُ لا يشقى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ)(*).

تصوير رائع في هذا الحديث الشريف لعظمة الرحمة الربانية، وسعة نطاق الكرم الرباني، مما يبعث على إبقاء نور الأمل مشعاً في القلوب المؤمنة، دون أن تطفئه ظلمات الخطايا ولا قسوة الابتلاءات، فالطوافون من الملائكة يحفون ذاكري الله بأجنحتهم، لا ليسترقوا

* صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عزوجل.

سمع عوراتهم، ولا لنقل هناتهم، وتتبع عثراتهم، وإنما يبثون تكبيرهم وحمدهم وتمجيدهم لربهم، والحوار الذي يتم بين الملائكة والله عز وجل حول هذا الموضوع، يظهر أن ما عند الله خير مما يعتقد المؤمنون، سواء بالنسبة إلى ذاته وجلاله، أم عن كرمه وإحسانه وجنته وخيراته، حتى إنه سبحانه يجود كرماً لمجالس الذاكرين فيشملها بعفوه وغفرانه، وذلك جزء من تكريم الذاكرين، فهم عنده الْجُلَسَاءُ الذين لا يشقى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ.

وفي رواية لمسلم، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّ لِلهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلًا، يتتبعون مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فإذا وَجَدُوا مَجْلِسًا فيه ذِكْرٌ، قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ، حتى يملؤا ما بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فإذا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إلى السَّمَاءِ، قال: فَيَسْأَلُهُمُ الله عز وجل، وهو أَعْلَمُ بِهِمْ، من أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا من عِنْدِ عِبَادٍ لك في الأرض، يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيُهَلِّلُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيَسْأَلُونَكَ، قال: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قالوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ، قال: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قالوا: لَا أَيْ رَبِّ، قال: فَكَيْفَ لو رَأَوْا جَنَّتِي؟ قالوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ، قال: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قالوا: من نَارِكَ يا رَبِّ، قال: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قالوا: لا، قال: فَكَيْفَ لو رَأَوْا نَارِي؟ قالوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ، قال: فيقول قد غَفَرْتُ لهم، فَأَعْطَيْتُهُمْ ما سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا، قال: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إنما مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ، قال: فيقول: وَلَهُ غَفَرْتُ، هُمُ الْقَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ)(*)

وفي عمدة القاري، أن قوله أهل الذكر يتناول الصلاة، وقراءة القرآن، وتلاوة الحديث، وتدريس العلوم، ومناظرة العلماء ونحوها، قوله: (فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله) وفي رواية مسلم، (فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكره)، وقوله: فيسألهم ربهم، أي فيسأل الملائكة ربهم، وهو

* صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل مجالس الذكر.

أعلم أي والحال أنه أعلم منهم؛ أي من الملائكة، ووجه هذا السؤال الإظهار للملائكة أن في بني آدم المسبحين والمستغفرين، وفي مسلم يقولون: رب فيهم فلان عبد خطاء، إنما مر فجلس معهم وزاد، قال: فيقول: وله قد غفرت.[1]

فوائد من هذا الحديث ولطائف:

في تحفة الأحوذي، شرح الطيبي لقوله: (هم القوم) فقال: إن تعريف الخبر يدل على الكمال؛ أي هم القوم الكاملون فيما هم فيه من السعادة، (لا يشقى) أي لا يصير شقياً لهم، وفي بعض النسخ (بهم) أي بسببهم وببركتهم، (جليس) أي مجالسهم، وهذه الجملة مستأنفة لبيان المقتضى لكونهم أهل الكمال.

وفيها، أن في الحديث فضلَ مجالس الذكر والذاكرين، وفضل الاجتماع على ذلك، وأن جليسهم يندرج معهم في جميع ما يتفضل تعالى به عليهم، إكراماً لهم، ولو لم يشاركهم في أصل الذكر.

وفيه محبة الملائكة لبني آدم، واعتنائهم بهم، وفيه أن السؤال قد يصدر من السائل، وهو أعلم بالمسؤول عنه من المسؤول، لإظهار العناية بالمسؤول عنه والتنويه بقدره، والإعلان بشرف منزلته، وقيل: إن في خصوص سؤال الله الملائكة عن أهل الذكر الإشارة إلى قولهم: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}[2] فكأنه قيل: انظروا إلى ما حصل منهم من التسبيح والتقديس مع ما سلط عليهم من الشهوات ووساوس الشيطان، وكيف عالجوا ذلك، وضاهوكم في التقديس والتسبيح.[3]

1. عمدة القاري: 23/ 28.
2. البقرة: 30.
3. تحفة الأحوذي: 10/ 44.

ثناء الله على أهل ذكره:

أمر الله المؤمنين بذكره، واعداً الذاكرين أن يبادلهم الذكر، فقال جل شأنه: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}[1]، وفي الحديث القدسي الصحيح، بيان لمنازل الذاكرين عند الله عز وجل، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول الله تَعَالَى: (أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وأنا معه إذا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي في ملإٍ، ذَكَرْتُهُ في ملإٍ خَيْرٍ منهم، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بشبرٍ، تَقَرَّبْتُ إليه ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إليه بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)[2]

وفي عمدة القاري، أن قوله: (أنا عند ظن عبدي بي) يعني إن ظن أني أعفو عنه، وأغفر له، فله ذلك، وإن ظن العقوبة والمؤاخذة فكذلك، ويقال: إن كان فيه شيء من الرجاء رجاه؛ لأنه لا يرجو إلاَّ مؤمن بأن له ربّاً يجازي، ويقال: إني قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامله به، وقال الكرماني: وفيه إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على الخوف، وقوله: (وأنا معه) أي بالعلم، إذ هو منزه عن المكان، وقيل: أنا معه بحسب ما قصد من ذكره لي، وقوله: (فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي) يعني إن ذكرني بالتنزيه والتقديس سرّاً، ذكرته بالثواب والرحمة سرّاً، وقيل: معناه إن ذكرني بالتعظيم أذكره بالإنعام، وقوله: (وإن ذكرني في ملأ) أي في جماعة، ذكرته في ملأ خير منهم، يعني الملائكة المقربين، وقوله: (وإن تقرب إليّ بشبر) وفي رواية (شبراً) بالنصب، أي مقدار شبر، وكذلك تقدير (ذراعاً)، مقدار ذراع، وتقدير (باعاً)، مقدار باع، وقوله: (هرولة) أي إتياناً هرولة، والهرولة الإسراع، وهي نوع من العَدْو، وأمثال هذه الإطلاقات ليس إلاَّ على سبيل التجوز، إذ البراهين العقلية القاطعة قائمة على

1. البقرة: 152.

2. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {ويحذركم الله نفسه}(آل عمران: 28).

استحالتها على الله تعالى، فمعناه من تقرب إليّ بطاعة قليلة أجازيه بثواب كثير، وكلما زاد في الطاعة أزيد في الثواب، وإن كان كيفية إتيانه بالطاعة على التأني، يكون كيفية إتياني بالثواب على السرعة، فالغرض أن الثواب راجح على العمل، مضاعف عليه كماً وكيفاً، ولفظ النفس والتقرب والهرولة إنما هو مجاز على سبيل المشاكلة، أو على طريق الاستعارة، أو على قصد إرادة لوازمها، وهو من الأحاديث القدسية الدالة على كرم أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين.(*)

فهذا بيان لبعض مقام الذاكرين لله عنده جل شأنه، وهم القوم الذين لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ، عسى أن نكون منهم، حيث يذكر الله الذاكرين، ويجزيهم خير الجزاء، ويجزل لهم العطاء.

وإلى مزيد من الحديث عن هذا المقام الكريم في الحلقة التالية، إن شاء الله تعالى، وصلى الله وسلم، على النبي محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* عمدة القاري: 25/ 101.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يخبر عن القوم الذين لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ

الحلقة الثانية

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قال: (خَرَجَ مُعَاوِيَةُ على حَلْقَةٍ في الْمَسْجِدِ، فقال: ما أَجْلَسَكُمْ؟ قالوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ، قال: آللهِ ما أَجْلَسَكُمْ إلا ذَاكَ؟ قالوا: والله ما أَجْلَسَنَا إلا ذَاكَ، قال: أَمَا إني لم أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وما كان أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي من رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَقَلَّ عنه حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، خَرَجَ على حَلْقَةٍ من أَصْحَابِهِ، فقال: ما أَجْلَسَكُمْ؟ قالوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ، وَنَحْمَدُهُ على ما هَدَانَا لِلإِسْلامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قال: آللهِ ما أَجْلَسَكُمْ إلا ذَاكَ؟ قالوا: والله ما أَجْلَسَنَا إلا ذَاكَ، قال: أَمَا إني لم أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ عز وجل يُبَاهِي بِكُم الْمَلَائِكَةَ)[1]

تمّ الوقوف في الحلقة السابقة عند وصف القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم، حسب ما ورد في الحديث الصحيح، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فالطوّافون من الملائكة يحفون ذاكري الله بأجنحتهم، والله تعالى أمر المؤمنين بذكره، واعداً إياهم أن يبادلهم الذكر، ويضاعف ثواب أعمالهم كماً وكيفاً، وهذه المضاعفة، بينها الحديث القدسي فيما يخص الذي يذكر الله في نَفْسِهِ وفي ملأ، وفيما يتعلق بالتَقَرُّب إلى الله تعالى شبراً وذِرَاعًا، وإتيانه مشياً، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول الله تَعَالَى: (أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وأنا معه إذا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي في ملإٍ، ذَكَرْتُهُ في ملإٍ خَيْرٍ منهم، وَإِنْ تَقَرَّبَ إليَّ بشبرٍ، تَقَرَّبْتُ إليه ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إليَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إليه بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)[2]

1. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.
2. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {ويحذركم الله نفسه}(آل عمران: 28).

وفي حديث أبي سعيد عن معاوية أعلاه، إثبات لفضل آخر من فضائل مجالس الذكر، حيث يباهي الله تعالى بالجالسين في حلقات الذكر ملائكته، ومن شرح هذا الحديث، ما جاء في مرقاة المفاتيح، أن قوله: (على حَلْقة) بسكون اللام، وتفتح، أي جماعة متحلقة، (في المسجد) متقابلين على الذكر بالاجتهاد، فقال: (ما أجلسكم؟) أي ما السبب الداعي إلى جلوسكم على هذه الهيئة هنا؟ قالوا: (جلسنا نذكر الله) أي الذي أجلسنا هو غرض الاجتماع على الذكر، قال: (آلله) بالمد والجر، حيث همزة الاستفهام وقعت بدلاً عن حرف القسم، ويجب الجر معها، وقيل: الله بالنصب، أي أتقسمون بالله، فحذف الجار وأوصل الفعل، ثم حذف الفعل، (ما أجلسكم إلا ذلك؟) ما هذه نافية، قالوا (آلله) تقديره؛ أي، أو نعم، نقسم بالله ما أجلسنا غيره، قال -أي معاوية-: (أما) بالتخفيف للتنبيه، (إني) بالكسر (لم أستحلفكم تهمة لكم) أي ما أستحلفكم تهمة لكم بالكذب، لكني أردت المتابعة والمشابهة فيما وقع له مع الصحابة، وقدم بيان قربه منه عليه الصلاة والسّلام، وقلة نقله من أحاديثه الشريفة؛ دفعاً لتهمة الكذب عن نفسه فيما ينقله من الكلام، فقال: (وما كان أحد بمنزلتي) أي بمرتبة قربي من رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ لكونه مَحْرماً لأم حبيبة أخته؛ من أمهات المؤمنين، ولكونه من أجلاء كتبة الوحي، (أقل خبر كان عنه)؛ أي عن رسول الله، (حديثاً مني) أي لاحتياطي في الحديث، وإلا كان مقتضى منزلته أن يكون كثير الرواية، وقوله:(وإن رسول الله خرج على حلقة من أصحابه) هذا ما سنح لي من حمل الكلام في هذا المقام، وقال الطيبي: أي لم أستحلفكم، ولكن رسول الله خرج، بدليل قوله: (ولكنه أتاني جبريل) وقوله: (وما كان أحد) معترضة بين الاستدراك والمستدرك، يؤذن بأنه لم ينسه، وعبارة (وإن رسول الله) متصلة بقوله: {إني لم أستحلفكم} اتصال الاستدراك بالمستدرك. فقال (أي النبي، صلى الله

عليه وسلم): ما أجلسكم ها هنا؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، (ومَنَّ به) أي بذكره، أو بالإسلام علينا، أي من بين الأنام، كما حكى الله تعالى عن مقول أهل دار السلام: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ} [1]

ورحم الله من قال: لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

قال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟ لعله أراد به الإخلاص، قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك، قال أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم؛ لأنه خلاف حسن الظن بالمؤمنين، ولكنه؛ أي الشأن، وفي نسخة، ولكني أتاني جبريل، فأخبرني إن الله عزَّ وجلَّ يباهي بكم الملائكة، نقل بالمعنى، وإلا كان الظاهر بهم، قيل: معنى المباهاة بهم، إن الله تعالى يقول لملائكته: انظروا إلى عبيدي هؤلاء، كيف سلطت عليهم نفوسهم وشهواتهم، والشيطان وجنوده، ومع ذلك قويت همتهم على مخالفة هذه الدواعي القوية، إلى البطالة وترك العبادة والذكر، فاستحقوا أن يمدحوا أكثر منكم؛ لأنكم لا تجدون للعبادة مشقة بوجه، إنما هي منكم كالتنفس منهم، ففيها غاية الراحة والملاءمة للنفس.[2]

والحديث أعلاه يركز على أهمية الإخلاص لله تعالى في الذكر والعمل، فقد تم استحلاف المتحلقين للذكر، ليقولوا الحقيقة بشأن تجردهم لله في تحلقهم، واجتماعهم على ذكره.

الذاكرون الله والذاكرات:

وعد الله تعالى أصنافاً من الصالحين، بالحسنى والمغفرة، ومن هؤلاء الذَّاكِرونَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ، فقال جل شأنه:{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ

1. الأعراف: 43.
2. مرقاة المفاتيح: 5/ 160ـ161.

وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}[1]، قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وقال عطاء بن أبي رباح: من فوض أمره إلى الله عز وجل، فهو داخل في قوله: {إن المسلمين والمسلمات} ومن أقر بأن الله ربه، ومحمداً رسوله، صلى الله عليه وسلم، ولم يخالف قلبه لسانه، فهو داخل في قوله: {والمؤمنين والمؤمنات} ومن أطاع الله في الفرض، والرسول، صلى الله عليه وسلم، في السنة، فهو داخل في قوله: {والقانتين والقانتات} ومن صان نفسه عن الكذب، فهو داخل في قوله: {والصادقين والصادقات} ومن صبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى الرزية، فهو داخل في قوله: {والصابرين والصابرات} ومن صلى فلم يعرف من عن يمينه، وعن يساره، فهو داخل في قوله: {والخاشعين والخاشعات} ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم، فهو داخل في قوله: {والمتصدقين والمتصدقات} ومن صام في كل شهر أيام البيض؛ الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، فهو داخل في قوله: {والصائمين والصائمات} ومن حفظ فرجه عما لا يحل، فهو داخل في قوله: {والحافظين فروجهم والحافظات} ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها، فهو داخل في قوله: {والذاكرين الله كثيراً والذاكرات} أعد لهم مغفرة وأجراً عظيماً.[2]

سَبَقَ المفردون:

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَسِيرُ في طَرِيقِ مَكَّةَ، فَمَرَّ على جَبَلٍ، يُقَالُ له جُمْدَانُ، فقال: سِيرُوا هذا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ، قالوا: وما

1. الأحزاب: 35.
2. تفسير البغوي: 3/ 530.

الْمُفَرِّدُونَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ)[1]

وأصل المفردين الذين هلك أقرانهم، وانفردوا عنهم، فبقوا يذكرون الله تعالى. وقال ابن الأعرابي: يقال: فرد الرجل إذا تفقه، واعتزل وخلا بمراعاة الأمر والنهي.[2]

وفي فيض القدير، المنفردون هم المعتزلون عن الناس، من فرد إذا اعتزل، وتخلى للعبادة، فكأنه أفرد نفسه بالتبتل إلى الله؛ أي سبقوا بنيل الزلفى، والعروج إلى الدرجات العلا.[3]

فهذا بيان آخر لبعض مقام الذاكرين لله عنده جل شأنه، وهم القوم الذين لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ، عسى أن نكون منهم، وإلى لقاء آخر مع متابعة الوقوف عند منازل هؤلاء الأخيار، وصلى الله وسلم، على النبي محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى.
2. صحيح مسلم، بشرح النووي: 4 / 17.
3. فيض القدير: 4/ 92.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يخبر عن القوم الذين لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ

الحلقة الثالثة والأخيرة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (... وما اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ من بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إلا نَزَلَتْ عليهم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لم يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ)[1]

مواصلة لما تم الحديث عنه في الحلقتين السابقتين بشأن الإخبار عن القوم الذين لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ، والذين هم أَهْل الذِّكْرِ، ويشمل ذلك أهل الصلاة، وتلاوة القرآن، وقراءة الحديث، وتدريس العلوم، ومناظرة العلماء، ونحو ذلك، ومما يؤيد هذا المعنى الشامل لأهل الذكر، ما جاء في الحديث الصحيح أعلاه، عن فضل الاجتماع على تدارس القرآن الكريم وتلاوته.[2]

فالحديث أعلاه يبين فضل المشي في طلب العلم، ويلزم من ذلك كما يذكر النووي في شرحه، الاشتغال بالعلم الشرعي، بشرط أن يقصد به وجه الله تعالى، وإن كان هذا شرطاً في كل عبادة، لكن عادة العلماء يقيدون هذه المسألة به؛ لكونه قد يتساهل فيه بعض الناس، ويغفل عنه بعض المبتدئين ونحوهم، ومعنى (نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة): قيل المراد بالسكينة هنا الرحمة، وهو الذي اختاره القاضي عياض، وضعف النووي هذا التفسير لعطف الرحمة عليه، وحسّن القول بأن المراد بها الطمأنينة والوقار، وفي هذا دليل لفضل الاجتماع على تلاوة القرآن في المسجد.[3]

1. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.
2. تحفة الأحوذي: 10/ 44.
3. صحيح مسلم بشرح النووي: 17/ 21.

مؤهلات نيل المقامات الرفيعة:

جاء في تحفة الأحوذي أن قوله صلى الله عليه وسلم: (ومن أبطأ به عمله) من الإبطاء، وهو ضد التعجل، والبطوء نقيض السرعة، والباء للتعدية، والمعنى، من أخره عمل عن بلوغ درجة السعادة (لم يسرع به نسبه) من الإسراع؛ أي لم يقدمه نسبه، يعني لم يجبر نقيصته؛ لكونه نسيباً في قومه؛ إذ لا يحصل التقرب إلى الله تعالى بالنسب، بل بالأعمال الصالحة؛ والله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}(*)، وشاهد ذلك أن أكثر علماء السلف والخلف، لا أنساب لهم يتفاخر بها، ومع ذلك هم سادات الأمة، وينابيع الرحمة، وذوو الأنساب العليّة الذين ليسوا كذلك في مواطن جهلهم نسياً منسياً، ويذكر عن ابن الصلاح، أنه روى في مقدمته عن الزهري، قال: قدمت على عبد الملك بن مروان، فقال: من أين قدمت يا زهري؟ قلت: من مكة، قال: فمن خلفت بها يسود أهلها؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت من الموالي، قال: وبم سادهم؟ قلت: بالديانة والرواية، قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا، قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قال: قلت طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت من الموالي، قال: وبم سادهم؟ قلت: بما سادهم به عطاء، قال: إنه لينبغي، قال: فمن يسود أهل مصر؟ قال: قلت يزيد بن أبي حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت من الموالي، قال: فمن يسود أهل الشام؟ قال: قلت مكحول، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت من الموالي، عبد نوبي، أعتقته امرأة من هذيل، قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت من الموالي، قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت

* الحجرات: 13.

الضحاك بن مزاحم، قال: فمن العرب أم الموالي؟ قال: قلت من الموالي، قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلت الحسن بن أبي الحسن، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت من الموالي، قال: فمن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلت: إبراهيم النخعي، قال: فمن العرب أم الموالي؟ قال: قلت من العرب، قال: ويلك يا زهري، فرجّت عني، والله ليسودن الموالي على العرب، حتى يخطب لها على المنابر، والعرب تحتها، قال: قلت يا أمير المؤمنين، إذا هو أمر الله ودينه، من حفظه ساده، ومن ضيعه سقط.[1]

فالارتقاء الحقيقي لا يكون بالأنساب والثروات، بقدر ما يكون بالعلم والتقوى وحسن الخلق، فمن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه.

والملائكة تحف المجتمعين في المساجد على تلاوة القرآن وتدارسه، وتتغشاهم الرحمة، وتتنزل عليهم الطمأنينة، وينعمون بحلي الوقار، إضافة إلى تمتعهم بفضيلة ذكرهم من قبل رب البرية سبحانه فيمن عنده، وأي فضل أرفع من هذه المكارم التي يتفضل الله بها على ذاكريه في مجالس العلم والتلاوة والذكر، وهي المجالس التي ينتفع من خيراتها الجالسون فيها، حتى إن زائريها ينالهم من فضل النعيم الذي يثاب به ذاكرو الله فيها، تماشياً مع المبدأ الذي أرساه النبي، صلى الله عليه وسلم، بقوله: (هم القوم الذين لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ).

كَيْفَ تكْسِبُ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟

الناس يحرصون على نيل المزيد من المكاسب والخيرات، بل إن ذلك طبعٌ فطروا عليه، فعن عَطَاء، يقول: سمعت ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، يقول: سمعت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (لو أَنَّ لابن آدَمَ مِثْلَ وَادٍ مَالًا، لَأَحَبَّ أَنَّ له إليه مثله، ولا يَمْلَأُ عَيْنَ ابن آدَمَ، إلا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ الله على من تَابَ) [2].

1. تحفة الأحوذي: 8/ 215 - 217.
2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال.

وأمام هذا الجانب الفطري المتعلق بحب المال، تأتي العروض المجزية والمشجعة لطالبي الحسنى والمثوبة، فالله يضاعف الحسنات، ويجزل لخلقه العطاء، ومن ذلك تفضله سبحانه بمضاعفة حسنات الذكر والتسبيح، كما جاء في الحديث الصحيح، عن مُصْعَبِ بن سَعْدٍ، قال: كنا عِنْدَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: (أَيَعْجِزُ أحدكم أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ، فَسَأَلَهُ سَائِلٌ من جُلَسَائِهِ، كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قال: يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ له أَلْفُ حَسَنَةٍ، أو يُحَطُّ عنه أَلْفُ خَطِيئَةٍ)[1]، فحسنات الذكر تتضاعف عشرات المرات، فهي وربي تجارة رابحة، لا يتهددها الكساد، فالذاكرون المسبحون تتفتح أمامهم آفاق رحبة للحسنات، فهم الذين يذكرهم الله، ويرحمهم، ولا يشقى جليسهم، وهم في نهاية المطاف الفائزون بجنة الرضوان، فالكيس الذي يسعى إلى مضاعفة أجره عند ربه، والله تعالى يقول: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا}[2].

وزر المُعرِض عن الله تعالى:

بخلاف الذاكرين الذين يبادلهم الله الذكر وأحسن، فإن المعرضين عن الذكر، الغافلين عن الله، يتوعدهم الله بالسخط، فعن أبي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، بَيْنَمَا هو جَالِسٌ في الْمَسْجِدِ، وَالنَّاسُ معه، إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إلى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قال: فَوَقَفَا على رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا، فَرَأَى فُرْجَةً في الْحَلْقَةِ، فَجَلَسَ فيها، وَأَمَّا الْآخَرُ، فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ، فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فلما فَرَغَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: ألا أُخْبِرُكُمْ عن النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ، أَمَّا

1. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.
2. الكهف: 46.

أَحَدُهُمْ، فَأَوَى إلى اللهِ، فَآوَاهُ الله، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا، فَاسْتَحْيَا الله منه، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ، فَأَعْرَضَ الله عنه).[1]

وقد حذر الله تعالى من الانقياد وراء الغافلين عن ذكره سبحانه، في مقابل الحث على مرافقة الذاكرين الله الداعين إليه بالغداة والعشي، فقال تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً}.[2]

فهذا بيان ختامي لبعض مقام الذاكرين الله عنده جل شأنه، وهم القوم الذين لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ، عسى أن ينفع الله متدبريه بما يعزز استقامتهم، ودوام ذكرهم لله تعالى، وصلى الله وسلم، على النبي محمد، وعلى آله وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها.
2. الكهف: 28.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يبين أفضل الناس وخير الأمم

الحلقة الأولى

عن جَابِر بن عبد اللهِ، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي؛ نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ من أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لي الْمَغَانِمُ، ولم تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكان النبي يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إلى الناس عَامَّةً)[1].

يظهر هذا الحديث النبوي الشريف بعض ما اختص الله تعالى به النبي محمداً، صلى الله عليه وسلم، مما يشير إلى جانب من الأفضلية التي امتاز بها عن العالمين، وهي امتيازات تسري لأمته، فعن حُذَيْفَةَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (فُضِّلْنَا على الناس بِثَلاثٍ؛ جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لنا الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لنا طَهُورًا، إذا لم نَجِدْ الْمَاءَ، وَذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى)[2].

قال العلماء: المذكور هنا خصلتان؛ لأن قضية الأرض في كونها مسجداً وطهوراً خصلة واحدة، وأما الثالثة فمحذوفة هنا، ذكرها النسائي.[3]

وحديث النسائي المشار إليه آنفاً، يرويه عن حذيفة، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلاَثٍ؛ جُعِلَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا لَنَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تربتها لنا طَهُورًا، وَجُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلاَئِكَةِ، وَأُوتِيتُ هَؤُلاَءِ الآيَاتِ؛ آخِرَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ

1. صحيح البخاري، كتاب التيمم، باب منه.
2. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.
3. صحيح مسلم بشرح النووي: 5/ 4 – 5.

كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَ منه أَحَدٌ قَبْلِي، ولا يعطى منه أحد بعدي)[1]

ففي هذين الحديثين إشارات واضحة إلى تمتع أمة الإسلام بآثار الامتيازات، التي خص الله نبيه محمداً، صلى الله عليه وسلم بها، فالأَرْضُ لهم مَسْجِد وَطَهُور، وهم ينتمون إلى دين الإسلام الموجه إلى الناس عَامَّةً، وجُعِلَتْ صُفُوفُهم كَصُفُوفِ المَلائِكَةِ، مما يعني أن الخيرية تنالها أمة الإسلام بفضل اتباع دين نبيها، صلى الله عليه وسلم، وإلا فلا فضل لها على الناس بغيره.

خيرية أمة الإسلام:

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، قال: خَيْرَ الناس لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ، حتى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلامِ)[2]

مقام الأفضلية المشار إليه في هذا الأثر يختص بجماعة المؤمنين، التي شهد الله لها بالخيرية، فقال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ...}[3].

اختلف المفسرون في معنى قوله: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} فقال الحسن بن أبي الحسن، وجماعة من أهل العلم: معنى هذه الآية خطاب الأمة بأنهم خير أمة أخرجت للناس، فلفظ أمة على هذا التأويل اسم جنس، كأنه قيل لهم كنتم خير الأمم، ويؤيد هذا التأويل كونهم شهداء على الناس.[4]

ومؤهلات جماعة المؤمنين لنيل منزلة خير الأمم، لا تختلف كثيراً عن مؤهلات أفرادها لنيل الأفضلية لذواتهم بين الخلق، فهي أمة مؤمنة، تتحمل عبء الأمر بالمعروف، والنهي عن

1. سنن النسائي الكبرى، كتاب فضائل القرآن، باب الآيتان من آخر سورة البقرة، 7/ 260، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، 1482.
2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة آل عمران، باب {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} (آل عمران: 110).
3. آل عمران: 110.
4. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 1 /489.

المنكر، ومؤهلاتها في هذا الشأن تتقاطع مع مؤهلات أفرادها فيه، في انسجام وتوافق، يعبران عن حركة مقصودة، لإحقاق الحق، وإزهاق الشر والباطل، والمسلمون أفراداً وجماعة مدعوون دائماً لسلوك صراط الله المستقيم، الذي يضمن لهم أداء دورهم من خلاله، بما يتوافق مع مهمتهم الموكولة إليهم، ليحجزوا لهم المكانة الموعودة، التي أعدها الله تعالى لهم، وهو القائل جل شأنه: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ}[1].

يقول العيني: أي هذا باب في قوله تعالى: {كنتم خير أمة}؛ أي وجدتم خير أمة، وقيل: كنتم في علم الله خير أمة، وقيل: كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة، موصوفين به، وعن ابن عباس، هم الذين هاجروا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، وروى الطبري عن السدي، قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: لو شاء الله عز وجل لقال: أنتم خير أمة، ولو قال لكنا كلنا، ولكن هذا خاص بالصحابة، ومن صنع مثل ما صنعوا، كانوا خير أمة.

وقال الواحدي: إن رؤوس اليهود وعدد منهم جماعة، منهم ابن صوريا، عمدوا إلى مؤمنيهم عبد الله بن سلام، وأصحابه فآذوهم لإسلامهم، فنزلت، وقال مقاتل: نزلت في أبي ومعاذ وابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة، وذلك أن مالك بن الضيف، ووهب بن يهودا، قالا للمسلمين: ديننا خير مما تدعونا إليه، ونحن خير وأوصل منكم، فنزلت، ويقال هذا الخطاب للصحابة، وهو يعم سائر الأمة. وقوله: (خير الناس) أي خير بعض الناس لبعضهم، وأنفعهم لهم، من يأتي بأسير مقيد في السلسلة إلى دار الإسلام فيسلم، وإنما كان خيراً لأنه بسببه صار مسلماً، وحصل أصله جميع السعادات الدنياوية والأخراوية.[2]

1. الزمر: 20.
2. عمدة القاري: 18/ 148.

الله اختار أمة الإسلام:

مما تمتاز به أمة الإسلام، أن الله جل في علاه اختارها، وأسماها، مصداقاً لقوله تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}(*) .

جاء في أضواء البيان، أن قوله تعالى: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ}؛ أي اصطفاكم واختاركم يا أمة محمد، ومعنى هذه الآية أوضحه بقوله: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}

وقوله تعالى: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا} اختلف في مرجع الضمير الذي هو لفظ هو من قوله: {هُوَ سَمَّاكُمُ}

فقال بعضهم: الله هو الذي سماكم المسلمين من قبل، ومن هذا، وهذا القول مروي عن ابن عباس، وبعض السلف الصالح، كما نقله عنهم ابن كثير، وقال بعضهم: هو؛ أي إبراهيم، سماكم المسلمين، واستدل لهذا بقول إبراهيم وإسماعيل:{وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ}، وبهذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، كما نقله عنه ابن كثير، ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك، أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، وتكون في الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول، ويرى بعض العلماء في هذه الآيات قرينتان تدلان على أن قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم غير صواب، إحداهما، أن الله قال: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا} أي القرآن، ومعلوم أن إبراهيم لم يسمهم المسلمين في القرآن؛ لنزوله بعد وفاته بأزمان طويلة، كما نبه على هذا ابن جرير .

القرينة الثانية: أن الأفعال كلها في السياق المذكور راجعة إلى الله تعالى، لا إلى إبراهيم،

* الحج: 78.

فقوله: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ} أي الله، وما جعل عليكم في الدين من حرج، أي الله، هو سماكم المسلمين أي الله، فإن قيل الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور للضمير المذكور هو إبراهيم، فالجواب أن محل رجوع الضمير إلى أقرب مذكور محله ما لم يصرف عنه صارف، وهنا قد صرف عنه صارف؛ لأن قوله: {وفي هذَا} يعني القرآن دليل على أن المراد بالذي سماهم المسلمين فيه هو الله، لا إبراهيم، وكذلك سياق الجمل المذكورة قبله، نحو {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} يناسبه أن يكون هو سماكم، أي الله: المسلمين. (*)

فهذا عرض لعينة مختارة من الأدلة الشرعية التي تبرز تصدر أمة الإسلام لسلم الأفضلية والخيرية، عسى أن نكون من المعتزين بالانتماء إلى هذه الأمة، والداعين إلى دينها والعاملين به، راجين الله العلي القدير أن ييسر متابعة الحديث عن فضل هذه الأمة، وتصدرها الأمم الأخرى في الخيرية، وذلك في الحلقة القادمة من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* أضواء البيان: 5 /300 - 303.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يبين أفضل الناس وخير الأمم

الحلقة الثانية

عن أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، رضي الله عنه، قال: (قِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الناس أَفْضَلُ؟ فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ في سَبِيلِ اللهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، قالوا: ثُمَّ من؟ قال: مُؤْمِنٌ في شِعْبٍ من الشِّعَابِ يَتَّقِي اللهَ، وَيَدَعُ الناس من شَرِّهِ)(*).

تعرضت الحلقة السابقة إلى بعض ما اختص الله تعالى به النبي محمداً، صلى الله عليه وسلم، عن العالمين، وهي امتيازات تسري لأمته، فهي خير الأمم، تأهلت لذلك بمؤهلات الإيمان، وقيامها بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأمة الإسلام، تمتاز بأن الله جل في علاه اختارها، وأسماها، وفي سياق موضوع بيان أفضل الناس وأحسنهم، ففي الحديث الشريف أعلاه، يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن المؤمن بين خيارين إن أراد نيل الأفضلية عند الله تعالى؛ أحدهما، ممارسة الجهاد بالنفس والمال، مع التقيد بأداء الواجبات العينية الأخرى، وثانيهما، اعتزال الفتن، والتشبث بالتقوى، وكف نفسه عن ممارسة الشر والأذى، قولاً و عملاً.

فالجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، من الأعمال التي يرتقي بها المؤمن لبلوغ أرفع الدرجات عند الله تعالى، من هنا أجاب الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن سؤال: أَيُّ الناس أَفْضَلُ؟ فبين أن الإنسان الأفضل، هو مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ في سَبِيلِ اللهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، ويليه بالفضل، مُؤْمِنٌ في شِعْبٍ من الشِّعَابِ يَتَّقِي اللهَ، وَيَدَعُ الناس من شَرِّهِ.

* صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله.

متى يكون اعتزال الناس مفضلاً؟

عن ابن حجر، في فتح الباري -بتصرف-: وكأن المراد بالمؤمن من قام بما تعين عليه القيام به، ثم حصّل هذه الفضيلة، وليس المراد من اقتصر على الجهاد وأهمل الواجبات العينية، وحينئذ فيظهر فضل المجاهد، لما فيه من بذل نفسه وماله لله تعالى، ولما فيه من النفع المتعدي، وإنما كان المؤمن المعتزل يتلو المجاهد في الفضيلة؛ لأن الذي يخالط الناس لا يسلم من ارتكاب الآثام، والاعتزال مقيد بوقوع الفتن.

وقوله: (مُؤْمِنٌ في شِعْبٍ) وفي رواية لمسلم، ذكر فيها: (رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ في شِعْبٍ من الشِّعَابِ)، وفي رواية أخرى له، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قال: (من خَيْرِ مَعَاشِ الناس لهم، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ في سَبِيلِ اللهِ، يَطِيرُ على مَتْنِهِ، كُلَّمَا سمع هَيْعَةً أو فَزْعَةً، طَارَ عليه، يَبْتَغِي الْقَتْلَ، وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ، أو رَجُلٌ في غُنَيْمَةٍ في رَأْسِ شَعَفَةٍ، من هذه الشَّعَفِ، أو بَطْنِ وَادٍ من هذه الأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ، حتى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ، ليس من الناس إلا في خَيْرٍ)[1].

ويبين ابن حجر أن في الحديث فضل الانفراد؛ لما فيه من السلامة من الغيبة واللغو، ونحو ذلك، وأما اعتزال الناس أصلاً، فقال الجمهور: محل ذلك عند وقوع الفتن، وقال ابن عبد البر: إنه إنما أوردت هذه الأحاديث بذكر الشِعْب والجبل؛ لأن ذلك في الأغلب يكون خالياً من الناس، فكل موضع يبعد على الناس، فهو داخل في هذا المعنى.[2]

ويرى العيني أن قوله: (مؤمن مجاهد) أي أفضل الناس مؤمن مجاهد، قالوا هذا عام مخصوص، تقديره: هذا من أفضل الناس، وإلاَّ فالعلماء أفضل، وكذا الصديقون، كما جاءت بذلك الأحاديث.[3]

1. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط.
2. فتح الباري: 6/ 6 - 7
3. عمدة القاري: 14/ 83.

ويذكر النووي، أن الجمهور أجابوا عن هذا الحديث، بأنه محمول على الاعتزال في زمن الفتن والحروب، أو هو فيمن لا يسلم الناس منه، ولا يصبرون عليه، أو نحو ذلك من الخصوص، وقد كان الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، وجماهير الصحابة والتابعين، والعلماء والزهاد مختلطين، فيحصلون منافع الاختلاط؛ كشهود الجمعة والجماعة والجنائز، وعيادة المرضى، وحلق الذكر، وغير ذلك، وأما الشِعْب، فهو ما انفرج بين جبلين، وليس المراد هنا نفس الشِعْب خصوصاً، بل المراد الانفراد والاعتزال، وذكر الشِعْب مثالاً؛ لأنه خال عن الناس غالباً.[1]

الناس معادن:

من الأحاديث الشريفة التي حددت أصناف المفضلين من الناس عموماً، ما جاء في رواية أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (تَجِدُونَ الناس مَعَادِنَ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ، إذا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ الناس في هذا الشَّأْنِ، أَشَدَّهُمْ له كَرَاهِيَةً، وَتَجِدُونَ شَرَّ الناس ذَا الْوَجْهَيْنِ، الذي يَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَيَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ)[2].

ويؤيد أفضلية المتفقهين في الدين، حديث مُعَاوِيَةَ، عن رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (من يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا، يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ) [3].

جاء في فتح الباري، أن قوله: (تَجِدُونَ الناس مَعَادِنَ) أي أصولاً مختلفة، والمعادن جمع معدن، وهو الشيء المستقر في الأرض، فتارة يكون نفيساً، وتارة يكون خسيساً، وكذلك الناس.

وقوله: (خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ) وجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا

---

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 13/ 34.
2. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ ...} (الحجرات: 13).
3. صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول الله تعالى: {فأن لله خمسه وللرسول}(الأنفال: 41).

استخرج ظهر ما اختفى منه، ولا تتغير صفته، فكذلك صفة الشرف، لا تتغير في ذاتها، بل من كان شريفاً في الجاهلية، فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس، فإن أسلم استمر شرفه، وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية.

وأما قوله: (إذا فَقِهُوا) ففيه إشارة إلى أن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين، والمراد بالخيار والشرف وغير ذلك، من كان متصفاً بمحاسن الأخلاق؛ كالكرم والعفة والحلم وغيرها، متوقياً لمساويها؛ كالبخل، والفجور، والظلم، وغيرها. وقوله: (إذا فقُهوا) بضم القاف، ويجوز كسرها.

قوله: (وَتَجِدُونَ خَيْرَ الناس في هذا الشَّأْنِ)؛ أي الولاية والإمرة، وقوله: (أَشَدَّهُمْ له كَرَاهِيَةً) أي إن الدخول في عهدة الإمرة مكروه من جهة تحمل المشقة فيه، وإنما تشتد الكراهة له ممن يتصف بالعقل والدين؛ لما فيه من صعوبة العمل بالعدل، وحمل الناس على رفع الظلم، ولما يترتب عليه من مطالبة الله تعالى للقائم به من حقوقه، وحقوق عباده، ولا تخفى خيرية من خاف مقام ربه، وأما قوله (حتى يقع فيه) فاختلف في مفهومه، فقيل: معناه أن من لم يكن حريصاً على الإمرة، غير راغب فيها إذا حصلت له بغير سؤال، تزول عنه الكراهة فيها، لما يرى من إعانة الله له عليها، فيأمن على دينه ممن كان يخاف عليه منها قبل أن يقع فيها، ومن ثم أحب من أحب استمرار الولاية من السلف الصالح، حتى قاتل عليها، وصرح بعض من عزل منهم، بأنه لم تسره الولاية، بل ساءه العزل، وقيل: المراد بقوله حتى يقع فيه؛ أي فإذا وقع فيه لا يجوز له أن يكرهه، وقيل معناه: إن العادة جرت بذلك، وأن من حرص على الشيء، ورغب في طلبه، قل أن يحصل له، ومن أعرض عن الشيء، وقلت رغبته فيه يحصل له غالباً، والله أعلم.(*)

ومن الأحاديث التي أشير فيها إلى أن الناس درجات، وأنهم معادن، ما رواه أبو هُرَيْرَة، رضي

* فتح الباري: 6/ 529 - 530.

الله عنه: أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الناس تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ في هذا الشَّأْنِ، مُسْلِمُهُمْ تَبَعٌ لِمُسْلِمِهِمْ، وَكَافِرُهُمْ تَبَعٌ لِكَافِرِهِمْ، وَالنَّاسُ مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ في الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإِسْلامِ، إذا فَقِهُوا تَجِدُونَ من خَيْرِ الناس، أَشَدَّ الناس كَرَاهِيَةً لِهَذَا الشَّأْنِ حتى يَقَعَ فيه)[1].

فهذا الحديث يشير إلى فضل قريش على الناس، وجمهور أهل العلم اشترطوا أن يكون الإمام قرشياً، بخلاف الخوارج وطائفة من المعتزلة، الذين اشترطوا أن يقوم الإمام بالكتاب والسنة، سواء أكان عربياً أم عجمياً.[2]

فهذه متابعة لعرض عينة مختارة أخرى من الأدلة الشرعية التي تبرز المتصدرين من الناس لسلم الأفضلية، عسى أن يكون في تدبرها نفع لمن أراد الارتقاء والتفوق، راجين الله العلي القدير أن ييسر متابعة الحديث عن المميزين بالفضل من الناس، في الحلقة القادمة من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم...} (الحجرات: 13).

2. فتح الباري: 13/ 118.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يبين أفضل الناس وخير الأمم

الحلقة الثالثة والأخيرة

عن عبد الله، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (خَيْرُ الناس قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ، قال إِبْرَاهِيمُ: وَكَانُوا يَضْرِبُونَنَا على الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ)(*).

وقفت الحلقة السابقة عند إجابة الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن أفضل الناس، والذي أعطى فيه الأفضلية الأولى لمؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، ويليه بالفضل مُؤْمِنٌ في شِعْبٍ من الشِّعَابِ يَتَّقِي اللهَ، وَيَدَعُ الناس من شَرِّهِ، وقد أشير إلى رأي الجمهور في معنى الاعتزال المحمود، والذي يفيد بأنه محمول على الاعتزال في زمن الفتن والحروب، أو هو فيمن لا يسلم الناس منه، ولا يصبرون عليه، أو نحو ذلك من الخصوص، ووقفت تلك الحلقة أيضاً عند شرح قوله صلى الله عليه وسلم: (تَجِدُونَ الناس مَعَادِنَ، خِيَارُهُمْ في الْجَاهِلِيَّةِ، خِيَارُهُمْ في الإِسْلامِ، إذا فَقِهُوا...) حيث أشير إلى مقام الذين يتفقهون في الدين، الذين أراد الله بهم خيراً، من خلال تيسير التفقه في الدين لهم، وأشارت الحلقة السابقة أيضاً إلى فضل قريش كقبيلة، فالناس تبع لها في الإمارة والسيادة، وجمهور أهل العلم اشترطوا أن يكون الإمام قرشياً.

وفي الحديث الشريف أعلاه، يخص قوله صلى الله عليه وسلم: (خير الناس قرني) قوماً منهم دون جميعهم، ومعلوم أن قرنه: كلهم لم يكونوا خير الناس، فقد كان فيهم أبو جهل، وأمية بن خلف، وسائر المشركين، ومسيلمة الكذاب، وإنما كان خير الناس بعض القرن لا

* صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد.

كلهم، فصار كأنه قال: خير الناس في قرني.[1]

أفضل الصحابة والمجاهدين:

قال الحافظ: المراد بقرن النبي، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الصحابة.[2]

والصحابة، رضي الله عنهم، درجات في الأفضلية، وقد كانوا بناء على فقههم للأدلة والمواقف، يحددون كبارهم وأفضلهم، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: (كنا نُخَيِّرُ بين الناس في زَمَنِ النبي، صلى الله عليه وسلم، فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بن عَفَّانَ، رضي الله عَنْهُمْ)[3].

والله تعالى أثنى على السابقين للإسلام، فقال تعالى: {السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[4].

فالله تعالى رضي عن شرائح من المؤمنين، أشارت إليهم الآية الكريمة، وعلى رأسهم كبار الصحابة، رضي الله عنهم، الذين ذكرهم في قوله سبحانه: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ...} قيل: هم من صلى للقبلتين، وقيل من شهد بدراً، وقيل من حضر بيعة الرضوان[5]، وممن يشملهم فضل الفوز بالرضا الرباني، اللاحقون بالسابقين من الفريقين، على أن من تبعيضية، أو الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة، فالمراد بالسابقين جميع المهاجرين والأنصار، بناء على أنَّ (من) بيانية.[6]

ومن الآيات القرآنية التي أشارت إلى تفضيل المجاهدين في سبيل الله، قوله تعالى: {لا

---

1. بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار: 1/ 374.
2. تحفة الأحوذي: 6/ 389.
3. صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر بعد النبي، صلى الله عليه وسلم.
4. التوبة: 100.
5. التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 83.
6. تفسير أبي السعود: 4/ 97.

يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}[1].

وذكر جزاء الأخيار من الخلق في كثير من الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الصحيحة، ومن ذلك بيان أن المجاهدين درجات عند ربهم، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (من آمَنَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كان حَقّاً على اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهَدَ في سَبِيلِ اللهِ، أو جَلَسَ في أَرْضِهِ التي وُلِدَ فيها، فَقَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ؛ أَفَلَا نُبَشِّرُ الناس؟ قال: إِنَّ في الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ في سَبِيلِ اللهِ، ما بين الدَّرَجَتَيْنِ، كما بين السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فإذا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فإنه أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرحمن، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ)[2].

أفضلية أشخاص بأعيانهم:

لم يقتصر بيان درجات الناس، وأفضلية تفضيلهم على بعض، على ذكر أصنافهم، بل ورد تفضيل بعض أشخاصهم بأعيانهم، ومن هؤلاء الأنبياء والمرسلون، عليهم السلام، فالله تعالى أثنى على أنبيائه، عليهم السلام، الذين اصطفاهم من خلقه، فقال جل شأنه بحقهم: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ* إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ* وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ* وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الأَخْيَارِ}[3].

والرسول، صلى الله عليه وسلم، ذكر صنفاً من المفضلين على الناس حين ذكر المؤمن

1. النساء: 95.
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله...
3. ص:45 - 48.

المجاهد، دون تحديد أشخاص بعينهم، وفي أحاديث أخرى مُنحت الأفضلية لأشخاص بأعيانهم، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، فضل أبا بكر الصديق، على سائر الأصحاب الأخيار، فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رضي الله عنه، قال: خَطَبَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، الناس وقال: (إِنَّ اللهَ خَيَّرَ عَبْدًا بين الدُّنْيَا وَبَيْنَ ما عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ ذلك الْعَبْدُ ما عِنْدَ اللهِ، قال: فَبَكَى أبو بَكْرٍ، فَعَجِبْنَا لِبُكَائِهِ أَنْ يُخْبِرَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، عن عَبْدٍ خُيِّرَ، فَكَانَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، هو الْمُخَيَّرَ، وكان أبو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: إِنَّ من أَمَنِّ الناس عَلَيَّ في صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كنت مُتَّخِذًا خَلِيلًا غير رَبِّي، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ وَمَوَدَّتُهُ، لا يَبْقَيَنَّ في الْمَسْجِدِ بَابٌ إلا سُدَّ، إلا بَابَ أبي بَكْرٍ) [1].

وفي حديث الرجل الذي يخرج للدجال ويحاوره، ويعلن عن كفره به، فإن النبي، صلى الله عليه وسلم، وصفه بأنه خَيْرُ الناس، أو من خَيْرِ الناس، فعن أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، رضي الله عنه، قال: (حدثنا رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، حَدِيثًا طَوِيلاً عن الدَّجَّالِ، فَكَانَ فِيمَا حدثنا بِهِ، أَنْ قال: يَأْتِي الدَّجَّالُ وهو مُحَرَّمٌ عليه أَنْ يَدْخُلَ نِقَابَ الْمَدِينَةِ، بَعْضَ السِّبَاخِ التي بِالْمَدِينَةِ، فَيَخْرُجُ إليه يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ هو خَيْرُ الناس، أو من خَيْرِ الناس، فيقول: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الذي حدثنا عَنْكَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، حَدِيثَهُ، فيقول الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتَ إن قَتَلْتُ هذا ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ، هل تَشُكُّونَ في الْأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ: لا، فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ، فيقول: حين يُحْيِيهِ، والله ما كنت قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْيَوْمَ، فيقول الدَّجَّالُ: أَقْتُلُهُ، فلا أُسَلَّطُ عليه) [2].

ادعاء الخيرية والفضل للنفس:

نهى الله عز وجل عن زعم زكاة النفس وطهرها، فقال جل شأنه: {...فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم، (سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر).
2. صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة.

هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}[1].

والتزكية المنهي عنها، هي التي يمدح الإنسان فيها نفسه؛ لأنها تبنى على معيار التقوى، التي يعلمها الله وحده، وهو القائل جلّ شأنه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً}[2].

وكان أخيار الناس لا يَدَّعون الخيرية والفضل لأنفسهم، فعن مُحَمَّدِ بن الْحَنَفِيَّةِ، قال: (قلت لأَبِي: أَيُّ الناس خَيْرٌ بَعْدَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال أبو بَكْرٍ: قلت: ثُمَّ من؟ قال: ثُمَّ عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ، قلت: ثُمَّ أنت، قال: ما أنا إلا رَجُلٌ من الْمُسْلِمِينَ) [3].

مكتفين بهذه الومضات، التي يسَّر الله تعالى عرضها في مجال بيان أفضل الناس عنده سبحانه، عسى أن يكون في تأملها دافع يحفز على انتهاج درب الأفاضل والأخيار، لنكون من زمرتهم بعون الله وتوفيقه، مع التأكيد على أن ما تمَّ عرضه كان في ضوء ما ورد بشأن أفضل الناس وخير الأمم في الآيات القرآنية وأحاديث خير البرية، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين

1. النجم: 32.
2. النساء: 49.
3. صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذاً خليلاً).

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

ينهى عن الحسد

الحلقة الأولى

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فإن الظَّنَّ أَكْذَبُ الحديث، ولا تَحَسَّسُوا، ولا تَجَسَّسُوا، ولا تَحَاسَدُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا)[1].

حرص الإسلام على تعديل سلوك المسلمين ليتماشى مع روحه وقيمه، ومن بين المثالب السلوكية التي نص الحديث الشريف أعلاه على النهي عنها، الحسد، الذي يتعارض وجوده مع الإيمان، فلا يجتمع الإيمان والحسد في نفس واحدة، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يَجْتَمِعُ فِي جَوْفِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَفَيْحُ جَهَنَّمَ، وَلا يَجْتَمِعُ فِي جَوْفِ عَبْدٍ الإِيمَانُ وَالْحَسَدُ)[2].

معنى الحسد والفرق بينه وبين الغبطة:

جاء في معاجم اللغة، أن معنى الحسد أن يتمنى المرء أَن تتحول إليه نعمة امرئ آخر وفضيلته، أَو يسلبهما هو، بينما الغبط أَن يتمنى أَن يكون له مثلها، ولا يتمنى زوالها عنه.[3]

والفرق بين المعنيين واضح، إذ الحاسد لم يقتصر على تمني أن يكون له مثل ما عند غيره من الخير والنعم، وإنما يتمنى زوال ذلك عن غيره، وأن يتحول له، بينما الغابط، يحب أن يكون عنده مثل ما عند غيره من النعم، دون تمني سلبها منه.

والإنسان بطبعه يعجب بالأمور الحسنة ويتمناها، لكنه يقع في المحظور والإثم إذا أرفق مع تمني الحصول على مثل ما عند غيره من الخير تمنياً شريراً، يتلخص في رجاء أن يستحوذ على خيرات الآخرين دونهم.

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر.
2. صحيح ابن حبان، 10/ 466، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.
3. لسان العرب: 4/ 115.

أثر الحسد على المحسود:

ثبت في الدين أن الحسد يضر أحياناً المحسود، فالعين حق، كما جاء في الحديث الصحيح، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْعَيْنُ حَقٌّ، وَنَهَى عن الْوَشْمِ)[1].

جاء في فتح الباري، أن معنى (العين حق)؛ أي الإصابة بالعين شيء ثابت موجود، أو هو من جملة ما تحقق كونه، وقد أخذ الجمهور بظاهر الحديث، وأنكره طوائف المبتدعة لغير معنى؛ لأن كل شيء ليس محالاً في نفسه، ولا يؤدي إلى قلب حقيقة، ولا إفساد دليل، فهو من متجاوزات العقول، فإذا أخبر الشرع بوقوعه لم يكن لإنكاره معنى، وهل من فرق بين إنكارهم هذا، وإنكارهم ما يخبر به من أمور الآخرة.

ورد ابن حجر على من زعم أن قوله العين حق، يريد به القدر؛ أي العين التي تجري منها الأحكام، فإن عين الشيء حقيقته، والمعنى أن الذي يصيب من الضرر بالعادة عند نظر الناظر إنما هو بقدر الله السابق، لا بشيء يحدثه الناظر في المنظور، ووجه الرد أن الحديث ظاهر في المغايرة بين القدر وبين العين، وإن كنا نعتقد أن العين من جملة المقدور، لكن ظاهره إثبات العين التي تصيب، إما بما جعل الله تعالى فيها من ذلك، وأودعه فيها، وإما بإجراء العادة بحدوث الضرر، عند تحديد النظر، وإنما جرى الحديث مجرى المبالغة، في إثبات العين، لا أنه يمكن أن يرد من القدر شيئاً.[2]

وابن حجر العسقلاني بعد أن استعرض بعض الآراء في تفسير أثر عين الحاسد، ذكر أن الله أجرى العادة بوجود كثير من القوى والخواص في الأجسام والأرواح، كما يحدث للشخص من الاصفرار عند رؤية من يخافه، واحمرار الوجه عند الخجل، وكل ذلك وغيره بواسطة ما خلق الله تعالى في الأرواح من التأثيرات، ولشدة ارتباطها بالعين، نسب الفعل

1. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب العين حق.
2. فتح الباري: 10 /203.

إلى العين، وليست هي المؤثرة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها، فمنها ما يؤثر في البدن بمجرد الرؤية من غير اتصال به؛ لشدة خبث تلك الروح، وكيفيتها الخبيثة، والحاصل أن التأثير في إرادة الله تعالى وخلقه ليس مقصوراً على الاتصال الجسماني، بل يكون تارة به، وأخرى بمجرد الرؤية، وأخرى بتوجه الروح، كالذي يحدث من الأدعية والرقى، والالتجاء إلى الله، وتارة يقع ذلك بالتوهم والتخيل، فالذي يخرج من عين العائن سهم معنوي، إن صادف بدناً لا وقاية له، أثر فيه، وإلا لم ينفذ السهم، بل ربما رد على صاحبه، كالسهم الحسي سواء.[1]

والمتمعن في مجريات الأمور في أرض الواقع، يجد أثر أداة القتل في حدوثه، والموت كغيره من المجريات لا يتم إلا بقدر الله، وكذلك أثر عين الحاسد كأداة مؤثرة في وقوع ضرر على المحسود، لا يستغرب وجود أثرها، كما أدوات الحوادث الأخرى، فهي إنما تؤثر فيما أودع الله فيها من خواص، التي لو شاء الله خالقها عطلها، أو وقف خواصها، كما نزع خاصية الإحراق من النار لما ألقي فيها إبراهيم، عليه السلام، فأصبحت على نقيضها برداً وسلاماً، مصداقاً لقوله تعالى: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ}[2]، فلا تعارض بين أثر الحسد والعين، وبين القدر.

الحسد المشروع:

الحسد بالمعنى المبين أعلاه مذموم، يرفضه الشرع ويمقته، ويتوعد أصحابه بالعقاب على إثمه، كونه شراً أرادوه لغيرهم من الناس، إذ الأصل في المؤمن أن يحب الخير لغيره، كما يحبه لنفسه، فالنبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (لا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)[3]، والحسد يتنافى مع هذا المبدأ، غير أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، استثنى

1. فتح الباري: 10 /200 - 201.
2. الأنبياء: 69.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

من تحريم الحسد حالتين، بينهما في حديثه الذي يقول فيه: (لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالًا، فَسُلِّطَ على هَلَكَتِهِ في الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله الْحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بها، وَيُعَلِّمُهَا)[1].

جاء في شرح قوله: (لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْنِ)؛ أي لا حسد في شيء إلاَّ في اثنتين، أي في خصلتين، فالمعنى لا إباحة في شيء من الحسد إلاَّ فيما كان هذا سبيله، أي لا حسد محمود إلاَّ هذا، وقيل: إنه استثناء منقطع، بمعنى لكن في اثنتين.

وقوله: (فسلط على هلكته) في هذه العبارة مبالغتان؛ إحداهما التسليط، فإنه يدل على الغلبة، وقهر النفس المجبولة على الشح البالغ، والأخرى لفظ (على هلكته) فإنه يدل على أنه لا يبقي من المال شيئاً، ولما أوهم اللفظان التبذير، وهو صرف المال فيما لا ينبغي، ذكر قوله: (في الحق) دفعاً لذلك الوهم، وكذا القرينة الأخرى اشتملت على مبالغتين، إحداهما الحكمة، فإنها تدل على علم دقيق محكم، والأخرى القضاء بين الناس، وتعليمهم، فإنها من خلافة النبوة.

وفي الحديث ترغيب في طلب العلم وتعلمه، والتصدق بالمال، وقيل: إنه تخصيص لإباحة نوع من الحسد، كما رخص في نوع من الكذب، ففي الحديث: (ليس الْكَذَّابُ الذي يُصْلِحُ بين الناس، وَيَقُولُ خَيْرًا، وينمي خَيْرًا، قال ابن شِهَابٍ: ولم أَسْمَعْ يُرَخَّصُ في شَيْءٍ، مِمَّا يقول الناس كَذِبٌ، إلا في ثَلاثٍ؛ الْحَرْبُ، وَالإِصْلاحُ بين الناس، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا)[2].

ويلخص العيني أنواع الحسد في ثلاثة أضرب؛ محرم، ومباح، ومحمود، فالمحرم، تمني زوال النعمة المحسود عليها عن صاحبها، وانتقالها إلى الحاسد، وأما القسمان الآخران فغبطة، وهو أن يتمنى ما يراه من خير بأحدٍ، أن يكون له مثله، فإن كانت في أمور الدنيا فمباح، وإن كانت

1. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة.
2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه.

من الطاعات فمحمود، قال النووي: الأول حرام بالإجماع، وقال بعض الفضلاء: إذا أنعم الله تعالى على أخيك نعمة، فكرهتها وأحببت زوالها، فهو حرام بكل حال، إلاّ نعمة أصابها كافر، أو فاجر، أو من يستعين بها على فتنة أو فساد. والله أعلم.(*)

فالحسد بمعنى تمني زوال النعمة عن الآخرين مذموم، بل شر يقترفه شرير، والمؤمن يربأ بنفسه أن يكون حاسداً لغيره في الأحوال جميعها، آملين التمكن في الحلقة القادمة من متابعة الحديث عن هذا الموضوع، وبخاصة عن علاج المحسود، والوقاية من الحسد، حسب ما جاء في سنة النبي، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* عمدة القاري: 2/ 57 – 58.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

ينهى عن الحسد

الحلقة الثانية

عن أبي الطُّفَيْلِ، قال: (قلت لابن عَبَّاسٍ: أَرَأَيْتَ هذا الرَّمَلَ بِالْبَيْتِ ثَلَاثَةَ أَطْوَافٍ، وَمَشْيَ أَرْبَعَةِ أَطْوَافٍ، أَسُنَّةٌ هو؟ فإن قَوْمَكَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ سُنَّةٌ، قال: فقال: صَدَقُوا وَكَذَبُوا، قال: قلت: ما قَوْلُكَ صَدَقُوا وَكَذَبُوا؟ قال: إِنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قَدِمَ مَكَّةَ، فقال الْمُشْرِكُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَطُوفُوا بِالْبَيْتِ من الهزال، وَكَانُوا يَحْسُدُونَهُ، قال: فَأَمَرَهُمْ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنْ يَرْمُلُوا ثَلَاثًا وَيَمْشُوا أَرْبَعًا...)[1].

يتناول هذا الحديث الصحيح في جانب منه تعليل جانب من عداء المشركين للنبي، صلى الله عليه وسلم، من خلال إرجاع ذلك إلى حسدهم إياه، وقد جاء في التفسير الكبير، أن القوم إنما نازعوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعاندوه، واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لأمرين؛ الكبر والحسد، أما الكبر؛ فلأن تكبرهم، كان يمنعهم من الانقياد، وأما الحسد؛ فلأنهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة والدرجة العالية، فبين تعالى أن هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا إبليس على الخروج من الإيمان، والدخول في الكفر، فهذه بلية قديمة، ومحنة عظيمة للخلق.[2]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، أمر الصحابة بالرمل ثلاثاً في الطواف، ليظهروا جلدهم، وقوة بأسهم للظانين، أنهم ضعفوا عن الطواف بالبيت، وليعلم حاسدوهم بما أنعم الله عليهم من الهداية والرشاد.

---

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة وفي الطواف الأول في الحج.
2. التفسير الكبير: 21/ 365.

والشاهد من هذا الحديث هنا، أن الحسد يدفع إلى العداء والأذى، بغض النظر عن الجهة الحاسدة أو المحسودة، وعن سبب الحسد وأساليبه، ومن شواهد فعل الأذى بسبب الحسد ما ذكره القرآن الكريم عن إخوة يوسف، عليه السلام، حيث قال تعالى: {لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ* اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ}[1]

الوقاية من الحسد وعلاجه:

لا يعني إقرار وجود الحسد وآثاره الدعوة إلى الاستسلام له، أو الوسوسة منه والرعب، فما يكون من أمر على هذا الوجود إلا بأمر الله، وقد أشار الله جل في علاه إلى هذه الحقيقة، في سياق الحديث عن قضية مشابهة للحسد، ألا وهي قضية السحر، فقال جل شأنه: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}[2]، فلا يتم شيء من الخلق خيراً أو شراً إلا بإرادة الله تعالى، مصداقاً لقوله سبحانه: {...وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ} فالضرر الحقيقي لا يقع إلا بإذن الله، ولو شاء لمنع وقوعه، فلو صبر القاتل على المقتول لمات حتف أنفه، إذ الأمور تجري وفق قضاء الله وقدره، والمؤمن يعتقد جازماً أن الله خلق الكون، ويصرف أمره كيف يشاء، وأنه لا راد لفضله ولا لقضائه، وآثار الحسد تصيب

1. يوسف:7 – 9.
2. البقرة: 102.

المحسود بإذن الله، ولو شاء سبحانه أن يصرفها لعطلها بشكل من الأشكال، ولو أصابت المقصود بها، فيكون ذلك بقضاء وقدر أجراه الله على يد الحاسد أو عينه.

الرقية من العين والحسد:

انطلاقاً من القاعدة الإيمانية سالفة الذكر، فإن وقوع آثار الحسد ممكن، لكنه ليس حتمياً، والوقاية منه مشروعة، وكذلك معالجته، بشرط تقيد ذلك كله بأحكام الشرع وضوابطه، من هنا كان النهي عن اقتراف الحسد ابتداء، ونزلت المعوذتان وغيرهما من السور والآيات القرآنية، التي تقي من شر الحاسدين والساحرين، وإذا ما أصاب الحسد شخصاً، فقد جاء في الآثار الصحيحة ما يوجه إلى حسن المعالجة الإيمانية لهذه الآفات، من خلال قراءة القرآن الكريم، والرقى الشرعية الواردة في الآثار الصحيحة، ومن ذلك ما جاء عن ابن عَبَّاسٍ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كان شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ، سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وإذا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا)(*)

وفي الديباج على مسلم، أن جماهير العلماء أخذوا بظاهر هذا الحديث، وأنكره طوائف المبتدعة، والدليل على فساد قولهم، أن كل معنى ليس مخالفاً في نفسه، ولا يؤدي إلى قلب حقيقة، ولا إفساد دليل، فإنه من مجوزات العقول، فإذا أخبر الشرع بوقوعه وجب اعتقاده، ولا يجوز تكذيبه، ومن فرق بين تكذيبهم بهذا، وتكذيبهم بما يخبر به من أمور الآخرة، قال: ومذهب أهل السنة أن العين تفسد وتهلك عند نظر العائن بفعل الله تعالى، أجرى الله العادة أن يخلق الضرر عند مقابلة هذا الشخص لشخص آخر.

وقوله: (وإذا استغسلتم فاغسلوا): هذا أمر وجوب، ويجبر العائن على الوضوء للمعين، على الصحيح، قال: ويبعد الخلاف فيه إذا خشي على المعين الهلاك، وكان وضوء العائن مما جرت العادة بالبراءة به، أو كان الشرع أخبر به خبراً عاماً، ولم يكن زوال الهلاك إلا به، فإنه

* صحيح مسلم، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى.

يصير من باب من تعين عليه إحياء نفس مشرفة على الهلاك، وقد تقرر أنه يجبر على بذل الطعام للمضطر، فهذا أولى.

قال: وصفته عند العلماء، أن يؤتى بقدح ماء، ولا يوضع القدح في الأرض، فيؤخذ منه غرفة، فيتمضمض بها، ثم يمجها في القدح، ثم يؤخذ منه ما يغسل به وجهه، ثم يأخذ بشماله ما يغسل به كفه الأيمن، ثم بيمينه ما يغسل به مرفقه الأيسر، ولا يغسل ما بين المرفقين والكفين، ثم يغسل قدمه اليمنى، ثم اليسرى، ثم ركبته اليمنى، ثم اليسرى، على الصفة المتقدمة، وكل ذلك في القدح، ثم داخلة إزاره، وهو الطرف المتدلي الذي يلي الأيمن، وإذا استكمل هذا، صبه من خلفه على رأسه، قال: وهذا المعنى لا يمكن تعليله، ومعرفة وجهه، وليس في قوة العقل الاطلاع على أسرار جميع المعلومات، فلا يدفع هذا بأن لا يعقل معناه.

وقال القاضي: في هذا الحديث من الفقه ما قاله بعض العلماء، إنه إذا عرف أحد بالإصابة بالعين يجتنب ويحترز منه، وينبغي للإمام منعه من مداخلة الناس، ويأمره بلزوم بيته، فإن كان فقيراً رزقه ما يكفيه، ويكف أذاه عن الناس، فضرره أشد من ضرر آكل الثوم والبصل، الذي منعه النبي، صلى الله عليه وسلم، دخول المسجد لئلا يؤذي المسلمين، ومن ضرر المجذوم، الذي منعه عمر والخلفاء بعده الاختلاط بالناس، ومن ضرر المؤذيات من المواشي، التي يؤمر بتغريبها إلى حيث لا يتأذى بها أحد. قال النووي: وهذا الذي قاله هذا القائل صحيح متعين، ولا يعرف عن غيره تصريح بخلافه.(*)

فعلاج الحسد يكون بقراءة القرآن، ودعاء الله أن يذهب البأس، ولا يكون علاجه عن طريق الخزعبلات، أو الاستجارة بممارسيها ممن يزعمون معرفة الغيب والقدرة على رد البلاء، وشفاء المسحورين والمصابين بالعين بوسائل غير مشروعة من الطلاسم وأشباهها،

* الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج: 5 /205.

والرسول، صلى الله عليه وسلم، حذر من مراجعة العرافين، وطلب عونهم أو معلومات منهم، فقال: (مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً).(*)

فهذه بعض التوجيهات الشرعية الواردة بشأن الحسد، والوقاية منه، ومعالجته إذا ما وقع، عسى أن تفيد المهتمين بالاطّلاع على هذا الموضوع، حتى يربأوا بأنفسهم عن الوقوع في زلل الفهم لمثل هذه المسألة، وينأوا بأنفسهم كذلك عن أخطاء معالجة مثل هذه القضايا، راجين أن ييسر الله متابعة الحديث عن هذا الموضوع وأبعاده في الحلقة القادمة، من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم
ينهى عن الحسد
الحلقة الثالثة والأخيرة

جاء في صحيح البخاري، بَاب رُقْيَةِ النبي، صلى الله عليه وسلم، وفيه، عن أَنَسِ بن مَالِكٍ، أن ثَابِتاً قال: (يا أَبَا حَمْزَةَ؛ اشْتَكَيْتُ، فقال أَنَسٌ: ألا أَرْقِيكَ بِرُقْيَةِ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: بَلَى، قال: اللهم رَبَّ الناس، مُذْهِبَ الْبَاسِ، اشْفِ أنت الشَّافِي، لا شَافِيَ إلا أنت، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا)(*).

في الحلقة الأولى، من حلقات النهي عن الحسد، تم بيان معنى الحسد، والفرق بينه وبين الغبطة، وأثر الحسد في المحسود، فالعين حق؛ أي الإصابة بها شيء ثابت موجود، والحسد غير الغبطة المشروعة، والحسد يرفضه الشرع ويمقته، وهو يدفع إلى العداء والأذى، بغض النظر عن الجهة الحاسدة أو المحسودة، وعن سبب الحسد وأساليبه، وتم التعرض إلى مسألة الوقاية من الحسد وعلاجه، مع التأكيد على أن الإيمان بوجود الحسد، وآثاره لا يعني الدعوة إلى الاستسلام له، أو الوسوسة منه والرعب، فلا يكون من أمر على هذا الوجود إلا بأمر الله وقضائه وقدره، ومما يتعلق بهذا الموضوع مسألة الرقية من العين والحسد، فالوقاية منه مشروعة، وكذلك معالجته، بشرط تقيد ذلك كله بأحكام الشرع وضوابطه، مع التنويه إلى أن للعلماء آراء في الرقى، وكيفية التعوذ بها.

الاختلاف في حكم الرقى والنفث والتعليق:

الحديث أعلاه يتضمن النص على ألفاظ إحدى الرقى المشروعة، مما يعني أن الرقى الشرعية مشروعة، سواء لمن أصابته عين أو غير ذلك، فعن عبد الرحمن بن الأَسْوَدِ، عن

* صحيح البخاري، كتاب الطب، باب رقية النبي، صلى الله عليه وسلم.

أبيه، قال: (سَأَلْتُ عَائِشَةَ عن الرُّقْيَةِ من الْحُمَةِ، فقالت: رَخَّصَ النبي، صلى الله عليه وسلم، الرُّقْيَةَ من كل ذِي حُمَةٍ) [1]

قوله: (من كل ذِي حُمَةٍ) المراد بها ذوات السموم، ووقع في رواية الترخيص في الرقية من الحية والعقرب.[2]

وبين الرازي في تفسيره الاختلاف في حكم الاستعانة بالرقى والعوذ، مبيناً أن منهم من قال إنه يجوز، واحتجوا بوجوه، نورد بعضها مخرجة ومسندة إلى مصادرها، دون الخوض في شرحها، بغية الاختصار والإجمال:

أحد تلك الوجوه، أَنَّ جِبْرِيلَ أتى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا محمد، اشْتَكَيْتَ؟ فقال: نعم، قال: بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، من كل شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، من شَرِّ كل نَفْسٍ، أو عَيْنِ حَاسِدٍ، الله يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ)[3] .

وثانيها، عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، إذا أتى الْمَرِيضَ يَدْعُو له، قال: أَذْهِبِ الباس رَبَّ الناس، وَاشْفِ أنت الشَّافِي، لا شِفَاءَ إلا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا)[4].

وثالثها، عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم: (كان يَنْفِثُ على نَفْسِهِ في مَرَضِهِ الذي قُبِضَ فيه بِالْمُعَوِّذَاتِ، فلما ثَقُلَ كنت أنا أَنْفِثُ عليه بِهِنَّ، فَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَتِهَا، - فَسألت ابن شِهَابٍ- كَيْفَ كان يَنْفِثُ؟ قال: يَنْفِثُ على يَدَيْهِ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ). [5]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب رقية الحية والعقرب.
2. فتح الباري: 10 /206.
3. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى.
4. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض.
5. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب في المرأة ترقي الرجل.

ورابعها، عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، دخل على أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ، قال: وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، إذا دخل على مَرِيضٍ يَعُودُهُ، قال: لا بَأْسَ، طَهُورٌ إن شَاءَ الله، فقال له: لا بَأْسَ، طَهُورٌ إن شَاءَ الله، قال: قلت: طَهُورٌ؟! كَلا، بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُورُ، - أو تَثُورُ- على شَيْخٍ كَبِيرٍ، تُزِيرُهُ الْقُبُورَ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: فَنَعَمْ إِذًا)[1].

ومن الناس من منع من الرقى، لقول نَبِيّ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (يَدْخُلُ الْجَنَّةَ من أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، قالوا: وَمَنْ هُمْ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: هُمْ الَّذِينَ لا يَكْتَوُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقَامَ عُكَّاشَةُ، فقال: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهم، قال: أنت منهم، قال: فَقَامَ رَجُلٌ، فقال: يا نَبِيَّ اللهِ؛ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهم، قال: سَبَقَكَ بها عُكَّاشَةُ)[2].

وأجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون النهي عن الرقى المجهولة، التي لا تعرف حقائقها، فأما ما كان له أصل موثوق، فلا نهي عنه.[3]

واختلفوا في التعليق، فمنهم من منعه، مستدلين بقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من تعلق شيئاً وكل إليه) [4]، ومنهم من جوزه.[5]

واختلفوا في النفث أيضاً، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، كان إذا أَخَذَ مَضْجَعَهُ، نَفَثَ في يَدَيْهِ، وَقَرَأَ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَمَسَحَ بِهِمَا جَسَدَهُ) [6]

ومنهم من أنكر النفث، قال أبو عمر: قد كره التفل والنفث في الرقية جماعة، منهم إبراهيم النخعي والضحاك وعكرمة. والتفل ما فيه بصاق، يرميه الراقي بريح فمه، وقيل

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.
3. التفسير الكبير: 32/ 174.
4. سنن الترمذي، كتاب الطب عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، باب ماجاء في كراهية التعليق، وحسنه الألباني.
5. مصنف ابن أبي شيبة: 5/ 44.
6. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة عند المنام.

التفل البصاق نفسه، والنفث ما لا بصاق فيه.

قال أبو عمر: ولا حجة مع من كره ذلك، إذ قد ثبت عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه نفث في الرقى، وكانت عائشة ترقي وتنفث، وقال ابن سيرين ما أعلم به بأساً، وكان الأسود يكره النفث في الرقية، ولا يرى بالنفخ بأساً.[1]

الاستعاذة من شر الحاسد:

نهى الشرع عن اقتراف الحسد ابتداء، ونزلت المعوذتان، وإذا ما أصاب الحسد شخصاً، فقد جاء في الآثار الصحيحة ما يوجه إلى حسن المعالجة الإيمانية لهذه الآفات، من خلال قراءة القرآن الكريم، والرقى الشرعية الواردة في الآثار الصحيحة، ومن ذلك المعالجة عن طريق الاغتسال، وليس أدل على شر الحاسد، وتأثير الحسد مما علمنا الله إياه في سورة الفلق، من الاستعاذة من شر حاسد إذا حسد، والتي جاءت مقترنة مع الاستعاذة من شر السحر، فقال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ* مِن شَرِّ مَا خَلَقَ* وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ* وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ* وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}[2]، فقرنت هذه السورة الكريمة الاستعاذة من شر الحاسد، بالاستعاذة من شر السحرة، وعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، كان إذا أَوَى إلى فِرَاشِهِ، كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، فَقَرَأَ فِيهِمَا: قُلْ هو الله أَحَدٌ، وَ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا، ما اسْتَطَاعَ من جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا على رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ، وما أَقْبَلَ من جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذلك ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) [3]، فتشرع معالجة الحسد بالاستعاذة والرقى والقرآن.

التحذير من الخرافات:

كتابة بعض الأقوال على المركبات أو داخل البيوت، تدل أحياناً على مدى الرعب

1. الاستذكار: 8/ 410 ـ 411.
2. سورة الفلق.
3. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات.

من الحسد، والتحرز من الحاسدين، ويعبر بعض الناس عن الرعب من العين، والخوف من الحسد، بسلوكات تنم عن وهم يقترن أحياناً بأعمال خرافية، تنبع من نسج خيال وخزعبلات ما أنزل الله بها من سلطان، ومن ذلك تعليق الخرزة الزرقاء، أو أحذية مقلوبة، أو حذوة حصان، أو استخدام بعض أنواع البخور لطرد أثر العين الشريرة، فذلك وما شابهه من أعمال يصدق الحكم عليها بأنها خرافات الدين منها براء.

وهنا تنبغي الإشارة إلى أن بعض الناس يخطئون في تشخيص أحوالهم ومشكلاتهم، من خلال إحالتها إلى الحسد وعيون الناس، وقد تكون لها أسباب أخرى، من هنا يقعون في خطأ العلاج، الذي يكون أحياناً من نوع آخر، حين تكون الأسباب غير الحسد، إذ قد تكون صحية أو اجتماعية أو غير ذلك، مما يستلزم التدقيق في التشخيص، للوصول إلى العلاج الملائم، وذلك حسب الحالة وظروفها، سائلين الله العلي القدير، أن يعافينا من شر الحسد والحاسدين، وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يحدث عن الخذلان والتعاضد

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (لا تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هاهنا، وَيُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ، أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ)[1]

في ظل العدوان الغاشم الذي يتعرض له المسجد الأقصى المبارك، حيث منع الظالمون إقامة الصلوات الخمس، والجمعة، ورفع الأذان فيه، وحرم رواده من أداء واجب شد الرحال إليه، فصلوا الخمس في أقرب الأماكن قرباً منه، من التي سمح لهم بوصولها، وارتقى الشهداء من خيرة شبابه إلى الباري سبحانه، محققين شعار: بالروح بالدم، نفديك يا أقصى، بأرواحهم ودمائهم التي أريقت في أكنافه، فطوبى لهم، وحسن مقام عند ربهم، وهو القائل سبحانه: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ}[2]، وأكد في الآية 169 من سورة آل عمران أنهم {أحياء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}.

في ظل هذا العدوان الصارخ الذي تبث تفاصيله وصوره وأخباره بالصوت والصورة الفضائيات أولاً بأول، يجد المسجد الأقصى وللأسف ردوداً فاترة باهتة، لا ترقى إلى مستوى بشاعة العدوان، ولا ترد له لهفة، ولا تبلسم له جراح، من مسلمي العالم وعربهم المنتشرين في أنحاء المعمورة، إلا من رحم الله، ومنهم أبناء القدس والقاطنون في محيطه وأكنافه، من

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.
2. البقرة: 154.

الذين أنعم الله عليهم بحبه، والوفاء بعهدهم له بالفداء والمرابطة في جنباته، وعلى أبوابه، وفي الأزقة المحيطة به، فمن هؤلاء يشع نور الأمل، وتبدو ملامح العز والإباء، في وقت عزت فيه هذه المعاني، وبهتت صورها في واقع المسلمين عموماً، وحتى في أذهانهم، فغابت عن المسجد الأقصى المبارك كما غيره من مواضع الحاجة الماسة إلى النخوة والشهامة، وفاحت روائح الخذلان من مواقف الذين انسلخوا عن جلدهم، ورضوا بالدنية في دينهم وواقعهم وأوطانهم، فالمس بحرمة المسجد الأقصى لم يعد مجرد مخاوف، وإنما انكشفت العورات، وسقطت أوراق التوت عنها، وها هو حزين لخلوه من المصلين، وغياب صوت الأذان عنه، ومسلمو العالم يعلمون ويشاهدون، وتلامس أسماعهم صيحات مسرى نبيهم، صلى الله عليه وسلم، وقبلتهم الأولى، دون أن تجد في عامتهم وخاصتهم نخوة الغوث، التي تنطق بحالها ومقالها: لبيك يا أقصى، لبيك يا مسرى خير الأنام، وخاتم النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليه، الذي نفى عن المؤمنين خذلانهم إخوانهم، فما بالكم إذا كان الخذلان حاصلاً تجاه ثاني مسجد وضع في الأرض لعبادة الله بعد المسجد الحرام؟! إنها الجريمة النكراء بعينها، بل هو المنكر الأعظم، لأنه يتساوق مع أفعال أظلم الظلمة، الذين قال الله تعالى فيهم: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[*].

وهنا يتساءل المرء في سره وعلنه، كيف تغيب هذه المعاني والقيم عن بال المسلمين وسلوكهم، وهم يشاهدون ما يجري لإخوانهم وأقدس مقدساتهم؟! كيف يتناسون بشاعة خذلان قبلتهم الأولى، والتقاعس عن نصرة المظلومين والمستضعفين منهم؟! كيف يتناسون أنهم وفق معايير دينهم كالبنيان المرصوص، وكالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى

* البقرة: 114.

له سائر الجسد بالسهر والحمى؟!

نصرة المظلوم:

من أبسط الحقوق التي تجب على المسلم تجاه إخوانه، أن ينصرهم ضد ظالميهم، ففي الحديث الصحيح، عن الْبَرَاء بن عَازِبٍ، رضي الله عنهما، قال: (أَمَرَنَا النبي، صلى الله عليه وسلم، بِسَبْعٍ، وَنَهَانَا عن سَبْعٍ، فذكر عِيَادَةَ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعَ الْجَنَائِزِ، وَتَشْمِيتَ الْعَاطِسِ، وَرَدَّ السَّلامِ، وَنَصْرَ الْمَظْلُومِ، وَإِجَابَةَ الدَّاعِي، وَإِبْرَارَ الْمُقْسِمِ)[1].

فنصرة المظلوم من المأمورات الشرعية لا من مندوباتها، ولا من نوافلها، فهو حق للمسلم على إخوانه الذين يجدون لديهم سعة لنصره على أعدائه، بل إن الرسول، صلى الله عليه وسلم، ذهب إلى أبعد مدى في ترسيخ مبدأ لزوم نصر المسلمين من إخوانهم، فجعل ردع الظالم منهم عن ظلمه شكلاً من أشكال نصره، فقال: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أو مَظْلُومًا، قالوا: يا رَسُولَ اللهِ؛ هذا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قال: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ)[2].

والله تعالى أنكر على المتخاذلين عن نصر المستضعفين، فقال عز وجل: {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً}[3].

فكيف لعلماء الأمة وأبنائها عربهم وعجمهم أن يمروا على هذه الحقائق الدينية مرور الكرام، ويتهاونوا في نصر أقصاهم، والمرابطين حوله وفي أكنافه من إخوانهم؟! هل تقبل عند الله أعذارهم أو تأويلاتهم؟ هل يقبل منهم التساوق مع تفسيرات المحتلين لأرضهم

1. صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم.
2. صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً.
3. النساء:75.

ومقدساتهم ومسترقي إخوانهم، فيردد بعض من ألقيت على عيونهم الغشاوة كلاماً يصعب فهمه، ولا هضمه، وفق معايير الإسلام، والإنسانية السوية؟! فالمطلوب ليس حرباً ظالمة، ولا عدواناً على أبرياء، فالله لا يحب المعتدين، وإنما المطلوب إنقاذ الرازحين تحت وطأة ظلم الظالمين، وتطهير مسجد من أبرز مساجد المسلمين، وقبلتهم الأولى ومسرى نبيهم، صلى الله عليه وسلم، ومعراجه إلى السماء، وأحد ثلاثة مساجد حصر شد الرحال المشروع إليها دون سواها من مساجد الدنيا، التي يصعب عدها وحصرها، وثاني مسجد وضع في الأرض لعبادة الله في الأرض، بعد المسجد الحرام، ماذا سيجيب مسلمو الدنيا عن شكوى المسجد الأقصى: كل المساجد طهـرت وأنا على شرفي أدنس؟!!!!

المؤمن للمؤمن كالبنيان:

لا تقف المعاني المتساوقة مع لزوم نصر المسجد الأقصى ورواده والمرابطين على ثغوره، عند ما سبق ذكره، بل تتضافر معها قيم نبيلة أخرى، كالتي تؤكد طبيعة العلاقة بين المؤمن وإخوانه، فهو لهم كالبنيان يشد بعضه بعضاً، كما جاء عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، ثُمَّ شَبَّكَ بين أَصَابِعِهِ ...)(*)

وهنا يشرع السؤال عن فهم مسلمي الدنيا لمعنى البنيان المذكور في هذا الحديث الشريف، وعن تطبيق مفهومه على مواقفهم تجاه المسجد الأقصى المبارك وحراسه وسدنته ورواده والمرابطين في أكنافه، وعلى أبوابه، هل يا ترى سيعذرون لتخليهم عن تطبيق معاني شد البنيان بعضه بعضاً، حين يتعاملون مع قضية مصيرية للأمة، كقضية المسجد الأقصى، وما يجري في تفاصيلها من انتهاكات لحرمات الإسلام والمسلمين؟! هل يقبل التهوين من شأن هذه القضية لدرجة الغفلة عنها، والاكتفاء في أحسن الأحوال بمتابعة أخبار ما يجري،

* صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً.

كما يتابع هواة الرياضة وعشاقها أخبار الدوريات الرياضية؟!! وبعض المسلمين لم يقفوا عند حد هذا الخوار، بل تعدوه إلى حد تسويغ ما يجري، وإلقاء الملامة على الرازحين تحت وطأة حراب السجّان، وظلمه وبطشه وعدوانه، منطلقين من آفاق شديدة في الضيق، وبخاصة تلك المنتنة التي تفوح من العصبيات البغيضة، والعنصريات الضحلة.

المؤمن للمؤمن كالجسد الواحد:

المؤمن للمؤمن ليس فقط كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وإنما هو كذلك كالجسد الواحد، الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، حسب قول رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ، تَدَاعَى له سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)(*)

ما سبق ذكره من المعاني والقيم وفق ما ثبت في الكتاب والسنة، يحسن بالمسلمين جميعاً أن يذكروه، كما يذكرون صلاتهم، وصيامهم، وزكاتهم، وحجهم، فالأمر جلل، والخطب عظيم، يتعلق بمسؤولية المسلمين أجمعين، وليس أبناء القدس وفلسطين فحسب؛ لأن المقصود إنقاذ المسجد الأقصى المبارك قبلة المسلمين الأولى، ومسرى نبيهم، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

الفهرس

الفصل الأول / العقيدة		
الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم		
.1	حسبه الله وكافيه والمؤمنين	6
.2	من أطاعه فاز	11
.3	يرشد إلى مكفرات الخطايا والذنوب	16
.4	المؤمن يحبه ولا يرغب بنفسه عن نفسه	21
.5	ألف بين قلوب المؤمنين بأمر الله وإرادته	25
.6	يبين فضل المتحابين بجلال الله – الحلقة الأولى	31
.7	يبين فضل المتحابين بجلال الله – الحلقة الثانية	36
.8	يبين فضل المتحابين بجلال الله – الحلقة الثالثة	40
.9	يبين فضل المتحابين بجلال الله – الحلقة الرابعة والأخيرة	45
.10	يعبر عن يقينه وثقته بوعد الله	50
.11	يعبر في طريق هجرته عن يقينه بالمعية الإلهية	55
.12	يبين للعالمين منزلة المسجد الأقصى عند المسلمين	59
.13	يهيئ الأجواء الإيمانية لاستقبال رمضان بالعزم على التوبة النصوح	64
الفصل الثاني / العبادات		
الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم		
.1	أمره الله أن يعبده حتى يأتيه اليقين	70
.2	يلفت الانتباه إلى أهمية الاستقامة على عبادة الله وديمومتها – الحلقة الأولى	75
.3	يلفت الانتباه إلى أهمية الاستقامة على عبادة الله وديمومتها – الحلقة الثانية والأخيرة	81

.4	يعنى بتهذيب سلوك الصائم – الحلقة الأولى	86
.5	يعنى بتهذيب سلوك الصائم – الحلقة الثانية والأخيرة	91
.6	كان كالريح المرسلة في رمضان	96
.7	يبشر الصائمين بجوائزهم	101
.8	يبدأ يوم العيد بالصلاة	106
.9	يبين فضل العشر من ذي الحجة	111
.10	ينهى عن الفسوق في الحج	116
.11	يعلمنا الاستسقاء	121
الفصل الثالث/ السيرة النبوية		
الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم		
.1	صاحب الإرادة الصلبة والعزيمة القوية	127
.2	ونماذج من حسن وفائه	131
.3	تفطرت قدماه شكراً لله	135
.4	مات ودرعه مرهونة – الحلقة الأولى	140
.5	مات ودرعه مرهونة – الحلقة الثانية والأخيرة	145
الفصل الرابع / جهاد وأسرى		
الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم		
.1	يحدث عن هلاك كسرى وقيصر	151
.2	يطمئن أم الشهيد – الحلقة الأولى	156
.3	يطمئن أم الشهيد – الحلقة الثانية	161

.4	يطمئن أم الشهيد – الحلقة الثالثة والأخيرة	166
.5	يأمر بالعمل على إطلاق سراح الأسرى	171
الفصل الخامس/ مناهج وقيم		
الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم		
.1	يعنى بسلامة الصدور – الحلقة الأولى	178
.2	يعنى بسلامة الصدور – الحلقة الثانية	183
.3	يعنى بسلامة الصدور – الحلقة الثالثة والأخيرة	188
.4	يبين دور الصبر على الابتلاء في تكفير الذنوب ورفع الدرجات	193
.5	ينبذ التطرف والمغالاة	198
.6	يبين أن خير المتدابرين من يبدأ بالسلام	203
.7	يخبر عن القوم الذين لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ – الحلقة الأولى	208
.8	يخبر عن القوم الذين لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ – الحلقة الثانية	213
.9	يخبر عن القوم الذين لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ – الحلقة الثالثة والأخيرة	218
.10	يبين أفضل الناس وخير الأمم – الحلقة الأولى	223
.11	يبين أفضل الناس وخير الأمم – الحلقة الثانية	228
.12	يبين أفضل الناس وخير الأمم – الحلقة الثالثة والأخيرة	233
.13	ينهى عن الحسد – الحلقة الأولى	238
.14	ينهى عن الحسد – الحلقة الثانية	243
.15	ينهى عن الحسد – الحلقة الثالثة والأخيرة	248
.16	يحدث عن الخذلان والتعاضد	253